التطور الديمقراطي في بريطانيا

١٠٦٦- ١٩٠١

دروس في الوطنية والبناء السلمي للديمقراطية

ا.د.موسى محمد آل طويرش

الجامعة المستنصرية

٢٠١٣

بغداد – الجامعة المستنصرية – كلية التربية
Mosatwarish50@yahoo.com

بسم الله الرحمن الرحيم

قلنا اهبطوا منها جميعاً فاما يأتينَكمْ منى هدىً فمن تَبِعَ هُداى فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ۞

صدق الله العظيم

سورة البقرة- الآية ٣٨



الاهداء

لكل من يؤمن بالقيم الانسانية كمعيار للتعامل مـع الاخـرين بعيـدا عـن التوصـيفات الدينيـة او الاثنية.

ولكــل مــن يــؤمن بالديمقراطيــة باعتبارهــا نكران للذات وحب للوطن.

المحتويات

المقدمة

منذ زمن ليس بالقصير كانت تساؤلات عديدة تدور في ذهني لاتخلو من الاعجاب والانبهار حول التجربة الديمقراطية المتميزة في بريطانيا بكل أعرافها وقواعدها واخلاقياتها ،فكيف تمنح سلطة شعبها حقوقا بدون ثورة او انقلاب او عنف؟كيف تتنازل طبقات اجتماعية واقتصادية متنفذة عن أمتيازاتها السياسية الى طبقات المجتمع الاخرى ؟وما هي درجة نكران الذات لدى الجميع وشعورهم الوطني الذي جعلهم قادرين على التوافق والتعايش وخلق تجربة ديمقراطية ناضجة؟كيف تمكن الشعب البريطاني من النضوج والوعي السياسي الذي جعلهم ينمسكون بالمطالبة السلمية بحقوقهم وبشكل متحضر بعيدا عن العنف والتعصب؟لماذا لم يخرج في بريطانيا قادة امثال هتلر او موسيليني او نابليون او غيرهم من قادة لايملكون سوى طموحهم واطماعهم واخضاع كل شيء في الدولة لنفوذهم تحت هذه الذريعة او تلك؟

كيف اثر النمو التدريجي للديمقراطية والحريات في بريطانيا في بناء مجتمع متماسك مبدع وملتزم؟

هذه الاسئلة وغيرها اثارت الرغبة في البحث والتقصي في جذور هذه التجربة ومراحل تطورها وارهاصاتها ، كونها تجربة جديرة بالاحترام اولا وبالدراسة ثانيا لبيان طبيعتها واهميتها ومحاولة العمل على ايجاد المناخ الملائم لمحاكتها في بلادنا التي تدور في حلقة مفرغة من العنف والثورات والافكار التي لم تنتج الا الدمار والجهل والتخلف على كل الصعد بالرغم مما حبا الله هذه الارض بخيرات قل نظيرها.

ان اهم القيم البريطانية هي الشعور الوطني العالي يحب الارض والشعب والاخلاص له دون نفاق او مساومة او ادعاء بل ان قيم الصدق ونكران الذات والمواطنة تجعل الفرد يتقبل التضحية في سبيل الوطن والشعب بكل شيء ان كانت سلطة او مصالح اقتصادية .هكذا بنيت بريطانيا الدولة والانسان والسلطة والشعب والقيم. فالحكام لم يعتبروا الفشل في ادارة الدولة هزيمة لهم ولا الاستقالة خسارة، بل ان التمسك بالسلطة بالرغم من الفشل هو الهزيمة وان الاستقالة من المنصب شرف للسياسي كونه اثبت وطنيته واخلاصه لبلده وترك المجال لمن هو اقدر منه بتقدير الشعب في ادارة الدولة. وهكذا كان التناوب الرائع والجميل على السلطة بين السياسين والجميع يتسابقون في خدمة الدولة بالاسلوب الذي يعتقدونه صحيحا وعلى الشعب ان يختار ويقدر، كما ان ذلك كله لايحتاج الى رقيب او قوة وانما الاعراف والقيم واحترام الذات والمسؤولية هي الدافع والرقيب.

ان مفهوم النمو التدريجي للديمقراطية اهمية كبيرة في ترسيخ القيم الديمقراطية في المجتمع، اذ ان الديمقراطية البريطانية هي نتاج لعملية تحول طويلة قادتها النخبة السياسية والاجتماعية في المجتمع، وقد اختلف مفهوم النخبة من حقبة تاريخية الى اخرى، اذامثلت الطبقة الارستقراطية والنبلاء النخبة في بريطانيا والتي اجبرت الملك البريطاني في ظروف معينة الى ان يتنازل لهم عن قسم مهم من امتيازاته في ادارة الدولة في ما اطلق عليه(العهد الاعظم). واستمرت هذه الطبقات في تقييد سلطة الملك حتى وصلت الى تحقيق مبدأ (ان الملك يسود ولا يحكم) كقيمة محترمة في بريطانيا. وقد مُنح البرلمان صلاحيات واسعة لادارة شؤون الدولة، فبعد التطورات التاريخية لاسيما الاقتصادية وظهور طبقات جديدة في المجتمع

البريطاني مارس البرلمان صلاحياته في ادارة الدولة بشكل اكثر شمولية للشعب البريطاني حتى وصل الى ذروته في بداية القرن العشرين لقد قامت الديمقراطية في بريطانيا على اهم اساس لها في العمل السياسي وهو الوعي الشعبي والقدرة والامكانيات الاقتصادية والفكرية التي تجعل هدف السياسي خدمة الدولة والشعب وليس النهم والرغبة باستغلال المنصب للثراء اوالمصالح الشخصية او الفئوية. من ذلك كله بدأت هذه الدراسة بدراسة التاريخ البريطاني منذ بدايته وابرزت بشكل واضح التطور في النظام السياسي البريطاني في مختلف المراحل ليصل الى القرن التاسع عشر.ولم تذهب الدراسة بعيدا في الشؤون البريطانية الخارجية وانما ركزت على التطورات الداخلية الا في حالة تاثير السياسية الخارجية على الواقع الداخلي.

وقد توقفت الدراسة مع انتهاء العصر الفكتوري مع بداية القرن العشرين كون ان المرحلة التي تلت ذلك تعتبر مرحلة جديدة ومختلفة عن ما سبقتها ،اذ ان الشعب البريطاني بدا بقطف ثمار التطور الديمقراطي الذي بني في قرون ووصل ذروته في ذلك العصر.

لم تكن الدراسة هيئنة اذ تطلب الامر الاطلاع على عشرات المصادر العربية والاجنبية والتي حاولنا من خلالها ايجاد تصور وبصياغة لغوية ميسره وواضحة للوصول الى الهدف المنشود في ايصال الفكرة كاملة للمتلقي لاسيما طلبة التاريخ والمهتمين بالشؤون الثقافية والسياسية والذين يسعون لبناء مجتمعاً بناءً مدنيا وديمقراطيا بعيد عن التعصب الديني او الطائفي او القومي وعن التخلف والجهل بكل اشكالة، انطلاقا من ان مفهوم الديمقراطية ينطلق من حقيقتين اساسيتين هما حب الوطن ونكران الذات وهذان لايتحققان الا بالوعي العميق لابناء المجتمع. وبودي

هنا ان اشيد بتلك الاطاريح التي كتبها طلبتنا في الجامعات العراقية والتي تناولت اوجه عديدة من التاريخ البريطاني فقد كانت دراسات في منتهى العلمية والدقة والابداع وقد ساعدتني كثيرا في تلمس العديد من المعلومات المهمة واستدللت من خلالها على عدد من المصادر المهمة التي اطلعت عليها. ومن ابرز تلك الاطاريح التي اعدها الاخ عدي محسن غافل الهاشمي، الاصلاح البرلماني في بريطانيا في العصر الفكتوري(١٨٣٧- ١٩٠١) والمقدمة الى كلية التربية- الجامعة المستنصرية- بغداد، ٢٠٠٦.واطروحة حيدر صبري شاكر، الملكة فكتوريا واثرها في السياسية البريطانية (١٨٣٧- ١٩٠١) المقدمة الى كلية الاداب في جامعة بغداد، ٢٠٠٩.

واطروحة الاخ اياد تريكان ابراهيم الدليمي، اللورد هنري يمبل بالمرستون ودوره في السياسية الخارجية البريطانية(١٨٢٠- ١٨٦٥) المقدمة الى كلية التربية –الجامعة المستنصرية- بغداد، ٢٠١٣.واطروحة الاخت اروى خالد علي مصطفى،وليم بت والسياسة البريطانية (١٧٧٣- ١٨٠٦) والمقدمة الى كلية التربية – الجامعة المستنصرية، ٢٠٠٧.واطروحة الاخ نهار محمد نوري القرغولي،النزعة العلمانية في بريطانيا خلال الحكم الفكتوري. كلية االادب- جامعة بغداد، ٢٠١٢.

وغيرها من الاطاريح التي تفتخر الجامعات العراقية بانجازها اما الكتب التي اطلعنا عليها واستقينا منها المعلومات فهي كثيرة وساذكر قسما منها في نهاية هذه الدراسة.

واخيرا فاني اشكر كل من ساهم معي في اعداد هذه الدراسة التي لم يكن لها أي هدف اخر سوى خدمة الباحثين واظهار الحقائق التاريخية التي يمكن الافادة منها كمنهج عمل لكل من لدية القدرة على بناء

مجتمعنا على اسس سليمة واشكر كل من زودني بكتاب او معلومه او ترجمة او طباعة او تصحيح وانا لا ادعي قد كتبت كل شيء عن تاريخ بريطانيا او ان هذه الدراسة مكتملة الجوانب لان الكمال لله وحدة وانما هي محاولة وجهد ان نفع فنحمد الله تعالى ونشكره والا فيكفينا انا اجتهدنا وحاولنا والله من وراء القصد وهو ولي التوفيق

موسى محمد ال طويرش

الفصل الاول

الوصف الجغرافي العام

التمسك بالحرية هي اهم ما ميز الشعب البريطاني،تلك الحرية التي تمت وتأصلت في واقع من القيم والاخلاقيات والعادات السليمة، ولم يكن ذلك وليد الصدفة بل ان الواقع الجغرافي قد فعل فعله كعامل اساسي ومهم في التكوين النفسي والقيمي والسياسي للشعب البريطاني.

ان الحقيقة التي لابد ان نشير اليها في البداية ان الجغرافية لها الاثر العميق والاساسي على التطور التاريخي للدول، فهناك الدولة المغلقة(بحريا) لها واقع تاريخي واجتماعي وسياسي يختلف عن الدولة المفتوحة على بحر واحد او بحار متعددة ،والدولة الصغيرة تختلف عن الدولة الكبيرة، والدولة التي لها حدود مشتركة مع دول عديدة يكون تطورها التاريخي مختلف عن الدولة التي حدودها بحرية او مع دول قليلة وهناك الدولة الحاجزة بين دولتين لتكون ساحة للصراع كما حصل مع العراق على مر العصور لاسيما بين الدولة الفارسية والدولة العثمانية، كل ذلك وغيره يشير بقوة الى اهمية الجغرافية في حياة الدول والشعوب.وبعيدا عن الخوض في موضوع اهمية الجغرافية على التطورات التاريخية الا اننا نعتبر ذلك مقدمة لتوضيح اهمية موقع بريطانيا الجغرافي في تطورها التاريخي

يشير احد الكتاب الى وصف جغرافية بريطانيا بانها تمثل فسيفساء جيلوجية وبشرية وكأن الطبيعة جعلت منها متحفا (على حد تعبيره) بدأً من السهول الخضراء المزهرة الى المرتفعات الطباشيرية البيضاء المطلة على البحر الى الاراضي المنبسطة المغطات بطبقة من الحصى والرمال الملونة الى التلال والسهول الخضراء المنتشرة.


جزر شتلاند
هيرمانس
المحيط الأطلسي
بحر الشمال
جزر أوركاد
جزر هبريدز الخارجية
ستورنوواي
ج. لويس
هاريس
أويست الشمالية
أويست الجنوبية
بارا
الهبريدز
كول
تيري
مول
ستافا
جورا
رأس وارث
رأس دونيت
تورسو
ويك
رأس دانكانزبي
بن مور أسينت 998 م
هيلمسدال
ديرنس
أولابول
سكور مور 1 109 م
إنفرنس
فريزربورغ
بيتيرهيد
أبردين
جبال كيرنغورم 1 310 م
جبال غرامبيان
بن نيفيس 1 344 م
فورت وليام
أسكتلندا
بن موري 1 174 م
أوبان
بيرث
دندي
سان أندروز
ستيرلينغ
غلاسغو
إيدنبورغ
المرتفعات الجنوبية
جزيرة أران
كامبلتاون
أير
برود لاو 840 م
ميريك 843 م
دمفريز
ستراينراير
رأس سان آب
بيرويك - أبون - تويد
كولرين
لندنديري
إيرلندا الشمالية
أنتريم
بلفاست
أولستر
بالميناً
نيوري
دوندوك
جزيرة مان
625 م
دوغلاس
البحر الإيرلندي
نيوكاسل
سندرلاند
ساوث شيلدز
دورهام
هارتلبول
ميدلسبورو
دارلينغتون
كارليل
قمة سكافل 977 م
كنداال
سكاربره
نورث يورك موورز
بريدلينغتون
لانكاستر
بريستون
بلاكبول
بلاكبورن
برادفورد
ليدز
هاليفاكس
يورك
كنغستون - أبون - هل
غريمسبي
ليفربول
مانشستر
شفيلد
دونكاستر
دبلن
إيرلندا
دروغيدا
ويكلو
أركلو
ويكسفورد
ووترفورد
هوليهيد
بانغور
سنودون 1 085 م
بلاد الغال
جبال كامبريان
أبريستويث
كارديغان
نوتنغهام
ديربي
ستوك أن ترنت
لينكولن
بوسطن
إنكلترا
نورفولك
نورويتش
غريت يارموث
لويستوف
بيتربورو
كامبريدج
إيسويتش
كولشستر
برمنغهام
ولفرهامبتون
كوفنتري
ليستر
نورثامبتون
أكسفورد
لوتن
لندن
سوانسي
كارديف
نيوبورت
بريستول
باث
سويندون
غلوستر
بحر السلت
رأس هارتلاند
إكسمور
ديفون
إكستر
دارتمور
بلايموث
تروو
فالماوث
كورنويلي
لاندس أند
جزر سيلي
رأس ليزارد
دورست
بول
بورنماوث
ساوثمبتون
بورتسماوث
جزيرة وايت
برايتون
دوفر
فولكستون
كنت
بحر المانش
ديبب
فرنسا
50 كم



إيرلندا

الجزيرة البريطانية عبارة عن ارخبيل يمتد طولا ليشكل اشبه بالمثلث الذي تحيط به المياه من جميع الاتجاهات، ويقدر طول الجزيرة قبالة قارة اوربا(من النروج الى منطقة دوفر قبالة فرنسا) حوالي ٣٢٠ ميل. وتتميز الجزيرة البريطانية بانها بحرية ليس فقط بكون حدودها الساحلية

من جميع الأتجاهات وانما ايضا حتى الداخل البريطاني لا يبتعد عن البحر كثيرا، اذ ان أبعد نقطة في مركز بريطانيا عن البحر لا تتجاوز ٧٥ ميل. ويعطي احد الكتاب وصفاً جميلا عن ذلك مشيراً الى أن الفلاحين بامكانهم رؤية الطيور البحرية وهي تحوم على مزارعهم البعيدة عن البحر مما يعطيهم الدليل على وجود عواصف على البحر أدت الى دفع الطيور الى داخل الجزيرة مما يشير الى قرب كل الاراضي البريطانية من البحر.

الدولة البريطانية تتكون من جزيرتين رئيسيتين وجرز صغيرة ، الجزيرة الاولى تضم انكلترا وويلز واسكتلندا والثانية تضم شمال ايرلندا، موقعها يتحدد بين خط عرض ٥٠° - ٦٠° شمالاً.

مثل البحر في حياة بريطانيا كفاصل عن اوربا ولكن في ذات الوقت اعتبر كواصل ايضاً، السؤال كيف يمكن الجمع بين المتناقضين؟

اولا يجب ان نعرف ما هي البحار الي تحيط بالجزر البريطانية التي تبلغ مساحتها اليابسة (٩٤) الف ميل، فمن الشرق يحدها بحر الشمال الذي يفصلها عن الدول الاسكندنافية لا سيما النروج وهي الاقرب لها من تلك الدول،وعن فرنسا يفصلها القنال الانكليزي وهو قريب جدا من الاراضي الفرنسية بل يعتقد عدد من الجغرافيين انه كان هناك ما يشبه الجسر البري الذي يربط الاراضي البريطانية بالاراضي الفرنسية عبر القتال

الانكليزي طمر او غمر في المياه عبر الازمان، والفاصل المائي بين الدولتين الان هو الاقصر، اذ لايزيد عن ٢١,٥ ميل وبعمق لايزيد عن ٦٠٠ قدم وذلك عند مضيق دوفر(Dover) . ثم تتسع الهوة البحرية مع اوربا لتصل الى ٣٠ ميل ثم تكون ١٠٠ ميل بعيداً عن الحدود الهولندية قبل ان تضيق مجداً قرب الحدود مع النروج والذي يفصلها عن الجزيرة البريطانية بحر الشمال. في الشمال والغرب يمتد المحيط الاطلسي الذي يفتح للجزر البريطانية المجالات واسعة امام الملاحة في جميع الاتجاهات اما الجنوب الغربي فيحيط بريطانيا بحر المانش .ويفصل بحر ايرلندا وعدد من القنوات المائية الواسعة جزيرة بريطانيا عن ايرلندا. و تشير المصادر البريطانية الى ان البريطانيون يعتبرون هذا الموقع منحه ألاهية تغنى بها شعرائهم وكانت مصدر الهام لكتابهم الكبار امثال شكسبير وشارلوت برونتي (صاحبة قصة مرتفعات وذرنغ) وكان يميز البريطانيون ارضهم عن اوربا بانهم يطلقون عليها (القارة) تمييزا عن بريطانيا.

لقد ساهمت هذه العزلة الجغرافية في تغلغل الاحساس بالاختلاف لدى الفرد البريطاني من النواحي الفكرية والاجتماعية والسياسية، عن سكان اوربا، لذا فقد ساعد موقع بريطانيا على ان يكون التطور التاريخي فيها مختلفا اذ لم تتاثر بالافكار الشيوعية او بالانظمة الكارزمية على الرغم من انها كانت مصدر الفكر الاشتراكي والفكر السياسي الاصلاحي.فقد كان فكر توماس مور وروبرت أوون وجان لوك ملهما اساسيا لعدد كبير من المفكرين في اوربا بل واصبحت اساساً لانظمة سياسية عديدة نشأت في اوربا اوخارجها، كما انها احتظنت عدد من المفكرين الراديكاليين امثال كارل ماركس الذي وضع نظريته الشيوعيه في كتابه(راس المال)في لندن بعيدا عن بلاده

المانيا، بل ان الحزب الشيوعي كان يعقد مؤتمراته في بداية القرن العشرين في العاصمة البريطانية وذلك دليل على الاجواء الفكرية المفتوحة لكل دون ان يكون لذلك تاثيرا على الشعب البريطاني نفسه الذي التزم بنهج سياسي واجتماعي مختلف عن ماآلت اليه التطورات السياسية في اوربا لاسيما خلال القرن التاسع عشر والعشرين .

ان هذا الموقع الجغرافي المهم والمميز تعزز بمناخ ملائم اذ أعتبر البريطانيون بأنهم محظوظون بمناخهم. وهذا الامر اثار لدي استغرابا اذ اننا نعرف ان الاجواء البريطانية ملبده بالغيوم ويلف اجوائها الضباب مما اعطانا صورة صعبة عن الحياة في بريطانيا بشكل عام ولندن بشكل خاص. الا ان الاطلاع على عدد من المصادر البريطانية والعربية لاسيما في مجال الجغرافيا تشير الى امر مختلف، لقد وصفها الجغرافيون(ان الطبيعة كانت رحيمة وكريمة مع البريطانيين فلم تقلع العواصف الأشجار والبستانيين لأنها عادة لا تكون شديدة).وان المبالغة في وصف الضباب اللندني يعود الى خيال الشعراء والكتاب الذين بالغوا فيه وكما يشار (ان ضباب لندن الكثيف لا محل له الا في القصص فقط).

لقد ساعد المناخ المتوسط او المعتدل او الملائم كما بوصف على أثبات الحدائق الجميلة المزهرة في معظم مناطق بريطانيا اذ ان اعتدال المناخ هذا يشمل الصيف والشتاء فقد اكدت المصادر الجغرافية على ان متوسط درجة الحرارة يكون(١٢)درجة على مدار السنة الامر الذي ادى الى ملائمة المناخ لنحو النباتات الخضراء والزهور بانواعها وبشكل واسع يغطي سفوح التلال والاراضي السهلية التي لاتستخدم للزراعة. فضلا عن توفر نباتات الرعي على المرتفعات، وانتاج انواع مختلفة من الفواكة والخضر التي تسد حاجة السكان. الشيء الملفت في المناخ البريطاني

عامة هو وفرة تساقط الامطار وان كان فيها اختلاف بين الاراضي السهلية والمرتفعات، اذ تمثل المرتفعات حاجزا للغيوم الكثيفة الامطار، وتتسلل الغيوم المتوسطة الامطار الى السهول البريطانية لاسيما في انكلترا (جنوب شرق بريطانيا) لتنثر مطر كالرذاذ ويوصف احيانا انه (لا يبلل المارة بشده). هذه الامطار واسلوب توزيعها له اهمية عظيمة لبريطانيا فالامطار الغزيرة عند المرتفعات في اسكتلندا وويلز تعمل على تكوين انهار عديدة ومتشعبة تتخلل كل الاراضي البريطانية وقد تكون بحيرات مائية هنا وهناك.

وأن هذه الانهار لايقتصر استخدامها للزراعة فحسب وانما ايضا هي طريق للنقل بين الاراضي البريطانية لاسيما انها تتواصل مع البحر في جميع الاتجاهات في مصبات صالحة للملاحة، ذلك كونها انهار منتظمة المياة نتيجة استمرار هطول الامطار في منابعها مما جعل هذه الانهار اذرع بحرية صالحة للملاحة، والمثير في الامر أن مصبات هذه الانهار تتخلص تلقائياً من الترسبات المعيقة للملاحة بفعل موجات المد والجزر مما يجعلها صالحة للاستخدام بشكل مستمر، وتتميز الانهار البريطانية ايضا بقصر اطوالها فان أبعد نقطة بين منبع النهر ومصبه في البحر لايتجاوز ١٠٠ كم.

كما تتنوع طبيعة الارض في الجزر البريطانية بين السهول والتلال والجبال، اذ ان الجزء الجنوبي منها تمثله(انكلترا وويلز) يتكون في الاغلب من مناطق سهلية تتخللها التلال. و توصف التلال على السواحل الانكليزية بانها طباشرية يميل لونها الى البياض وعندما تصل الى البحر شرقا فانها تكوِّن جدارا ابيضا مطل على البحر في لوحة جميلة. تنمو في هذه التلال الطباشرية نباتات خضراء تمثل غذاءا جيداً للاغنام كونها تضيف جودة لاصوافها فضلاً عن اضافة روعة الى المشهد العام. تشغل

المرتفعات الوعرة الجزء الاكبر من الاراضي الاسكتلنديه(شمال بريطانية).

كما ان هناك مرتفعات بين انكلترا واسكتلندا ، حتى في ويلز توجد بعض المرتفعات، اذ ان شمال ويلز فيه جبال وعرة تتميز بانهمار الامطار الغزيرة عليها التي تمثل مصدرا مهما لمياه الانهار في بريطانيا ، كما تتميز بكثافة الضباب الذي يغطي وديانها.

اما جنوب ويلز فانه يتميز بالاراضي الغنية بالفحم من النوعية الجيدة القريبه من سطح الارض، ومثل ذلك الفحم اهمية عظيمة خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر اذ كان المادة الاساسية في الوقود المستخدم في ذلك الوقت. وقد شيدت في هذه المناطق خلال تلك المرحلة عدد كبير من المناجم في الاودية وقرب الانهار الا ان اهمية هذه المناجم بدات تتضائل خلال القرن العشرين مع تضائل اهمية الفحم مع ظهور بدائل اكثر انتاجا واقل تكلفة واجود نوعية مما انعكس على واقع السكان وعملهم.

اما سكان بريطانيا فتشير عدد من الشواهد التي وجدت هناك على ان تلك المنطقة كانت مأهولة منذ العصر الحجري.حتى ان اسم بريطانيا جاء من جماعة سكنوا هذه الارض منذ القدم يدعون(البرشون، Brythons) وهم جماعة دينية اتخذت لها مدينة (ستون هيج) في سهل سالزبري عاصمة لهم وعملوا على نصب الشواهد الصخرية التي لها دلالات دينية وهذه الشواهد عبارة عن صخور بيضاء(طباشرية) ارتفاعها نحو(١٥) قدم رفعت ونصبت بشكل هندسي مميز، واتخذت كطقوس للعبادة منذ (٤) الاف سنة. الا ان هجرات عديدة اتجهت الى الجزر

البريطانية عبر فترات زمنية متعاقبة لاسيما من الدول الاوربية نتيجة للظروف السياسية والاجتماعية التي مرت بها اوربا خلال مراحل تاريخية مختلفة.

يصنف الجغرافيون السكان في بريطانيا الى ثلاث اصول الانكليز، الاسكتلنديين والغاليين فضلا عن الايرلنديين. وفي الوقت الذي اختلط فيه السكان الاصليين مع المهاجرين بعاداتهم ولغاتهم الا ان الاسكتلنديين وكذلك الغاليين الذين تمركزوا في ويلز حافظوا قدر الامكان على ملامحهم وعاداتهم، اذ كانوا اقل اختلاطا مع القادمين الاجانب، وحتى هؤلاء المهاجرين الاجانب كانوا يحذرون ارتياد تلك المناطق التي وصف اهلها بانهم (نافرين للغرباء) .حتى الغاليين فتعود اصولهم الى اسبانيا والبرتغال اما الاسكتلنديون(وعاصمتهم ادنبره) فتعود اصولهم الى الشعوب الاسكندنافيه لاسيما النروج التي تقابل سواحلهم.

وتعتبر انكلترا اكثر المناطق البريطانية التي توافد اليها المهاجرون لاسباب تتعلق بقربها من السواحل الفرنسية فضلا عن ارضها السهلية القليلة الوعورة.

لقد عمل توافد المهاجرين الاوربيين الى انكلترا على تمكنهم من التاثير على السكان الاصليين لاسيما المهاجرون الدنماركيون الذين سيطروا على اجزاء واسعه من انكلترا خلال القرن التاسع فضلا عن الهوكونوت الفرنسيين الذين فروا الى انكلترا نتيجة الاضطهاد الديني في القرن السابع عشر.

لذا فان السكان في انكلترا هم خليط من أصول مختلفة من الرومان السكسون(من الاصول الالمانية) والفرنسيين واجناس اوربية اخرى، وقد اعطت الطبيعة السهلية لانكلترا صفة التسامح مع سكانها

للتعايش مع الوافدين وتقبلهم والاندماج معهم فضلا عن ان اقرب نقطة الى اوربا هي انكلترا لذا فان المهاجرين كانوا يستسهلون الوصول الى تلك الاراضي لقصر المسافة البحرية التي تفصلهم عنها اما اسكتلندا فان معظم اراضها وعرة مما انعكس على طبيعة السكان القاسية والصلبة كما مر وصفهم هذا ينطبق ايضا على ويلز التي فيها ايضا مرتفعات وعرة وتكثر فيها الامطار بشكل واسع.

لقد ضمت ويلز الى بريطانيا في عهد الملك هنري الثامن الذي اصلا من ابناء ويلز، اذ كانت الحروب تنشب وتخبو بين الحين والاخر بين سكان ويلز وبين زعماء انكلترا ولورداتها، وقد تمكن هؤلاء من السيطرة على معظم اراضي ويلز.

في عهد هنري الثامن كان شعب وليز يفتخر ان راس السلطة في انكلترا رجل منهم فكان من السهل اقناعهم بالاتحاد مع انكلترا، وهكذا ضمت ويلز الى انكلترا قانونيا وسياسيا (كما سيمر بنا) على الرغم من ان سكانها عملوا على الاحتفاظ بلهجتهم وثقافتهم. ومن المهم ان نذكر هنا ان السمة الي اتصف بها سكان ويلز هي اهتمامهم بالادب والشعر والموسيقى منذ ازمان بعيدة، فمنذ مئات السنين درجت القرى في ويلز على اقامة مسابقات شعرية لاختيار افضل النتاجات الادبية والموسيقية ليترشح الفائزين لمهرجان كبير يقام في ويلز يسمى(استد فود Eistedd fod) وكان الفوز في هذا المهرجان يعد شرفا كبيرا ومدعاة للفخر.

من الصفات الاخرى لاهل ويلز اهتمامهم بطقوسهم الدينية لاسيما من اتباع الطائفة (الميثوديةMethodists) اذا تعطل في ايام الاحاد الحركة في القطارات والسيارات ويحرص السكان من الرجال والنساء والاطفال على ارتداء ملابسهم بشكل مميز في قيافة كاملة ابتداء

بالقبعات والمعاطف انتهاءاً بالجوراب والقفازات كلها ،ذات لون غامق ويتم السير باتجاه الكنيسة بوقار وخشوع حتى انهم ينظرون باحتقار واشمئزاز لكل من يضحك او لايحترم بتصرفاته واحاديثة هذه الطقوس اما في باقي الايام فهم شعب مرح يحب الانطلاق والموسيقى.

الفصل الثاني

الجزيرةالبريطانية من الاحتلال الروماني[1]الى الاحتلال النورماندي٥٥ق.م/١٠٦٦م

ان الواقع الجغرافي المنعزل لبريطانيا لم يمنع من ظهور حضارات قديمة على اراضيها تلك الحضارات التي وصلت اليها من رحلات بحرية عبر المحيط الاطلسي فضلاً عن تلك الحضارات القديمة المنطلقة من حوض البحر المتوسط عبر الاراضي الاسبانية والبرتغالية والفرنسية. من بين اهم تلك الحضارات التي عرفتها الجزيرة البريطانية وتحدث عنها المؤرخون (الحضارة الميجالثية Megalithiv ealtar) والتي رمزت اليها مجموعة العادات والديانات وفنون العمارة التي نقلها الملاحون الى بريطانيا قبل حوالي ٢٥٠٠ ق.م.

كما تعرضت الجزيرة خلال السنوات التي سبقت الفتح الروماني غزوات عدة كان لها الاثر المهم في التكوين السكاني لتلك المرحلة، ومن ابرز هذه الغزاوت غزو القدحيين وجاءت التسمية الى مخلفاتهم (الاقداح). وكذلك غزو الكلت او السلت(وهم اقوام سكنوا في غرب اوربا وتاتي تسميتهم من اللغة التي كان يتكلمون بها وهي اللغة الكلتية التي تعود

---

[1] الامبراطورية الرومانية:ظهرت روما كمركز تجاري حوالي ٧٥٣(ق.م) توسعت خلال قرون عدة باتجاهات متعددة.،مرت روما بعهدين تاريخين الاول يسمى عهد الجمورية وفيه كانت تحكم من قبل القناصل المنتخبين من قبل السناتو الثاني عهد الامبراطورية
والذي بدأ بتولي يوليوس قيصر السلطة.وقد اشتهر القيصربفتوحاته وقدراته السياسية والعسكرية وامكانياته الادبية والخطابية .وبعد انتصاراته الداخلية والخارجة في افريقيا واوربا قتل في عام ٤٤ق.م.اعلنت الامبراطورية الرومانية عند تولي اغسطس السلطة واستمرت الامبراطورية حتى سقوطها عام ٤٧٦م ينظر:د.ابراهيم نصحي،تاريخ الرومان،ج٢،(طرابلس الغرب- ١٩٧٣)،ص ٦١٧

الى اللغات الهندواوربية) والبلجيكيون والانكليز والسكوت وهؤلاء جميعهم من القبائل الجرمانية التي سكنت المانيا،وقد شكلت هذه الاقوام العمود الفقري للاصول العرقية لسكان بريطانيا.

الامر الذي يجب ان تشير اليه هنا ان تلك الغزوات وحتى الفتح الروماني الذي سوف نتطرق اليه شملت المناطق السهلية من الجزيرة البريطانية(لاسيما منطقة انكلترا وويلز) وكانت تلك الغزوات تتوقف عند المرتفعات على الحدود الشمال في الحدود الاسكتلندية اذ حافظوا سكان هذه المناطق في تلك المرتفعات على واقعهم العرقي والثقافي، وحتى اللذين تمكنوا من التسلل الى قراهم ومنهم مدنهم اندمجوا معهم وتاثروا بثقافتهم واساليب عيشهم.

تتميز المناطق التي تعرضت للغزو فضلا عن كونها سهلية كما ذكرنا فانها قريبة من اوربا اذ لايفصل الغزاة سوى ممر مائي ضيق بين بريطانيا وفرنسا، كما ان سكانها يتميزون بميلهم الى السلم، فيصفئهم المؤرخون بانهم كانوا سكان يعيشون في قبائل متناثرة تمارس الزراعة واستخراج بعض المعادن وكانوا منعزلين في قرى متباعده(منهم يتزاوجون وينجبون ذرية ويموتون في قراهم الصغيرة المتاثرة على ظهور التلال او أسطح الهضاب المطلة على المنخفضات المغطاة بالغابات الكثيفة والمستنقعات)

الفتح الروماني:

يمثل عام ٥٥ ق.م حدثا تاريخا مهما في حياة الجزيرة البريطانية، اذ تعرضت الى اول غزو خارجي منظم من قبل دولة كبيرة وله اهداف توسعية استيطانية، ذلك هو الفتح الروماني والذي فادة يوليوس قيصر في ضمن حملاته التي قادها لتوسيع رقعة دولته المترامية الاطراف . كانت

بريطانيا من المناطق القليلة التي لم تصل اليها سلطة الاميراطورية الرومانية في محيط اوروبا ، فضلا عن ان تلك المنطقة(بريطانيا) قد أثارت الفضول لدى القائد الروماني باعتبارها عالم منعزل ومتميز حامت حوله الشائعات عن كثرة خيراته ومنها تجارة اللؤلؤ.

لقد عبر قيصر القنال الفاصلة بين فرنسا وبريطانيا عام ٥٥ ق.م، الا ان تلك الحملة باءت بالفشل لاسباب تتعلق بتحطيم اسطوله على السواحل البريطانية نتيجة العواصف القوية الامر الذي اضطره للانسحاب، الا انه أعاد الكرة مرة اخرى وتمكن من هزيمة القائد البريطاني(كاسيفلونسCassivellanus) الا انه ولاسباب غير معروفه قرر الانسحاب وعاد بجيشه الى فرنسا(بلاد الغال) ثم جاء مقتل القصير عام ٤٣ ق.م لتتأجل فكرة فتح الجزيرة البريطانية مئة عام تقريبا.

ففي عهد الامبراطور كلوديوس قرر الرومان غزو الجزيرة عام(٤٣م) ودخل الغزاة في معارك عنيفة مع المدافعين من سكان بريطانيا السهلية(انكلترا) وذلك بزعامة ملكهم الذي يدعى (كارادوكCaradc) الا ان هذه المقاومة بالرغم من التفاني فيها الا انها لم تستطيع ان توقف زحف الجيش الروماني الذي يتمتع بالتنظيم والتدريب والخبرة الطويلة فضلاً عن التفوق في السلاح(كمية نوعية)، فقد تمكن الجيش الروماني من السيطرة على الاراضي السهلية و شبة السهلية في جنوب بريطانيا الا انهم توقفوا عند المرتفعات الاسكتلندية كما هو الحال مع من سبقهم من الغزاة نتيجة لوعرة الارض وصعوبة المناخ فضلا عن طبيعة السكان الاشداء في الدفاع عن اراضهم.

كان من بين اهم العوامل التي سهلت على الرومان احكام السيطرة لى الاراضي البريطانية(ما عدا اسكتلندا) انهم قاموا باعمال

تعبيد الطرق، اذ اقاموا شبكة من الطرق التي تربط المدن والمعسكرات والعاقل المحصنة، ورصفت هذه الطرق بكتل ضخمة من الحجارة التي ساعدت على استمرارها لمئات السنين. كما ان تلك الطرق كانت تسير بخطوط مستقيمة الى اهدافها لذا نجدها تخترق الجبال او التلال والغابات كما تم اقامة الحاميات العسكرية الدائمة على هذه الطرق لتأمينها.

كانت لندن ملتقى هذه الطرق جميعا مما جعلها قاعدة مهمة لتموين الجيوش ومن ثم تحولت الى مركز تجاري كبير لكل بريطانيا بشكل عام مما اعطاها الاهمية الكبيرة لتصبح عاصمة للجزيرة منذ ذلك الحين.

دامت الحملة الرومانية للسيطرة على بريطانيا ما يقارب ٤٠ عاماً اذ بلغت ذروتها ايام القائد الروماني جريكولا والذي اصبح حاكما على الجزيرة خلال الأعوام(٧٨- ٨٤م) فقد تمكن هذا القائد من إخضاع كل الأراضي البريطانية عدا اسكتلندا التي زحف أليها عام(٨٠م) وحاول وفق خطط عسكرية برية وبحرية للسيطرة عليها ،وكان بامكانة تحقيق ذلك الا ان السلطة في روما استدعت القائد الكفوء فقد كانت روما تعاني من الأزمات والصراعات الداخلية. كان جريكولا قائداً طموحاً وعازما على الاستيلاء على باقي اجزاء الجزيرة والابحار باتجاه ايرلندا لاخضاعها الا ان هذه الطموحات والخطط بلتوسع توقفت الى الابد بمغادرة هذا القائد الى روما اذ لم تنجز هذه المهمة من عهد الامبراطورية الرومانية حتى انحلالها وسقوطها.

بعد هذه المرحلة جاءت مرحلة تثبيت السيطرة وتامين الحدود للاجزاء التي شملتها السلطة الرومانية اذ تم بناء سور عند نهر التابين

عام(١٢٣م) ويدعى سور هادريان(هو اسم الامبراطور الروماني الذي بني السور في عهده) وكان الهدف من بناءه منع غارات الاسكتلندين على بريطانيا الرومانية. الا ان هذا السور لم يمنع هؤلاء من القيام بغارات عدة على المدن والقوات الرومانية الامر الذي دعا الامبارطور (انطونيوس) عام١٤٠م لأرسال حملة عسكرية بهدف أخضاع القبائل الاسكتلندية لسلطاته الا ان هذه الحملة لم تؤدي اهدافها في القضاء او ايقاف الغارات الاسكتلندية التي استمرت في السنوات اللاحقة لا سيما عام ١٨٠م اذ حاول المهاجمون تحطيم سور هادريان.

وفي محاولة من الامبراطور(سفروس) في دعم حدود بريطانيا الرومانية اعاد عام ٢٠٥م اصلاح السور لجعله اكثر متانه في المواجهة المهاجمين الامر الذي جعل المنطقة الرومانية اكثر امنا واستقرارا.

عملت السلطات الرومانية على تقسيم الجزيرة الى قسمين اداريين القسم الاول مركزه(يورك) في الشمال والثاني مركزه(لندن) حيث مركز الهيئات الحكومية وقد صنفت بريطانيا ضمن المستعمرات الرومانية المستقلة.

ان اهم ما يميز بريطانيا الرومانية قلة الرخاء الاقتصادي، اذ زاحمت البضائع القادمة من اصقاع الإمبراطورية المترامية الاطراف في اسيا وافريقيا واوربا البضائع المنتجة في بريطانيا واقتصرت التجارة فيها على تصدير بعض المواد مثل اللؤلؤ والجلود وغيرها.

وفي الوقت الذي ضعف فيه الإنتاج الصناعي والنشاط التجاري في المدن فقد شهد الريف البريطاني نوع من النمو الاقتصادي لاسيما في بعض المحاصيل الزراعية وفي تربية المواشي والأغنام، ويشير المؤرخون الى ان تلك المرحلة تميزت بقلة السكان في بريطانيا اذا كانت تنتشر الغابات

والمسطحات المائية التي تصعب الزراعة فيها اذ تتجاهل هذه المناطق بعض المجتمعات الريفية على أطراف الغابات او عند وديان التلال التي تشرف على تلك الغابات والمستنقعات لقد شعر البريطانيون انهم مجرد اقليم تابع للامبراطورية الكبيره مما افقدهم جزء كبير من حيويتهم وحتى شعورهم بلاستقلال، وتراجعت لديهم همة القتال وفنون الحرب فقد كانت القوات الرومانية المتواجدة في الجزيرة هي التي تتكفل حماية الجزيرة في الداخل والخارج من غزوات المهاجمين القادمين من اسكلتلدا او من ايرلندا.

ومن الجدير بالذكر ان بوادر انتشار الديانة المسيحية قد بدأت بالازدياد في بريطانيا في هذه المرحلة وأخذت تزاحم الديانات الوثنية لاسيما الكلتية المنتشرة هناك. كما ان الرومان لم يفضلوا العيش في الريف او حتى في المدن وانما كان مكان تواجدهم الطبيعي في القلاع التي بنوها لهم، وهذا يفسر تاثيرهم الثقافي المحدود على السكان الأصليين فقد بقت تلك القلاع والحاميات الرومانية الى حقب تاريخيه قادمة اذ اصبحت مدن فيما بعد يطلق عليها اسم(معسكرChastra) وتحولت الى(Chester) وارتبطت اسماء المدن بهذه التسمية مثل كولتشستر و دوتشستر ومانجستر وغيرها.

عندما دب الضعف في الامبراطورية الرومانية وبدأت بوادر انحلالها مع بداية القرن الثالث الميلادي انتهاءاً بالنصف الثاني من القرن الخامس الميلادي ((١)) فقد انعكس ذلك على مستعمراتها ومن بينها بريطانيا.

---

(١) يشير المؤرخين الى اسباب عديدة في انهيار الامبراطورية الرومانية الا ان احد هذه الاسباب استوقفني كثير ووجدت فيه صورة واضحة للعنف الذي دب في الدولة وهي تدهور المدن اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا، ويعزى المؤرخون ذلك الى هجرة اهل الريف بشكل واسع الى المدن بما يشبة الغزو والذي عمل على(ترييفها) اذ نشأت عقلية جديدة عند سكان المدن

عندما تعرض مركز الدولة الرومانية الى التهديد الخارجي بدات اوربا كلها وكانها مسرح للصراع والتنافس والاضطرابات، الامر الذي دعا الامبراطور الروماني عام(٤٢٢م) لاستدعاء كافة الجنود الرومان الموجودين في الحاميات الرومانية الموجودين في بريطانيا وكانت هذه الحاميات تعمل على الدفاع عن الاراضي البريطانية لمئات السنين، فضلا عن سحب السفن والآليات الأخرى التي كانت تحمي السواحل البريطانية، في الوقتالذي كانت هذه السواحل احوج ماتكون لتلك القوة للدفاع عنها في ضل الأوضاع الأوربية المرتبكة وغير المستقرة بسبب الفوضى التي أحدثها ضعف الإمبراطورية وهجوم القوى التي بدأت تظهر على الساحة الاوربية كالقوط والنورمان وغيرهم.

كانت عدد من الاقوام متلهفة ومتوثبة للسيطرة على الجزيرة البريطانية منهم (الكلت او السلت) القادمين من ايرلندا كما تدافع الاسكتلنديون الاشداء من الشمال والذين تمكنوا من تحطيم سور(هارديان) فضلا عن السكسون والانكليز[(١)](القادمون من المانيا(شرقا) وذلك ابتداء من ٤٥٠م.

بدات غارات هذه الجماعات تزداد على اراضي الامبراطورية الرومانية بشكل عام واصبحوا مع حلول القرن الرابع الميلادي على مقربة

وانقسم المجتمع في المدن الى اغلبية تاخذ من الدين وسيلة لها وتظهر كرهها للطبقة الارستقراطية وتقاليدها الامر الذي ادى(كما يشير المؤرخ توينتي) فشل المدينة في ترويض الجماهير القادمة لها من الداخل وكذلك تخليها عن الدفاع عن نفسها ضد العدو الخارجي. ينظر د.عبد القادر احمد اليوسف، العصور الوسطى(٤٧٦ -١٥٠٠) بيروت ١٩٦٧، ص٢٠.

[(١)] وهم اقوام جرمانية تعود اصولهم الى المنطقة الاسكلندنافية (لاسيما الدنمارك) ويصف المؤرخون هذه الاقوام بانهم اشداء مولعين بالحرب والغزو، لذا فان تاثيرهم سيكون عميقا على مستقبل الجزيرة على مستوى اللغه والعادات والتقاليد والثقافه.

من الاراضي البريطانية لاسيما على شواطئ بحر الشمال، ثم بدأوا بالاغارة عبر بحر المانش على الاراضي البريطانية بشكل مباشر مع حلول القرن الخامس الميلادي.

تعتبر سنوات القرن الخامس الميلادي من اصعب الفترات التي مرت بها الجزيرة البريطانية، فضلا عن كونها من الفترات الاساسية في بناء التركيبة السكانية للجزيرة، اذ بدا فيه تشكل الشعب البريطاني وبناءه الثقافي والاجتماعي، فقد امتزج سكان بريطانيا الاصليين مع الانكليز السكسون المحاربون العمليون والنشطون ومع الايرلنديون والاسكتلنديون وغيرهم من الاقوام القادمة من النروج والدنمارك، وامتزجت هذه الشعوب كلها في بوتقة واحدة انتجت الشعب البريطاني، وقد كان لكل واحد من هذه الاقوام ميزة او صفة طغت على الخليط السكاني الجديد. فالانكليز بلغتهم والبكتيون بديانتهم والسكسون بصفاتهم النشطة والمحبة والتعاون فضلا عن البريطانيون الاصليون المعروفين بهدوئهم وخيالهم الواسع(اذ وصفوا بانهم خياليون متطرفون تغويهم الاهواء فمنهم اما غارقون في اللذة او غارقون في الزهد).

لم يقاوم البريطانيون الاصليون(سكان الجزيره الاصليون) تلك الغزوات بل نزح قسم كبير منهم الى ما يطلق عليه (منطقة البريتاني) في فرنسا ولجا اخرون الى الجبال والوديان للتخلص من خطر المهاجمين الجدد المتعددي الاعراق والصفات والاهداف بل اصبح بعض افراد القبائل الاصلية كعبيد للمنتصرين الجدد.واستقرار الانكلو السكسون في مختلف الاراضي والوديان البريطانية وعملوا كزراع في الاراضي الصالحة للزراعة. لقد امتزجت الاعراق المختلفة التي قدمت من مناطق شتى بالتزواج والاختلاط والتعاون وانشا الانكلو سكسون ممالكهم في

بريطانيا ، اذ تحولت بريطانيا الى مجموعة من الممالك بعد ان وفد اليها عدد من زعماء القبائل وكبار المحاربين واقاموا هؤلاء ممالك لا تتعدى الواحدة منها مساحة مقاطعة واحدة.

امتازت تلك الفترة بمرونة ثقافية واجتماعية كبيرة ساعدت على بناء المجتمع الجديد فانعدم نظام الطبقات وساد منها الاحساس العالي بالحرية الفردية وبدات المسيحية بالانتشار من خلال الرسل البابوية وذلك في زمن البابا كريكوري الذي ارسل بعثة برآسة القديس اوكسطين عام ٥٩٧م، وكذلك من خلال الكلتين ذوي الاصول الايرلندية والذين كانوا اصلا يعتقون المسيحية قبل دخولهم البلاد في عام ٦٦٤م.اصبحت بريطانيا تابعا كنيسا الى روما بعد ان تزايد نفوذ الكنيسة الكاثوليكية فيها وفي باقي انحاء اوربا وقد تم تعين اوغطسين تيوردور الطرسوسي(وهو من اصل يونايي) رئيساً للكنيسة في انكلترا التي كانت تابعة للبابا في روما .ويعود له تاسيس كنيسة كانتربري(وهي من اشهر الكنائس التي بقت شاخصة لحد الان).

خلال المئتي سنة اللاحقة لهذه التاريخ مرت الجزيرة البريطانية بحالة من الصراعا والتنافس بين ابرز مملكتين فيها وهما مملكة(ميرسيا) و(ويكس) لاسيما مع بداية القرن الثامن (٧٣٠م)، فضلا عن الحروب الأهلية في مختلف إرجاءها الامر الذي أدى الى التراجع الحضاري وانتشار التخلف وتزايد سلطة الكنيسة وهو الأمر ساد أوربا بشكل كامل في ما أطلق عليه (العصور الوسطى)[(١)].

---

(١) يتفق المؤرخون على ان القرن الخامس الميلادي مثل بداية للعصور الوسطى ومن اهم معالمة سقوط الامبراطورية الرومانية عام٤٧٦م وتدفق قبائل مختلفة من خارج اوربا اشاعت الفوضى والخراب وعدم الاستقرار الامر الذي ساعد على نمو الاقطاع وتسلط الكنيسة في =

في القرن الثامن غزت بريطانيا مجوعات وصفت(بالبربرية) وههي قبائل تسمى (القبائل الدانيه Danes) ومصدر انطلاقها الدنمارك.

في القرن الثامن غزت بريطانيا مجموعات وصفت (بالبربرية) وهي قبائل تسمى (الدانيه Danes) ومصدر انطلاقها الدنمارك، وتوصف هذه القبائل بانها محاربة وشديدة البأس،وتمكنت من السيطرة معظم الاراضي البريطانية بما فيما لندن باستثناء مملكة ويسكس والتي اقيمت وراء نهر التيميز وقد دافع ملكها الذي يدعى (الفرد Alferd) والذي حكم ما بين ٨٧١- ٨٩٩م، وتمكن من ان يوجد مختلف البريطانيين تحت قيادته للوقوف بوجه الغزاة القساة والانتصار عليهم، وذلك عندما تمكن من ايقاف زحف الغزاة وارغامهم بسبب بسالته في الدفاع عن مملكته على توقيع صلح قسمت فيه البلاد قسمين الاول تحت سلطة الدانيين يشمل الاقاليم الوسطى من بريطانيا ويكون خطة الفاصل طريق روماني قديم ويشمل مناطق بوركشاير ولينكولن. وتتفق الروايات التاريخية على ان انتصارات الملك الفرد كانت البداية لتوحيد البريطانين تحت لواء مملكة ويسكس والذي اصبح ملوكها ملوك لانكلترا فيما بعد، فضلا عن ذلك فقد اشارت المصادر الى ان الفرد اهتم ببناء الاسطول البحري مما جعله مؤسس البحرية البريطانية ،وعمل على الاستعانة بأساقفة من فرنسا (بلاد الغال) لاشاعة القيم والثقافة والادب ،كما

= روما مما ادى الى ضعف سلطة الملوك والامراء على شعوبهم .اما من الناحية الفكرية مثلث العصور الوسطى فترة جمود فكري في اوربا وتراجع الصناعة والتجارة الا ان في نفس المرحلة التي عاشت فيها او باحالة التخلف وغياب التنظيم السياسي شهد الشرق بداية نهضة فكرية سياسية واجتماعية تمثلت بظهور الدولة العربية الاسلامية.استمرت العصور الوسطى في اوربا حتى القرن الخامس عشر الميلادي عندما ظهرت بوادر النهضة الاوربية الحديثة

ترجم عدد من الكتب الى اللغة الانكليزية لذا فان الانكليز ينظرون لهذا الملك نظرة احترام وتقدير واطلقوا عليه لقب العظيم.

خلال السنوات ٩٥٩م- ١٠٦٦م تعرضت بريطانيا الى مزيد من الغزوات والحروب من قبل القبائل الدانية التي تمكنت من اجبار ملوك ويسكس على دفع الضرائب والاتاوات لهم وقد عرفت الضريبة التي شرعت لذلك(دانكلد Danegeld).

لم ينتهي الامر عند هذا الحد فقد خضعت الجزيرة لحكم ملك الدانيين بشكل مباشر والذي جعل مركز دولته في المنطقة الاسكندنافيه والتي اصبحت امبراطورية واسعة، فقد اخضع الملك الداني كانوت العظيم(Canute) الاراضي البريطانية وجعلها جزء من امبراطوريته ،وعمل هذا الملك على ايجاد حالة توافق بمختلف الوسائل بين السكان الاصليين وبين الدانيين ومنها الرابطة الدينية باعتبار ان الجميع خاضعين للديانة المسيحية الا ان وفاة كانوت عام ١٠٣٦م ادت الى انفصال الجزيرة البريطانية عن الامبراطورية الاسكندنافية وعانت من الفوضى وعدم الاستقرار حتى الفتح النورماندي لها عام ١٠٦٦م.

الفصل الثالث

الفتح النورماني ١٠٦٦ وأثره في تاريخ بريطانيا

النورمانديون(او النرومان) فرع ممن أطلق عليهم الشماليون وهم خليط من شعوب الدول الاسكندنافية عرفوا بهذا الاسم بعد تحريف كلمة الشماليون(naorthmen) او اختصارها. نزحوا عبر بحر المناش وسيطروا على منطقة فرنسية قبالة الساحل البريطاني أطلق عليها (النورماندي)[١] وذلك عام ٩١١م، ساعدهم على الاستقرار في هذا المنطقة (على نهر السين) الملك الفرنسي(شارل الثالث)[٢] مالبثت هذه المقاطعة أن توسعت وأصبحت بمستوى (دودقيه) سميت (دوقية النورماندي) الأمر الذي ساعدها على تكوين هوية متميزة لها عن ضفتي بحر المناش الفرنسية والبريطانية.

---

(١) كانت قد تعرضت فرنسا حالها حال الدول الاوربية الاخرى الى هجمات الشماليون (السويوديون والنرويجيون والدنماركيون) والذي اطلق عليهم ايضا(الفايكنك) وذلك خلال القرن العاشر الميلادي وتوجه قسم منهم الى روسيا(السويسريون) فيما هاجم القسم الاخر اوربا الغربية ومنها فرنسا التي حاصروا باريس، الامر الذي اضطر معه الملك الفرنسي شارل الثاني(الملقب بالسمين) الى مهادنتهم وفك الحصار عن العاصمة في عهد الملك شارك الثالث ثم عقد اتفاقية(سانت كالير) عام ٩١١م سمح لهم فيها بالاستقرار في منطقة النرومناندي على الساحل الشمالي الفرنسي وقد اصبح زعيمهم(رولو) تحت سلطة الملك الفرنسي والتحق بالمسيحية.

(٢) شارل الثالث:ويلقب بشارل الساذج او البسيط وهو ابن ملك فرنسا لويس الثاني(الذي حصل صراع بعد وفاته حول السلطة بين ابنائه) تميز حكمه بعدم الاستقرار ، ثاروا عليه النبلاء والأشراف وخلعوه عام ٩٢٣م

لقد مثلت النورماندي في تلك المرحلة قوة أوربية متميزة في تماسكها واستقرارها وقوتها في خضم الواقع الأوربي المتفكك والمتخلف وازدادت أهميتها خلال حكم شخصية بارزة وهو(وليم[1].

اذ كان من الطبيعي نتيجة للشعور بالقوة والدعم الفرنسي، ان تذهب نوايا هذا الحاكم الى التوسع والسيطرة على أكبر قدر ممكن من الاراضي فكانت اقرب نقطة له هي انكلترا التي لا يفصلها عنه سوى بحر المانش فضلا وجود عوامل أخرى مساعدة ادت الى توجية انتباهه اليها ومنها التطورات الداخلية التي حدثت بعد وفاة الملك ادورد وشعوره باحقيتة بعرش انكلترا.

يعتبر الغزو النورماندي اخر غزو ترك اثار عميقة على التركيبة السكانية للجزيرة البريطانية وعلى ثقافتها ولغتها وعاداتها واداراتها، اذ كان لهذا الغزو (الفتح) اثارا ايجابية على التطور التاريخي لبريطاننا على الرغم من انه اعتبر حينها كارثة على البلاد نتيجة القسوة التي اتبعها وليم في سيطرته على اجزائها.

---

(1) وليم الاول: ويلقب بوليم الفاتح (١٠٢٧_١٠١٧)هو الابن الغير الشرعي لدوق النورماندي (روبرت الاول او العظيم)من عشيقته هيرليفا وقد تولى روبرت هذا الحكم في الدوقية عام ١٠٢٧خليفة لاخيه رتيشارد الثالث (الذي اتهم بقتله).وقد توفي روبرت في طريق عودته من القدس بعد ان اوصى الحكم لابنه وليام من بعده.

وكان عند استلام الحكم عام ١٠٣٤ صغير السن اذ يبلغ السابعة من العمر الا انه مدعوم من قبل ملك فرنسا هنري الاول وخلال حياته الاولى وفي سن العشرين تمكن من السيطرة على الدوقية واخضاع باروناتها المناؤين له.وبعد وفاة ادورد المعترف ملك انكلترا اوصى بالحكم لوليم لصلته مع ادورد من عمته التي هي ام ادورد.عين ملكاً على انكلترا بعد الغزو النورماني عام ١٠٦٦م حتى وفاته.

تعود بدايات الوجود النورماني في انكلترا بشكل منظم الى عهد الملك ادورد المقلب بالتقي(Edward The confssor) والذي توج على عرش انكلترا عام ١٠٤٢م وهو أخر الملوك من السلالة(الفرد العظيم) والذي ذكرنا عنه سابقا انه وحد الانكليز تحت قيادته في مواجهة الغزوات الخارجية ، لاسيما غزوات الشماليين فضلا عن انجازاته الاجتماعية والثقافية. فقد كانت ادورد يعيش في دوقية النورماندي عندما هرب مع والده الملك الانكليزي (اتيلدا الثاني) نتيجة الغزو الاسكندنافي والذي ضم الجزيرة البريطانية الى الامبراطورية الاسكندنافية عام ١٠١٦م. فقد تربى ادورد في قصور النورماندي واصبح نورمانيا قلباً وقالباً ، لذلك عندما آلت اليه السلطة عند انتهاء حكم الامبراطورية الاسكندنافية بعد موت ملكها كانوت عام ١٠٥٣م وعودة الاستقلال للجزيرة البريطانية نودي به ملكا على انكلترا باعتباره وريثا لعرش والده الملك اتيلدا. لقد عمل ادورد على احاطته بحاشية من النرومان، وعين رجال دين منهم في الكنائس ومنح تجارتهم الامتيازات فضلا عن جعل معظم القوات العسكرية من النورمان واشاع اسلوب الادارة والثقافة النورمانية في انكلترا ، مما أوجد الاسس الاولى للوجود النورماني فيها. مع وفاة الملك ادوارد عام ١٠٦٦ بدات الاوضاع في انكلترا تتأزم باتجاه عدم الاستقرار والصراع على العرش الانكليزي فقد اختار مجلس الحكماء(The witan) هارولد ملكا وهو ابن الملك ادورد بالتبني ، وقد اوصى له بالعرش من بعده، واعتبره الانكليز الوريث الشرعي للسلطة .

الا ان الامـر لم ينتهـي عنـد هـذا الحـد اذ ظهـر مطـالبين اخـرين بـالعرش الانكليزي من بينهم احد ورثة عرش كانوت مدعيا ان انكلترا لاتزال ضمن ممتلكات الامبراطورية الاسكندنافية.

اما اهم المطالبين بالعرش فهو وليم دوق النورماندي والذي له صلة قرابــة الملــك الراحــل ادورد ، وفي الوقــت الــذي فشــلت فيــه محاولــة الاسكندنافيين في السيطرة على العرش الانكليزي بعد ان تصدى لهم هارولد وهزمهم فان محاولات وليم تكللت بالنجاح وذلك بعد انتصاره في معركة حاسمة(معركة هيستنجر) وهي بلدة تقع في جنوب البلاد. وقد اظهرت هذه المعركة التباين الكبير في الاساليب المتبعة بالحرب بين النمط القديم باسلحته البدائية كالفؤس والاطبار فضلا عن سوء التنظيم وبين الاسلوب المتطور للجيش النورماندي الذي تميز بالتنظيم، اذ قسم الى تشكيلات عدة منها الخياله ورماة يمتلكون اسلحة جيدة كالرماح والسيوف وبكميات كبيرة. لذا كان من الطبيعي ان تنتهي هذه المواجهة بانتصار وليم وسيطرته على الاراضي الانكليزية وهزيمته للملك المتوج هارولـد الـذي قتـل في ١٤ ت ١٠٦٦م، الامـر الـذي اضـطر معـه مجلـس الحكماء الى الاعتراف بوليم ملكا على انكلترا وتم تتويجه بشكل رسمي في مدينة(وستمنتسر).

عمل وليم الذي بدا يلقب بالفاتح على اخضاع باقي اجزاء البلاد الى سلطته بالقوة فقد اخضع مناطق يورك ودرهام وذلك بعد اشاعة الحزاب والسلب والنهب فيها. وسيطر على الاقاليم الوسطى التي بطش فيها كما فعل في المدن الاخرى وكانت لهذه القسوة في اخضاع المدن أثرها في انهاء أي حالة تمرد او مقاومة ضدة.

اما اسكتلندا فقد كانت في حالة شبه مستقلة قبل الفتح النورماني، اذ كانت اشبه بمملكة يحكمها شخص يدعى مالكولم والذي اعتلى العرش عام ١٠٥٨ وعمل هذا الملك على التقرب من الانكليز لاسيما من مملكة ويسكس التي كانت تمثل الوحدة الانكليزية وتزوج احدى اميرات هذه المملكة ، الا انه عند الفتح النورماني اعلن مالكوام تبعيته لحكم وليم الفاتح طوعا عام ١٠٧٢م.

قد يعتبر الفتح النورماندي حيها محنة قاسية على الشعب الانكليزي على اعتبار انه احتلال خارجي كان هدفه استغلال البلاد ونهب ثراوتها وهذا ما اكدته اعمال وليم الفاتح في مصادرة الاراضي من اصحابها[1] رغبة منه في ان يكون المالك الوحيد والاكثر للاراضي في انكلترا ومنحها الى عدد من النبلاء النورمان الذين اصبحوا المالكين للارض بعد اخذ التعهد منهم وان يكون اخلاصهم للملك فوق كل أخلاص، ثم سمح لهم بمنحها لمن يشاؤن من ابنائهم، فضلا عن تحكمهم بمن على الارض من سكان البلاد الاصليين.

ونتيجة لذلك فقد حلت طبقة من الملاك النورمان محل الملاك الانكليز وأصبح الشعب الانكليزي خاضعا لسلطة هؤلاء الملاك الجدد

---

[1] تشير المصادر الى ان الارض وزعت على ١٧٠ نبيل وقام هؤلاء بتوزيع اراضيهم على اتباعهم بعد ان اقسموا يمين الولاء للملك فقط وليس لغيره .واصر ان تكون الاقطاعات متباعدة حتى يمنع حصول حالة النزاع والحرب التي اعتاد النبلاء خوضها بينهم من أجل تسخير القوة كلها لخدمة الملك وليم الفاتح.

للقرون الثلاثة القادمة. كما أعتبر وليم جميع القلاع في انكلترا تابعة له ولايمكن بناء أي قلعة لاي نبيل او مالك ارض الا بموافقه الملك[1].

الا انه برغم ذلك الشعور الذي ساد انكلترا حينها فقد مثل الفتح النورماني اهمية كبيرة في تاريخ انكلترا والجزيرة البريطانية بشكل عام:

١. وضع هذا الغزو نهاية لعدم الاستقرار والغزوات الخارجية، فكان اخر غزو خارجي تتعرض له الجزيرة البريطانية. واصبحت انكلترا دولة ذات شان وقوة استطاعت ابعاد الطامعين فيها في ظل الحروب والمنازعات الاوربية المستقرة خلال تلك المرحلة.

كما ساعد الفتح النورماني على استقرار السلطة وانتظام انتقالها في اسرة وليم الفاتح، وبدا ان الامور اتجهت في التاريخ البريطاني نحو الانتظام في نسق متصاعد من التطورات الايجابية في مداها البعيد، مما كان له الاثر في وضع اسس المجتمع البريطاني بشكل سليم وبناؤه من

---

[1] بهذه الاجراءات ادخل وليم نظام الاقطاع الى انكلترا والذي ساد اوربا بعد سقوط روما في ٤٧٦م، فقد ظهر الاقطاع نتيجة انهيار الامبراطورية الرومانية وتدفق القبائل الغازية لتشيع في اوربا الفوضى وانعدام الامن الامر الذي دفع الناس الى البحث عن الامن والحماية ولم يكن امامهم سوى طلب الحماية من الامراء الذين آحتموا بقلاعهم المحصنة، الا ان هؤلاء الامراء كانوا ايضا بحاجة الى الايدي العاملة للعمل في الارض والدفاع عن تلك القلاع. كان الافراد يقدمون التعهد بالطاعة والعمل مع صاحب الاقطاع وان يكونوا تابعين له تماما مقابل الحماية والغذاء ويكون هذا التعهد وفق مراسيم معينة يسمى (ولاء القسم) ويشير المؤرخون الى ان اهمية نظام الاقطاع في انقاذ اوربا من اثار الفوضى التي اجتاحتها وأمنت الحدود الدنيا للحفاظ على الاعراف والقتاليد التي عرفها الاوربيون خلال العهد الروماني والتي تم احياءُها مرة اخرى بعد =انتهاء العصور الوسطى وبداية النهضة الفكرية ولقد ساهمت الكنيسة قي دعم الاقطاع في حالة من تبادل المنفعة بين الطرفين، وكان لضعف الاقطاع وسلطة الكنيسة السبب الرئيسي في انهاء العصور الوسطى وبداية العصر الحديث.

النواحي القيمية والثقافية والاجتماعية وحتى الاقتصادية. وقد توالى على عرش انكلترا عدد من الملوك من اسره وليم كان لهم الاثر الواضح في وضع اسس التطور الديمقراطي الانكليزي ابتداءا بوليم الفاتح لما تمتعوا به من قدرات كبيرة في أدارة السياسية الداخلية والخارجية واصدار مجموعة من الانظمة والقوانين التي اسست للدولة البريطانية.

٢. عمل النورمان على سن القوانين التي تنظم شؤون البلاد والأفراد، وهذه القوانين كانت خليط من أفكار وقيم نورمانية جلبها معهم الفاتحين وقيم وتقاليد محلية راسخة عرفها الشعب البريطاني خلال مراحله التاريخية المختلفة.

كان من بين أهم التنظيمات التي أعتمدها وليم وسار عليها الملوك من بعده

تلك التي تتعلق بتنظيم الشؤون الدينية، فقد استغل علاقته الجيدة مع بابا روما

(غيروغوري السابع) ليقوم بمجموعة من الاصلاحات الدينية والتي سيكون لها اثر كبير في تطور الفكر السياسي في بريطانيا خلال المراحل اللاحقة. أذ نظم عمل سلطة الكنيسة التي كانت سلطتها الدينية متداخلة مع الشؤون المدنية لاسيما فيما يتعلق بالمحاكم والقضاء ،أذ فصل المحاكم الكنيسية عن المحاكم المدينة بعد ان كانت غير منتظمة وتبدو السلطة المدينة تابعة للكنيسة. وبهذا العمل وضع وليم اول لبنة في النزعة البريطانية لفصل السلطة الزمنية عن السلطة الدينية وجعل السلطة الدينية تابعة تماما الى سلطة الدولة بقيادته. و ربط اعتراف رجال الدين الانكليز بسلطة البابا وقرارته بموافقته الشخصية مما كان له الاثر

فيما بعد لاتخاذ الملوك قراراتها بأسمه فيما يتعلق بعلاقتهم بالبابا في روما. كما دعا رجال الدين الى التفرغ والتعمق في الشؤون الدينية وشدد على التركيز في عملها(على مستوى عال من العلم والاخلاق).

٣.من الامور المهمة الاخرى التي اتخذها وليم الفاتح هو حل مجلس الحكماء (الوايتان) وتشكيل(مجلس الملك) من كبار الاقطاعيين والاتباع والموظفين.

ومجلس الحكماء(الوايتان) الذي حله وليم هو مجلس ذو جذور قديمة تعود الى الجرمان الذين سكنوا الجزيرة قبل العهد الروماني وبعده ، وتاتي اللفظ من(ويتان او وويتناWetina) وهي تشير الى مستشاري الملك، وعرف التاريخ الانكليزي قبل الفتح النورماني هذه المجالس التي يعقدها الملك من رؤساء الاساقفة والنبلاء وكبار المستشارين لاصدار القوانين او الاستشارة او تتبنى مهمة اختيار الملك الجديد في حالة وفاة الملك. وقد تعززت سلطة المجلس خلال الحكم الانكلو سكسوني في القرن الخامس الى القرن الحادي عشر، وكان لهذا المجلس الدور الكبير في اختيار الملك انثلراد الاول عام ٧٦٦م عندما تم تفضيله على اخية الاكبر. كما أنتخب الفرد عام ٨٧١ وهو الاخ الاصغر له وأنتخب ادوروود المعترف على ١٠٤٢ ثم انتخب هارولد خلفا له وأضطر أخيرا على الموافقة على التويج وليم الفاتح ملكا على انكلترا عند احتلاله البلاد.

لقد عمل وليم على تسخير مجلس الملك (Curiargis)، الذي شكله و يجتمع ثلاث مرات سنويا، لتنفيذ سياسته في امساك السلطة بكاملها على البلاد حتى انه فرض على المجلس اداء يمين الولاء له(القسم الاقطاعي) عام ١٠٨٦م. وكانت كل القرارات تصدر باسم الملك ما عدا

تلك القرارات التي تعالج القضايا الخاصة بكبار الاقطاعين والتي تصدر باسم المجلس.

وقد اشار المؤرخون الى ان هذا المجلس بصيغته السابقة للفتح النورماني والصيغة التي وضعها وليم تمثل جذور التمثيل الشعبي للحكم على الرغم من انه كان مسخر لتحقيق أراء الملك وقراراته، الا ان وجودة كان يدل على انه كان البذرة التي نمت وانتجت مجلس اكثر تمثيلا. اذ ان البرلمان فيما بعد تطور من عهد ملك الى ملك اخر تحت تأثير الظروف والتطورات الاجتماعية حتى اخذ دوره بشكل متصاعد. حتى ان النظام وصف في تلك المراحل بالملكية الدستورية اذ كان كما يرى احد المؤرخين (انه ديمقراطي على وفق النظرية القديمة وارستقراطي في اعماله الاعتيادية)، وهذا ما سنلاحظه مع تناول التطورات السياسية في انكلترا في الفصول القادمة.

٤.من ابرز معالم مرحلة وليم الفاتح الكتاب المعروف(دومز دي Domes day book) ويحوي هذا الكتاب جرد او مسح شامل امر به وليم للواقع السكاني والاجتماعي لمعرفته وتقدير الموارد المالية والاملاك واحصاء السكان وما يملكون من اراضي زراعية او حتى الحيوانات، وشمل ايضا معرفة الضرائب التي يدفعها الناس. مثل هذا الكتاب او السجل حالة نادرة في العصور الوسطى لم تعرفه الانظمة الاوربية حينها وكان مصدرا مهما لوصف الاوضاع الاقتصادية في انكلترا لذا اعتبر احد الاعمال المهمة التي يتميز بها عهد وليم.

لقد كانت الجزيرة البريطانية بحاجة ماسه الى دماء جديدة فعالة وافكار وقيم وثقافة حية لتتوائم مع القيم المرورثة وتعمل على صهر

المجتمع في بوتقة واحدة، وهذا ما حققه وليم الفاتح خلال سنوات حكمة التي امتدت لاكثر من عشرون عاما. وحكم من بعده عدد من الملوك من ابناءه واحفاده الذين كان لكل واحد منهم سمه يتروكنها خلال حكمهم وبتراكم تلك السمات تظهر لدينا صورة بريطانيا الحديثة.
على سبيل المثال للحصر كان في انكلترا قبل الغزو النورماني محاكم كلية(Shir eourts) طورها النورمان وجعلوها محاكم اقطاعية وعينوا عليها قضاة كنواب للملك أي ان قراراتهم تصدر باسم الملك ولم يجعلوا منصب القاضي او نائب الملك وراثياً وانما كان الملك يعين هؤلاء القضاة وفقاً لرؤيته الشخصية.

الفصل الرابع

مرحلة ما بعد وليم الفاتح حتى عام ١٢١٥

ان السؤال الذي سيطرح هنا كيف ساهم خلفاء وليم الفاتح في ترسيخ الاسس الاولى للحكم الديمقراطي البريطاني؟قد يعتقد البعض ان لفظة ديمقراطية في هذه المرحلة سابقة لاوانها الا ان الباحث يعتقد ان الاسس التي وضعها هؤلاء الملوك طوعا او مجبرين كانت اللبنات الاولى التي تراكمت عبر السنين لتنتج صرح الديمقراطية الحالي في بريطانيا.

لم يكن وليم الفاتح مشرعا يضع القوانين لمبررات نظرية او شرعية انما كان اداريا ناجحا وكان يعمل على ترسيخ سيطرته من خلال النظم التي يضعها في انحاء البلاد وتركيز كل السلطات بيده والحد من سلطة النبلاء والاقطاعيين وجعلهم تحت سيطرته.

خلال المائة عام التي تلت وفاة وليم الفاتح عام ١٠٨٧م لم تستمر الاوضاع في انكلترا كما تركها بالرغم من محاولته ترتيب اوضاع السلطة وتنظيمها قبل وفاته من خلال محاولة ارضاء ولدية روبرت ووليم الثاني اذ اوصى لابنه الاكبر روبرت حكم دوقية النورماندي فيما اوصى لابنه الاخر بعرش انكلترا. وعلى الرغم من ان طبقة النبلاء وحتى رجال الدين كانوا يرغبون بحكم روربت لضعفه الا انهم عملوا على التعامل مع وليم الثاني الذي عرف عنه قسوته وشدته والتي اظهرها مع بداية حكمة عند قمع التمردات والثورات التي حصلت ضده فكانت لقسوته البالغة اثرا في تسميته بوليم الدموي او الاحمر.

لقد حاول وليم الثاني اتباع خطوات والده في أدارة انكلترا لاسيما في ترسيخ مبدأ خضوع كل السلطات للملك لاسيما سلطة الكنيسة التي عمل على ان تكون خاضعة له. فبعد وفاة رئيس الاساقفة، الذي كان له علاقة طيبة معه ومع والده قبل ذلك والذي يدعى (لانفرانك)، عمل على ان يبقى المنصب شاغرا وذلك بهدف ربط السلطات الدينية وورادتها تحت سلطاته المباشرة الا انه اضطر عام ١٠٩٣م الى تعيين شخصية عرفت بالتدين والاهتمام بعلم اللاهوت يدعى(انلسم) الا ان الاخير بما عرف عنه من الاستقلالية والخضوع للكنيسة في روما دخل في علاقة متوترة بل نزاع مع الملك حول صلاحياته وسلطاته على الكنيسة ومواردها، وتعمق هذا النزاع عندما اصر وليم الثاني على تبعية رجال الدين في انكلترا الى سلطة الملك حتى فيما يتعلق في علاقتهم مع الكنيسة في روما او اعترافهم بالبابا والتي ربطها باعترافه الشخصي بالبابا قبل اعتراف رجال الدين به.

باستثناء هذا الصراع بين السلطة الدينية والزمنية والذي يدخل ضمن مراحل تطور الفكر الليبرالي العلماني الانكليزي بالرغم من محدوديته، كان عهد وليم الثاني يمثل امتدادا لحكم والده ولم تضيف فترته أي انجاز اداري او قانوني في التاريخ الانكليزي حتى اغتياله اثناء رحلة صيد عام ١١٠٠م بعد ان دام حكمة (١٣) عاماً.

الا ان حكم اخوه الاصغر هنري الاول شهد بعض الاعمال التي مثلت تطوراً ولو بسيطا في مسيرة تنازل الملوك عن سلطاتهم لصالح الشعب الانكليزي والتي ستاخذ منحا متصاعدا في المراحل اللاحقة، فقد أصدر مرسوماً ملكياً اعطى بموجبة الملك وعودا للشعب بازالة الظلم عنهم ومنحهم مزيدا من الحرية.

أن مبررات صدور هذا المرسوم لم تكن اختياريه او نابعه من رغبة الملك بمنح حقوقاً للشعب، وانما جاءت في محاولة منه للتمسك بالعرش من خلال كسب ود الناس لاعانته على الوقوف بوجه اعدائه لاسيما انه استولى على العرش بعد ان كان يعتقد انه من استحقاق اخوه الاكبر روبرت، والذي كان مشغولا في الحروب الصلبية في الشرق. وبفعل تلك السياسة تمكن هنري الاول من الاستمرار بالحكم بل وعمل على ضم املاك اخية في النورماندي الى املاكة عام ١١٠٦م عندما قاد حملة عسكرية بحجة قمع تمرد في الدوقية وانتصر فيها في معركة (تنشربيا Tincherbria) والتي أسر فيها اخوة روبرت.

يمثل حكم هنري الاول مرحلة اخرى من مراحل الصراع بين السلطة المدينة والسلطة الدينية في انكلترا ،اذ رفض رئيس الاساقفة(انسلم) اداء يمين الولاء للملك الامر الذي ادى الى طلب الملك من رئيس الاساقفة اعتزال المنصب، و تصاعد النزاع بين الطرفين الى ان تم عقد اتفاقية بينهما سميت اتفاقية(**Bec** بك)عام ١١٠٦م ساعدت في عقدها اخت الملك ابنة وليم الفاتح. ومثلت هذه الاتفاقية حلا وسطاً للطرفين الا انها اعتبرت في جوهرها دعما لسلطات الملك وسيطرته على رجال الدين. فقد نصت الاتفاقية على ان الكنيسة هي صاحبة الحق في انتخاب رجال الدين في الكنائس وللملك حق الحضور الى مراسيم الانتخاب او ارسال مندوب عنه الامر الذي عده رجال الدين انتصارا لهم فيما عدة المؤرخون انه انتصار للملك لان حضوره سيكون له تاثير في انتخاب من يؤيده من رجال الدين، ليس هذا فقط بل نصت الاتفاقية ايضا على حق الملك في منح الاراضي لرجال الدين مما ساعد على ضمان قدرة الملك على التاثير على توجهاتهم وولائهم ، لانه اعطى الملك القدرة على

معاقبة او كسب ود رجال الدين من خلال منح الاراضي او منعها عنهم. وما زاد في نفوذ الملك في هذه الاتفاقية هو خضوع ما يطلق عليه(الحرمان) الذي يطبق على رجال الدين الى سلطات الملك وموافقته، فضلاً عن ان سفرهم الى روما يجب ان يخضع لموافقته أيضاً. ان هذه الاتفاقية ساهمت مساهمة فعالة في تعزيز السلطة الزمنية الذي يمثلها الملك على سلطة الكنيسة في روما او رئيس الكنيسة في انكلترا.

عد المؤرخون مرحلة حكم هنري الاول مرحلة سلام واستقرار وتعزيز لهيبة الدولة وفرض مركزيتها على رعاياها وهذا يعود لسياسة هذا الملك وحنكته وقدراته الإدارية فقد أطلق عليه لقب(أسد العدالة) كونه يوصف بالعدل والطيبة والهيبة. وقد وضع هنري الأول نظاما مالياً دقيقا لجمع الضرائب مع أيجاد إلية للاشراف على جمع وأنفاق الأموال، اذ شكل هيئة للإشراف المالي تتكون من عدد من الوزراء والمستشارين والتي تجتمع مرتين في السنة لتدقيق الحسابات الخاصة بالجباية. اما ما يتعلق بالقضاء فقد استحدث ما اطلق عليها بالمحاكم المتجولة والتي مهمتها بحث القضايا التي تكون خارج اختصاص المحاكم المحلية او فيها تظلم او شكوى يراد ايصالها الى الملك مباشرة، لذا تم تشكل هذه المحاكم الجوالة والتي تعتبر محاكم ملكية تتكون من عدد من القضاة. يوفدهم الملك في اوقات محددة من السنة لحسم النزاعات التي تتطلب قراراً من الملك او موافقته والتي هي خارج سلطة المحاكم المحلية.

على الرغم من ان بعض الكتاب اشاروا الى ان الملك قام بهذا العمل بهدف جمع الاموال لان الترافع امام هذه المحاكم يحتاج الى دفع ضرائب اضافية الا ان الناس كانوا يفضلوها حتى ولو كانت ترهقهم بالتكاليف لان صوتهم يصل الى أعلى سلطة، مما ساهم بالرغم من كل

شيء على تطور النظام القضائي البريطاني بخطوة حتى لو كانت بسيطة في الهرم القضائي الحالي.

مع وفاة هنري الاول عام ١١٣٥م دخل الحكم في بريطانيا دورا جديدا مختلفا اذ تميز ذلك بأمكانية تولي النساء العرش الانكليزي وهي سابقة لم تعرفها انكلترا في تاريخها سابقاً ،فقد توفي هنري الاول ولم يترك وريث للعرش كونه لم ينجب ذكرا فاصبحت ماتيلدا ابنته ووريثته الوحيدة على عرش انكلترا ، الا ان هذا الامر بالرغم من موافقة النبلاء عليه على مظض الا انه لم يكن يروق لهم، وتبرز على ساحة الصراع هنا اخت هنري الاول(اديلا) والتي كان لها دور سابق تم ذكره في انهاء النزاع بين الكنيسة والملك وهو الدور الذي شجعها لكي يكون لها مكان في العرش الانكليزي فعملت على دفع ابنها ستيفن لقيادة جيشا والعبور الى انكلترا(من النورماندي) بدعم من ملك فرنسا لويس السادس(الذي حكم بين ١١٠٨م- ١١٣٧م). وبالرغم من تمكن ستيفن من الجلوس على عرش انكلترا الا ان الفوضى دبت في إنحاء الدولة بسبب تأييد قسم من ابناء الشعب الانكليزي لماتيلدا ابنة هنري وبدعم من ملك اسكتلندا . استمرت هذه الفوضى والحرب الداخلية لسنوات عدة(حتى عام١١٣٨م) انتهت بموافقة ستيفن ان يكون ابن ماتيلدا(هنري الثاني) وليا للعهد يجلس على عرش انكلترا من بعده ،الا ان الاحداث تتسارع ويقتل ستيفن ويؤول العرش الى هنري الثاني.

ان ظهور هنري الثاني مثل المتغير الثاني الذي طبع هذه المرحلة من التاريخ الانكليزي وذلك لاهمية شخصية هنري الثاني واعماله فقد وصفت بانه من(اكبر شخصيات العصور الوسطى على الاطلاق).

تاتي اهمية مرحلة حكم هنري الثاني(١١٥٤م- ١١٨٩م) من امور عدة:

أ- السيطرة والتوسع : توسعت مملكة انكلترا في عهده الى اكبر رقعة بعد الفتح النورماندي فقد امتدت لتشمل ويلز واسكتلندا وشملت اجزاء من ايرلندا فضلا عن توسع سلطاته على نصف فرنسا تقريبا ، فيما يعتبر اول توحيد لاراضي الجزيرة البريطانية بهذا الشكل الذي لم يتكرر الا في مراحل متأخرة.

والأمر المهم هنا ان هذه الرقعة الواسعة تميزت بالوحدة والسيطرة عليها من قبل الملك، إذ أجتهد لبناء دولة قوية مستقرة يعمها السلام،وتشير الدراسات التاريخية الى ان الزراعة في تلك المرحلة نمت نموا كبيرا وان هذا النمو في الزراعة فضلا عن الاستقرار ادى الى ان تكون طبقة الاقطاعين طبقة من الأعيان المسالمين واصبحت أهم أهدافهم هي العناية بالأرض وزراعتها وتحسين أنتاجها بعد ان كانوا أمراء للحرب والسيف. هذا الأمر انعكس على دورهم الاجتماعي اذ بعد ان كانوا يعملون على تعزيز قدراتهم الحربية والمادية لغايات أقطاعية ضيقة بدا شعورهم بالمسؤولية الوطنية تجاه دولتهم ينمو فعملوا على مساعدة الدولة على تنفيذ القوانين وإدارة الشؤون المحلية، وقد أصبح أبناء هذه الطبقة(البارونات او النبلاء او الاقطاعين) يتربون على حب الوطن والشعور بالمسؤولية تجاهه.

لقد شهد عصر هنري الثاني صدور قانون له أهمية تاريخية على بريطانيا وهو حصر الوراثة بالأبن الأكبر فقط مما جعل باقي الأبناء للنبلاء والاقطاعين يقومون بأعمال أخرى غير الاعتماد على أملاك أبائهم كلعمل بالتجارة او أعمال كنسية او العمل في القضاء، لذا فان تطور الطبقة العليا لم يكن جامدا ومتعاليا فلم يتمسك الفرد في الطبقات العليا

بنسـبه او يكتفـي بلقـب عائلتـه وانمـا ظهـر جيـل في تلـك الطبقـة عملـوا كقضـاة او تجـار او سياسـيين بالاسـتناد الى قـدراتهم ولـيس الى أنسـابهم الأرستقراطية. وهـذا مـا شـجع المجتمـع البريطـاني لاظهـار المواهـب الفردية والتفـاني في الاعمـال المدنيـة والدينيـة واهميـة ذلـك تـأتي في ان العمـل والاخلاص للوطن جاء من الطبقة العليا في المجتمع والتي مثلت قدوة لابنـاء المجتمع الاخـرين . لـذا فـان الثقافـة الديمقراطيـة في بريطـاني لم تـاتي مـن الاسفل الى الاعلى بل تـدرجت مـن الاعلـى لتشـمل طبقـات المجتمـع الاخـرى تباعا مما جعلها تحافظ على استقرارها ونموها الطبيعي عكس مـا جـرى في دول اوربية اخرى لاسيما إبان الثورة الفرنسية التي وصل فيها العامة من الفقراء والمعدمين الى السلطة فكانت الفوضى والقتل وعدم الاستقرار.

ب- القضاء : يعتبر عصر هنري الثاني بداية لوضع اسس جديدة لادارة المحاكم البريطانية ،اذ نقل اولا السـلطة القضـائية مـن البارونـات(او كبار الملاكين) الى سلطة المحاكم المدنية الملكية التي تشـمل سلطاتها كل انحاء البلاد فقد مثل ذلك الانطلاقة لتوحيد السـلطة القضـائية وتعزيـز قـوة الدولـة . والامـر المهـم الاخـر في الاصـلاح القضـائي هـو احـلال نظـام المحلفـين محـل الانظمـة السـابقة الـتي كانت معضمها بدائية او قدرية كالمبارزة او الطلب بحلف اليمين او امتحـان المـدعي عليـه بتعريضـه للنـار ، اذ يجـبر علـى حمـل قطعـة حديديـة محمـاة بالنـار بيديـه ويمشـي بهـا ثـلاث اقـدام فـان بـرا مـن آلامهـا خـلال ثـلاث ايـام فهـو بـرئ والعكـس فهـو مـذنباً ، وهنـاك وسيلة اخرى باجبار المدعى عليه وضع يده بالماء الساخن فان تحمـل فهو برئ. اما المبارزة فهي تصارع المدعي والمدعى عليه الى ان يتغلب

أحدهما وان لم يتغلب احد منهم يبقى الصراع الى الليل فان حل الليل دون انتصار احد ترد الدعوة ،فضلا عن ذلك هناك اساليب اخرى كالتزكيه أو اظهار البينة او غيرها.

ونتيجة لنفور هنري الثاني من هذه الاساليب فقد اصدر قانون جديد يسمى قانون كلارندون (نسبة الى المدينة التي عقد فيها مجلس المستشارين) وذلك عام ١١٦٦م. ويتخلص هذا القانون باستحداث أسلوب المحلفين[١] وذلك من خلال سؤال عدد من سكان مكان وقوع الحادث او من وجهائها حول احقية المدعي او المدعي عليه وذلك بعد ان أقسموا بقول الحق، ثم تطور الامر بأن يختار شريف المقاطعة[٢] كبار الاعيان او الوجهاء المعروفين بحسن السيرة ونقاء الذمة لينتدبوا(١٢) شخصا من الأهالي المحليين الذين يقسمون بقول الحق والأخبار عن المجرمين أو بان يتخذوا القرار السليم في ان يكون المدعى عليه مذنبا أو بريئا ، فان لم يتفق هؤلاء يزداد عددهم حتى يحصل القرار بمواقفه(١٢) شخصاً. وقد

---

[١] يذهب عدد من المؤرخين الى ان نظام المحلفين له جذور قديمة في التاريخ البريطاني عندما كان يستدعى شهود عددهم اثنا عشر شخصا ليؤكدوا ملكية الارض المتنازع عليها للشخص الذي يعتقدون باحقيته فيها، وهناك من يعيده الى القرن العاشر ايام الملك انثرليد الثاني عندما كانت كل مقاطعة تبعث(١٢) شخصا الى مجلس(البوتان) يحلفوا ان يكونوا صادقين في تمييز المذنب وتبرئة البريئ.

[٢] تم تقسيم الأراضي البريطانية الى تقسيمات أدارية فالدولة هي المملكة ثم تأتي بعدها المقاطعة وتسمى هذه المقاطعة بأبرز مدينة فيها، ولها محكمة محلية خاصة بها هي بمثابه مجلس يعقد مرتين في العام يترأسه الشريف او النبيل الأبرز او الأسقف .في عام ١٠٦٦ تغير اسم المقاطعة الكونتي(County) ثم تليها المئة وهي التسلل الثاني بعد المقاطعة وسميت كذلك قبل الفتح النورماندي لأنها تشمل مئة عائلة او تشير الى مساحتها وللمئة مجلس يعرف بمجلس المئة كان يعقد مرة واحده شهريا، بعد الفتح النورماني أصبح يعقد جلساته مرتين شهريا، ثم ياتي بعد ذلك تقسيم أداري أخر يكون تابع للمئة يتمثل بالنواحي والقرى الريفية.

طبقت هـذه الإجـراءات في مختلـف القضـايا لاسـيما في النزاعـات حـول الأراضـي بـين المـدعي بملكيتهـا وبـين مـن وضـع يـده عليهـا ، واسـتمر هـذا النظام وتطور في بريطانيا خلال العقود اللاحقة.

يعتقـد عـدد مـن البـاحثين ان اسـتحداث هيئـة المحلفـين في المقاطعـة وفي المئة هي بداية للتمثيل البرلماني في بريطانيـا الا ان الباحـث لايميـل الى هـذا التحليل لان مهمة هيئة المحلفين محددة بأمور قضـائية بحتـه وليس لهـا حق التعرض لسلطات او صلاحيات الملك.

ج- العلاقة مع الكنيسة: أنسجاماً مع توجهاتـه في فـرض هيبـة الدولـة وتقوية سلطاته عمل هنري الثاني على الحد من سلطة الكنيسة في انكلـترا ، إذ جعلـها خاضـعة لسـلطات المحـاكم الملكيـة المدنيـة الأمـر الـذي أدى الى وقـوف رئـيس الأسـاقفة (تومـاس بكـت) بوجه تلك الاجـراءات ممـا دعـا الملـك الى انتقـاده بشـده. وقـد اغتيـل رئيس الاساقفة وأتهم عدد من فرسان الملك بانهم قاموا بقتل بكت أرضـاء لملكهـم دون علمـه ممـا كـان لـه ردود فعـل سـلبية مـن الكنيسة في روما ومن أبناء الشعب الانكليزي، الا ان الملك اعلن براءته من هذه الفعلة وحاكم الفاعلين وزار قبر بكت كتعبير عن تضامنه مع الكنيسة فضلا عن ذلك ولإثبات حسن نياته فقد أعاد الحصانة القضائية للكنيسة ورجالها وهـو الأمـر الـذي اسـتمر بعـد عهـد هنـري الثـاني لقـرون عديـدة كمـا انـه اهـتم ببنـاء الكنـائس والاديرة كتعبير عن تأيده للكنيسه.

انكلترا باتجاه الملكية المقيدة:

لم يكن المرسوم الذي أصدره هنري الأول عام ١١٠٠ والمعروف(بقانون الحريات) والذي وعد فيه الشعب بوعود عدة تخص حقوقهم وحرياتهم، الا بداية في سلسلة تنازل الملوك عن صلاحياتهم بشكل اختياري لرغبة منهم في الحفاظ على عروشهم او مجبرين أرضاءاً او استجابة للتحديات الداخلية والخارجية وهذا ما ينطبق على الملك جون الاول[(١)] ابن الملك هنري الثاني(ويسمى ايضا الملك حنا) والذي تولى السلطة خلفا لاخيه ريشارد الملقب(قلب الاسد) وذلك عام ١١٩٩م.

لقد عرف عن الملك جون الاول منذ بداية عهده بالغرور والطغيان والاستبداد وقلة الحكمة، وكان هدفه كما يصفه أحد المؤرخين جمع المال بكل الطرق تحت مبررات شتى منها توسيع الجهاز الاداري المحيط بالملك او في المؤسسات القضائية التي تحتاج لنفقات متزايدة فضلا عن الحروب التي تورط فيها. ونتيجة لتلك الصفات ومنها عدم الحكمة (اذا صحت العبارة) فقد ادخل نفسه في نزاعات داخلية وخارجية لم يكن له القدرة على مواجهتها:

النزاع الاول : مع ملك فرنسا (فيليب اغسطس) اذ تشير الروايات التاريخية الى ان أسباب النزاع تعود الى أن الملك جون تزوج من أمراة فرنسية تدعى (أيزابيل انغولم) عام١٢٠٠م الا هذه كانت قد خُطبت

(١) جون هو الابن الرابع للملك هنري الثاني(١١٥٤-١١٨٩م) وقد وزع الملك املاكه بين ابناءه باستثناء جون الذي اطلق عليه (فقير الارضي جون) ويبدو ان سبب قرار والده هذا لعدم ثقته بقدراته وبحكمته الامر الذي بدا واضحا في تعامله مع المشاكل الداخلية والخارجية في عهده.

سابقا لنبيل فرنسي مما أعتبر مخالفة للتقاليد المسيحية. فقد قدم هذا النبيل واسمه(أوف كوزجنان) الشكوى للملك الفرنسي والذي دعا بدوره مجلس النبلاء في فرنسا للانعقاد ،وقد قرر المجلس (بضغط من الملك الفرنسي) في عام ١٢٠٢ تجريد الملك جون من جميع أملاكه في فرنسا التي ورثها عن والده. لم يستسلم جون لهذا القرار وعمل على استعادة أراضيه بالقوة من خلال الدخول في نزاع عسكري بالتحالف مع عدد من ملوك اوربا ضد الملك الفرنسي، الا انه لم ينجح في هذا النزاع وهزم هزيمة منكرة ادت الى خسارة ما تبقى من املاكه في اوربا وعاد الى انكلترا مخذولا مهزوما.

النزاع الثاني : تزامن نزاعة ضد الملك الفرنسي مع نزاع اشد خطرا عليه وهو خلافه مع بابا الكنيسة في روما(انوسنت الثالث) ويتلخص الخلاف في رفض الملك جون تعيين رئيس اساقفة انكلترا (ستيفن لانكتون)[(١)] والذي نصب من قبل البابا نفسه وكان ستيفن هذا يتمتع بسمعة طيبة وكفاءة فكرية وعلمية فضلا عن تدينة وتعمقه بعلم اللاهوت.

لقد اعتبر الملك جون هذا التعيين تجاوز لسلطاته وصلاحياته الملكية التي اعتاد عليها الملوك الذي سبقوه ،اذ كان الملك الانكليزي يرشح شخصا يختاره لتولي هذا المنصب وعادةً ما يوافق عليها البابا. وهذا

---

(١) وهو احد ابناء البارونات الانكليز منحة البابا لقب كاردنال عام ١٢٠٦ وعينة في نفس العام رئيس اساقفة انكلترا، وجاء تعيين من قبل البابا بعد شعوره بوجود خلاف بين الملك جون الذي ارسل له اسم احد المرشحين وبين الاساقفة الذين انتخبوا شخصياً اخر وارسلوا (اسمه الى البابا) الامر الذي دفع البابا الى رفض المرشحين واختيار مرشحهُ الخاص لانكتون.

الامر مرتبط بعلاقة البابا مع الملك وصفاء الاجواء بينهما لهذا رفض جون التعيين متحديا سلطة البابا والتي لها شأنها وأهميتها في العصور الوسطى وتاثيرها حتى على سلطة الملك نفسه.

ونتيجة لاصرار البابا على قراره صعد جون من عدائه للكنيسة وصادر املاكها في انكلترا الامر الذي ادى الى اصدار البابا قرار التحريم ضد انكلترا وقرر اغلاق كنائسها ، بل انه وفي خطوة تصعيدية اصدر عام ١٢٠٩ حرمان الملك جون من سلطاته الملكية. رد جون على ذلك بالاستيلاء على جميع واردات الكنيسة والبالغة(١٠٠) الف باون وطرد رجال الدين من مناصبهم (من أساقفة ورؤساء اديره).

ونتيجة لتأثير عدد من البارونات لقرارات البابا قرر جون الانتقام منهم وأمر باحتجاز ابناءئهم كرهائن لضمان ولائهم له لاسيما بعد أن قرر البابا حل البارونات من عهدهم وولائهم للملك. لم يتمكن جون من الاستمرار في تحديه للبابا لاسيما بعد تحالف البابا مع الملك الفرنسي، لذا تغير موقف الملك بشكل كامل عام ١٢١٣ اذ وافق على تعين لانكتون كرئيس للأساقفة وأعاد كل املاك الكنيسة وواردتها واكثر من ذلك اعلن نفسه شخصا تابعا للبابا وان اراضي انكلترا كلها هي اقطاعاً بابويا تابعا للكنيسة في روما وتعهد بدفع مبلغاً كبيراً سنويا للبابا.مما مثل تراجعا اثر على مكانته وهيبته الامر الذي سيكون له تاثير على تجرأ البارونات على محاربته.

النزاع الثالث : وهو النزاع الذي ساعد على انتاج اشهر وثيقة في التاريخ الانكليزي وهي وثيقة (العهد الاعظم او الماكنا كارتا Magna Carta).

كانت طبيعة الملك جون الاستبدادية ورغبته في جمع الاموال من خلال فرض الضرائب ومن أبرزها ما اطلق عليه ضريبة (السُبع) التي فرضها على الواردات الشخصية للبارونات (كبار الملاكين) من اول الاسباب التي عمقت الخلاف بينهما(الملك البارونات) . ثم جاء النزاع مع البابا في روما وأثره في أعفاء البارونات من عهدهم للملك جون ورد فعل الاخير على ذلك، ثم ياتي الصراع مع الملك الفرنسي ليضيف سببا مهما لاتساع الهوة بين الجانبين. لقد ساعدت هذه الاوضاع غير المستقرة ونزاعات الملك جون الخارجية على ضعفه امام البارونات الذين اتفقوا جميعاً وأعدوا العدة لمواجهة الملك وانتزاع حقوقهم منه.

ساعد موقف جون من الكنيسة الى انضمام عدد كبير من رجال الدين الى البارونات فضلا عن تجار المدن الذين عانوا هم ايضا من الضرائب الامر الذي خلق جبهة واسعة وعريضة في معارضة الملك أصطفت لأجبار جون على الرضوخ لمطالبهم.

وكعادته في التراجع عند المواجهات فان الملك جون تراجع هذه المرة امام بارونات انكلترا الذي هم رعاياه واجبروه على توقيع وثيقة مهمة تحد من صلاحياته وتمنحهم عدد من الحقوق اطلق عليها تاريخيا اسماء عدة فهي سميت(ميثاق الحريات) وسميت بالعهد الأعظم من التسمية اللاتينية(Magna Carta) وذلك عام ١٢١٥.

لابد اعادة التاكيد على ان مطالب البارونات ورجال الدين بالاصلاح يستند الى مجموعة من القوانين السابقة والى عدد من الاصدارت والمراسيم في عهد هنري الاول والذي عرف (بقانون الملك هنري الاول)الصادر في أب من عام ١١٠٠م والذي وضنع (١٤ مادة) منعت فيها الاستيلاء على املاك واموال الكنيسة والغاء الضرائب الباهضة فضلاً

عن وجوب استشارة الملك للبارونات عند اصدار القوانين او تعديلها ، وجرى تاكيد هذه الحقوق في عهد هنري الثاني في عام ١١٥٤ الذي اصدر مرسوما (او ميثاقا) اكد فيه انه مستمر في اصلاحات هنري الاول وفي أحترام الكنيسة وأملاكها وفي احترام جميع القوانين والحريات السائدة في عهد جده بل انه زاد في الصلاحيات المالية والقضائية لمجلس الملك.

لقد استغل البارونات الاوضاع السائدة لاعادة احياء تلك الامتيازات ومحاولة الوقوف بوجه طغيان واستبداد وتهور الملك جون الاول، فعقدت مجموعة من الاجتماعات للمعارضين من بارونات ورجال دين وتجار المدن وأهمها الاجتماع الذي عقد في اب من عام ١٢١٣ في كنيسة القديس بطرس في لندن وكذلك اجتماع تموز عام ١٢١٤ عندما التقى المعارضون في احدى الكنائس وقرروا مطالبة الملك بمنحهم حقوقهم كاملة.

لعب رئيس الاساقفة لانكتون دورا محوريا في هذه الاجتماعات والاعداد لها وكذلك في اعداد وثيقة (العهد الاعظم) اذ اعد مسودتها بالاستناد الى قانون هنري الاول والقوانين والاعراف السائدة في المجتمع الانكليزي وعرضها على البارونات الذين رحبوا بها ووافقوا عليها واقسموا بالعمل على فرض تنفيذها على الملك جون الاول مهما تتطلب الامر من تضحيات، ولاجل تنظيم عملهم فقد انتخبوا عدد من الاشخاص ليمثلونهم في تحركاتهم الاصلاحية ضد الملك.

انقسم البارونات ورجال الدين الى مؤيدين للملك(واغلبهم من اصول نورمانية) التزاموا بالقسم الولاء للملك الذي قدموه اليه ورفضوا الرجوع عنه، وبين معارضين (واغلبهم من اصول أنكليزية)، ووصلت الاوضاع الى درجة التهديد باشعال حرب اهلية وشيكة ،لا سيما بعد أن

حصل المعارضون على دعم خارجي من ملك فرنسا المنتصر توا على الملك جون الاول واجبارة على توقيع اتفاقية سلام معه.

لقد حاول الجميع منع وقوع الحرب الاهلية في انكلترا وسعوا الى عقد اجتماع مع الملك جون في نهاية عام ١٢١٤ لمناقشة مطالبهم على وفق الوثيقة التي اعدها لانكتون الا ان الملك حاول التهرب من عقد الاجتماع بالطلب بتاجيلة الى نيسان من عام ١٢١٥م.خلال هذه الفترة جرت حوارات ومواجهات تصاعدت بشكل كبير مع عدم وفاء الملك بموعد الاجتماع، اذ نظم المعارضون انفسهم بتشكيل قوات مقاتله لمهاجمة القلاع والحصون الملكية.

في حزيران من عام ١٢١٥ التقى الملك مع معارضيه من البارونات في منطقة(برانيميد) على نهر التيميز وقرر نتيجة الشعور بخطورة الموقف الموافقة على توقيع الوثيقة التي تم اعدادها مسبقا من قبل رئيس الاساقفة لانكتون واقسم امامهم انه سينفذ بنودها وهي الوثيقة المعروفة(بالعهد الاعظم).

انه من المؤكد ان الملك لم يوقع الوثيقة عن رغبة او قناعة وانما كان مجبرا ،لشعوره بالضعف وعدم القدرة على مواجهة معارضيه، وليس ادل على ذلك من ان الملك جون سرعان ما طلب من البابا في روما(انونست الثالث) التدخل لالغاء هذه الوثيقه باعتبارها اذلت الملك التابع للبابا. لقد استجاب البابا لطلب الملك ووقف الى جانبه ضد معارضيه الذي وصفهم بان اعمالهم هي(تآمر دنيء) رافضا الاعتداء على حقوق الملك او أذلالة، كما انه حكم بالحرمان على كل من يخرج عن الملك.

واكثر من ذلك اصدر البابا في (اب من عام ١٢١٥) قرارا بابويا بالغاء(العهد الاعظم) واحل الملك من اليمين على هذه الوثيقة التي وصفها بانها مخزية ومشينة وغير شرعية.

ان ما يفسر موقف البابا هذا هو محاولته اثبات سلطة وقدرة البابا والسلطة الدينية بشكل عام على تسيير الاحداث في اوربا وفقا لمشيئتها وان أي اصلاح سيمثل تحديا للاعراف الدينية السائدة في تلك المرحلة، كما انه تأكيد لسلطة البابا على الملك نفسه وعلى رعاياه وهو ما تعمل الكنيسة على أثباته وتعميقه الا انه في ذات الوقت اكدت أمرين اساسين الاول هو ضعف وتراجع التاثير البابوي على تطور الاوضاع في اوربا كونه كان معارضا للحريات ويدل على ذلك تجاهل البارونات ومن معهم اوامر البابا واتهاماته وتهديداته لهم واستمراراً في معارضة الملك بل ومحاربته اذ لزم الامر، فقد قرر مجموعة من البارونات وبدعم من عدد من رجال الدين الاصرار على مقاطعة الملك بل وتنحيته في حالة عدم التزامه بالوثيقة المذكورة.

الأمر الأخر يرى الباحث ان موقف البابا هذا حفز في ذاكرة الشعب الانكليزي والملوك من خلفاء الملك جون ذكرى سلبية عن موقف بابا روما في معارضته للحقوق والحريات الأمر الذي سيكون له في المراحل اللاحقه تأثير أساسي في انفصال الكنيسة الانكليزية عن روما.

لقد أشارت الوثيقة التي تحتوي على(٦٣) فقرة الى تشكيل مجلس يتالف من(٢٥) عضوا من البارونات للأشراف على تنفيذ هذه الوثيقة وهناك فقرات تتعلق باملاك الكنيسة وحقوقها وامتيازاتها التي اكدت الوثيقة المحافظة عليها وعدم تدخل الملك في شؤون الكنيسة وانتخابات الاساقفة والرهبان(المادة الاولى) في مواد اخرى الزم الملك على احترام

القوانين الاقطاعية وعدم انتهاكها وعدم جباية الضرائب بشكل كيفي وانما يجب ان يكون ذلك وفق القوانين المعمول بها او بموافقة المجلس المشكل(مجلس ال ٢٥) وهذا ما ورد في المواد ٤٣/١٢/٢. هناك موادا اخرى تخص حماية اموال التجار وتنظيم فرض الضرائب عليهم، وهناك مواد تخص احترام اموال اليتامى والارامل واحترام حريات السكان في المدن اذ لايجوز ألقاء القبض على السكان(الأحرار) او سجنهم الا بعد محاكمة من قبل البارونات، وهناك مواد أخرى فرضت قيودا للسيطرة على موظفي البلاط والأشراف على أعمالهم وأشارت الوثيقة الى ان الملك عرضة للمحاسبة والمسائلة من قبل التابعين له. كما أقرت الوثيقة تسريح المرتزقة الذين اعتمد عليهم الملك لمواجهة معارضيه والإفراج عن الرهائن عند الملك من اقارب النبلاء.

لقد باشر مجلس الـ(٢٥) استخدام صلاحياته بشكل عد بانه مجحف وفيه مساس بهيبة الملك الى الحد الذي وصف تجاوزهم بانه (عديم الذوق في معاملة الملك) مما اعتبر تجاوزا على حقوقه التي كفلتها الوثيقة، لهذا فقد اعلن الملك جون الاول وباعتماده على بابا روما الغاء (العهد الاعظم) لعدم تنفيذ النبلاء لبنوده وعدم تقيدهم بواجباتهم تجاه الملك.

ما هي ابرز الملاحظات على المكناكارتا(العهد الاعظم)؟

أ. يجب التأكيد أن هذه الوثيقة كان لها أهمية تاريخية كبيرة أذا أوجدت الأساس العملي لمفهوم الحقوق والحريات ولمبدأ (الملكية المقيدة) التي تتقاطع مع مبدأ (الحق المطلق الالاهي)للملك في حكم البلاد ،فقد أبرزت الوثيقة بشكل واضح ان الملك(خاضع

للمحاسبة والمسائلة من قبل أتباعه) وهو مبدا جديد لم يتم التطرق اليه سابقاً. فكان ذلك انطلاقة لمجموعة من الافكار والنظريات والمفاهيم التي تناولها المفكرون والفلاسفة والتي وضعت الأسس لمرحلة ما بعد العصور الوسطى وتم تعزيزها باجراءات وتطورت من عهد الى اخر.

ب. ولابد أيضا التأكيد على حقيقة ان وثيقة (العهد الاعظم) الذي سعى أليها ودونها وجاهد لاجبار الملك على توقيعها ليس الشعب الانكليزي وليس الفلاحين البسطاء او سكان المدن من عمال وغيرهم وانما هم الإقطاعيون والبارونات من كبار ملاكي الأراضي وكبار التجار وعدد من كبار رجال الدين ، لذا فقد عدت هذه الوثيقة وثيقة أقطاعية لأنها أكدت على حقوق البارونات ومصالحهم المادية اكثر من حرصها على مصالح الشعب بشكل عام فهي جائت كرد فعل لهؤلاء المتنفذين على سياسيات الملك وضرائبه أجبرته للانصياع لشروطهم مستغلين ظروف آنية او مرحلية قاهرة تمثلت بضعف الملك نتيجة لخلافه مع الكنيسة في روما وحروبه الخارجية.

ونرى ان هذه ميزة في الديمقراطية البريطانية بأنها بدأت من الطبقات العليا في المجتمع ولم تنشا من الطبقات الدنيا للشعب وأخذت تتطور بشكل هرمي من الاعلى الى القاعدة وليس بالعكس وهذا ما لانجده في جميع التغيرات الديمقراطية في العالم لاسيما في فرنسا اذ ثار ابناء الطبقة المستعبدة وفرضوا أرادتهم على السلطة وكذا في الولايات الأمريكية وغيرها من الحركات في العالم، وأعتقد ان هذا سر نجاح الديمقراطية في بريطانيا واستمرارها وقلة الصدمات التي تعرضت لها.

ج. استند المعارضون للملك الى تأئيد خارجي تمثل بالملك الفرنسي(فيليب اغسطس) الذي لم يكن يهتم بالحقوق والحريات للشعب الانكليزي اكثر من اهتمامه برغبته بالسيطرة على انكلترا والانتقام من ملكها.

د. يجب الإشارة الى ان كلمة(الرجل الحر) وتعبير (الاحرار) التي وردت في الوثيقة لم تكن تعني أبناء الشعب الانكليزي وانما كان القصد منها الأحرار من الطبقات الإقطاعية وأبنائهم ولاتخص كل أبناء المجتمع ،وحتى كلمة الحريات(Liberties) التي وردت في الوثيقة لم تكن تعني سوى حقوق ومطالب وامتيازات البارونات فحسب ،الا ان هذه المبادئ اخذت ابعادا مختلفة في الحقب التالية لتشمل مفاهيم اوسع.

هـ. لقد بدأت (المكاكنا كارتا) بسبب انهماك الملك جون في حروبه وضعف موقفة الداخلي والخارجي وليس لإيمانه بالحقوق والحريات، واستمرت تلك المبادئ لنفس الأسباب أي لعدم قدرة خلفائه على تحدي سلطة النبلاء التي أخذت بالتصاعد بعد ان تجرأت على تحديد سلطة الملك، فضلا عن تعمق تأثيرها لدى الشعب البريطاني وأصبح الخروج عنها مسالة صعبة اذ لم يكن أمام الملوك الانكليز الا الاعتراف بتلك المبادئ بل انهم استجابوا لإجراءات وخطوات أوسع وفقاً لهذه المبادئ

الفصل الخامس

هنري الثالث وتعمق مبدأ الحريات

بعد وفاة الملك جون الأول عام ١٢١٦ في خضم الصراع مع البارونات تم اختيار أبنه وهو صبي في سن التاسعة من عمره ملكا على انكلترا ، وقد تم اختيار أوصياء له والذين بلغوا ثلاثة خلال السنوات من عام ١٢١٦ حتى عام ١٢٢٧ وهو تاريخ توليه العرش بنفسه . وقد تعاقب على وصايته كل من وليم مارشال حتى وفاته في ١٢١٩ ثم باندوف حتى عام١٢٢١ وبعده هيروبري دي بور حتى عام ١٢٢٧.

وفي السنة الاولى لتوليه العرش تم التاكيد على وثيقة العهد الاعظم عام ١٢١٦ اذ تم اصدار تاكيد للالتزام بها مع اجراء تعديل يخص المواد التي تتعلق بالضرائب ومجلس المراقبة والاشراف على تنفيذ الوثيقة اذ تم حذف قسم منها.

اهم احداث مرحلة هنري الثالث:

أ. تعرض البلاد لتحديات خارجية من قبل طامعين بالعرش الانكليزي اذ عبرت قوات عسكرية من فرنسا تم هزيمتها.كما ازدادت سلطة البابا في انكلترا لاسيما فيما يتعلق بجمع الضرائب لصالح الكنيسة في روما فضلا عن قيام البابا بتعيين عدد من الفرنسيين والايطاليين كممثلين له في انكلترا.

ب. تزوج هنري الثالث من أميره فرنسية لم تحضر الى انكلترا لوحدها وإنما أحضرت معها عدد كبير من أقاربها وأتباعها الذين منحوا مناصب ووظائف مهمة في الدولة، الأمر الذي فاقم وجود الأجانب العاملين في انكلترا بالتزامن مع تعيينات البابا من رعايا الدول الاخرى مما مثل ضغطا كبيرا على الشعب الانكليزي الذي وجد في اتساع وجود الأجانب امرا غير مقبول ومكلف لانكلترا مما أثار معارضتهم وسخطهم.

ج. ظهور شخصية أصبح لها تأثير عميق في التاريخ الانكليزي هو(سيمون دي مونتفورت) وهو نبيل أقطاعي فرنسي الاصل تزوج من اخت الملك هنري الثالث واصبح مستشارا له ومحاربا في جيشه.اختلف المؤرخون في تقييم دوره فهناك من وجد فيه طامعا في العرش الانكليزي حاول السيطرة عليه، وعندما لم يستطيع من ذلك تحول لقيادة المعارضين الثائرين على الملك في المرحلة اللاحقة. فيما ذهب رائياً اخر الى انه زعيم لحركة ثورية شعبيته لها مطالب تتعلق بالحقوق أذ وصف (بمعبود الامة الانكليزية والذي استشهد في سبيل مصالحها). ولكن الثابت انه قام بدور محوري ومهم في هذه المرحلة ويعود له تاسيس مجلس ضم ممثلي المدن الانكليزية مما مثل الاساس لمجلس العموم الحالي كما سنرى.

د. اتبع هنري سياسية خارجية خاطئة من خلال شنه الحروب الخارجية لاهداف سياسية تهدف لتوسيع سلطاته في اوربا فضلا عن حروب اخرى انفق خلالها الاموال الطائلة الامر الذي اثار عليه البارونات لفرضه ضرائب اضافية لاسيما عندما اعلن انه مدين للبابا في روما باموال طائلة.

هـ. بسبب ضعفه وسياساته الخاطئة، التي وجد فيها البارونات تجاوز على حقوقهم وعلى اعترافه بوثيقة العهد الاعظم التي التزم بها رسمياً خلال الاعوام ١٢١٧و١٢٢٤ واعيد التاكيد على بنودها، فقد قرر البارونات

الدعوة لاجتماع في اكسفورد(حزيران ١٢٥٨) والذي اطلق عليه تاريخيا بـ(برلمان اكسفورد)[(١)] ، والذي مثل لبنة جديدة مضافة في سفر الحياة البرلمانية الانكليزية اذ وضع مجموعة من المطالب مستوحاة من المكانا كارتا وأهمها مراقبة سياسة الملك وتحديد صلاحياته في فرض الضرائب فضلا عن الاشراف المباشر على مصروفات الملك وسلطاته من خلال اجتماعات يعقدها المجلس المشكل بشكل منتظم لثلاث مرات في السنة. وقد انتقد معارضي هذا الاجتماع باطلاق مصطلح(البرلمان الهائج) (Themad parli ament) عليه في محاولة لوصفه بعدم الموضوعية.

و. على الرغم من موافقة الملك وولي عهده ابنه(ادوراد) على قرارات هذا الاجتماع (البرلمان) واقسما على العمل بموجبها الا انه سرعان ما أعلن الملك تنصله منها مستعينا بالبابا (اوريان الرابع) والذي اعلن براءة الملك من قسمهُ، فضلا عن تدخل ملك فرنسا لصالح الملك هذه المرة وذلك لخشيته من أمتداد الثورة والمطالب التحررية الى بلاده، وفي محاولة وضع حد للمطالبات بأسلوب يقبل به المعارضون تم الدعوة الى اجراء تحكيم في فرنسا حول الاوضاع في انكلترا ، وقد جاءت نتائج هذا التحكيم لصالح الملك هنري كما كان متوقعا وذلك وفق اتفاقية عرفت باسم المدينة التي وقعت فيها(اميان) وذلك عام ١٢٦٤م.

((١)) كلمة البرلمان(parliament) هي كلمة ذات اصول لاتينية جاءت من(parliamentum) وتعني الحوار او النقاش، وقد اطلقت خلال العصور الوسطى على المحاكم وعلى مجالس الحروب،استخدمت الكلمة في انكلترا بشكل غير رسمي في بادئ الامر الا انه عام ١٢٣٩ اطلقت هذه الكلمة على(المجلس الكبير) وخلال هذه المرحلة التي نحن بصددها اتسع استخدامات هذه الكلمة رسميا من قبل كتاب الملك عندما كانت تطلق على اجتماعات الملك هنري الثالث مع المجلس الكبير او مع مستشارية ولم تكن تعني ان هذه المجالس منتخبة الا بعد حقب زمنية.

ز. الحرب الاهلية وبروز دور(سيمون دي مونتفورت):حاول الملك ان يفرض على البارونات قرار التحكيم الخاص بالغاء قرارات اجتماع اكسفورد(برلمان اكسفورد) الا ان البارونات ومعهم عدد من سكان المدن وتجارها فضلا عن طبقة دخلت الى معترك الحياة السياسية وهي طبقة الفرسان(وهم طبقة من صغار ملاكي الارض ويطلق عليهم صغار البارونات تمكن مونتفورت من كسبهم الى جانبة في صراعه مع الملك)، كل هؤلاء رفضوا قرار التحكيم الامر الذي ادى الى نشوب نزاع مسلح (حرب اهلية) بين الملك وأتباعه وبين المعارضين بقيادة سيمون دي مونتفورت. كان موقف هنري الثالث ضعيفا بسبب قدرة مونتفورت على توجيه الاحداث لصالحة وحشد الاطراف المعارضة للملك في جبهة موحدة بقيادته. كما كان لرجال الدين في هذه المرحلة دورا مهما في التبشير بافكار الحرية والتركيز على مبدا(القانون فوق الملك) بين اوساط الشعب الانكليزي مما كان له الاثر البالغ في نشر الافكار التحرريه بين كافة طبقات المجتمع ما مهد لتعميق حالة الوعي بمفهوم الحرية تطوره مع مرور الزمن.

من ابرز ملامح هذه الفترة دعوة مونتفورت الذي اصبح صاحب الكلمة الاولى في حكم البلاد الى عقد أجتماع دعا فيه كبار رجال الدين من مختلف المستويات فضلا عن(١٨) بارونا ووجه دعوة لممثلي طبقة الفرسان بواقع فارسين عن كل بلدة كما دعا لممثلين اثنين عن كل بلدة الامر الذي جعل هذا الاجتماع شاملا لكل طبقات المجتمع الانكليزي والذي عقد في ٢٠ كانون الثاني عام ١٢٦٥م اطلق على الاجتماع (برلمان ويستمنر) نسبة الى المدينة التي عقد فيها وأطلق عليه ايضا (البرمان الشهير) وذلك لاهميته التاريخية، اذ عده المؤرخون التطبيق العملي الاول

لنشأة مجلس العموم في انكلترا. لهذا فأن الانكليز يعيدون الفضل في تأسيس هذا المجلس لـ(سيمون دي مونتفورت) كونه صاحب المبادرة في دعوة ممثلي الشعب البريطاني كافة. وعلى الرغم من أجبار هنري الثالث على الموافقة على قرارات هذا البرلمان الا ان تطورات حاسمة ادت الى تغير الأوضاع لصالح الملك اذ استغل هنري الثالث الانشقاقات الحاصلة في معسكر اعدائه ووفاء القوات الموالية له وبدا بفرض حصار على معارضيه وإجبارهم على الاستسلام في الفترة بين ايار وتشرين الثاني من عام ١٢٦٦.

وبعد تحقيقه الانتصار أعلن الغاء كل القوانين التي صدرت في السابق دون موافقته او تلك التي اجبر على الموافقة عليها واعاد صلاحياته كاملة وختمت هذه المرحلة باغتيال مونتفورت الذي حفظ الانكليز له مكانته برغم قرار الملك بعدم اعتباره شهيدا او الاحتفاء به.

لم يتمكن هنري الثالث تجاهل التطور الفكري والديمقراطي في بلاده على الرغم من انتصاره على معارضيه فعمل على كسب القوة الاجتماعية التي استند عليها خصمه (سيمون) وهم سكان المدن والفرسان كما قرر اعطاء بعض الحقوق والامتيازات للبرلمان(المجلس الكبير) وأعلن التزامه بكل القوانين السابقة التي هي ضمن العرف الانكليزي، توفي هنري الثالث في ١٦ تشرين الاول عام ١٢٧٢ ليبدأ عصر جديد مع ابنه ادوراد الاول.

الفصل السادس

التحولات والحروب الكبرى

جاءت وفاة هنري الثالث في ١٦ تشرين الاول عام ١٢٧٢ لتنهي مرحلة من عدم الاستقرار والتذبذب السياسي الذي عانت منه انكلترا والملك نفسه كونه لم يظهر الصلابة او الكفاءة اللازمة والكافية لمواجهة الاحداث الداخلية والخارجية التي عانت منها انكلترا خلال فترة حكمه.عند تولى ابنه ادور الاول السلطة عام ١٢٧٢م شهدت السياسة الانكليزية اختلاف واضح في مواضع كثيرة لاسيما على الصعيد الداخلي. اذ يصف المؤرخون ادورد الاول بانه من(اقدر الملوك في تلك الحقب) ونعتقد ان هذا الراي جاء نتيجة الخبرة التي اكتسبها خلال حكم والده ومشاركته المباشرة في الاحداث والحروب والصراعات الداخلية التي شهدها ذلك العهد.

أ- لقد وجه ادوارد نشاطة واهدافه باتجاه الجزيرة البريطانية بشكل خاص مبتعدا بعض الشيء عن الصراعات في اوربا فكانت اول اهدافه ضم مقاطعة ويلز الى سلطانة، اذ كانت تلك المقاطعة مقسمة الى شطرين الاول خاضع لسلطة الملك الانكليزي، وتضم الاقسام الجنوبية من المقاطعة فيما كانت الاجزاء الشمالية تدار بشكل مباشرة من قبل الامراء الويلزيين بعيدا عن سلطة الملك المركزية في لندن، بل هم لا يعترفون بتلك السلطة اوالولاء لها. ويبرز في هذه المرحلة احد الامراء الويلزيين المدعو(لوليان) والذي قاد المقاومة لمواجهة العمليات العسكرية التي نظمها ادورد الاول

لاخضاع تلك المناطق الى سلطاته عام ١٢٨٢م. وبالرغم من تلك المقاومة الا ان الملك ادورد الاول تمكن من السيطرة عليها واخضاعها بشكل كامل الى سلطاته، وطبق عليها التقسيمات الادارية المعروفة من انكلترا وجعل ويلز كلها أقطاعا لابنه الاكبر وولي عهده وذلك عام ١٣٠١م. واعتبارا من ذلك التاريخ اصبح تقليدا متوارثا ان يطلق على ولي العهد البريطاني لقب(اميرويلز) حتى الوقت الحاضر وقد شيد ادورد قلاع وحصون اقطاعية عدة في ويلز لتدل على سلطته.

ب- اما منطقة اسكتلندا المعروفة بتضاريسها الوعرة وسكانها الاشداء فكان امراؤها يخضعون اسميا للملك الانكليزي ،الاانها في عهد الملك ادورد الاول كانت شبه مستقلة من الناحية السياسية والاقتصادية، لذا وجه الملك اهتمامه لتوحيد تلك المنطقة مع باقي اجزاء مملكته التي تشمل الجزيرة البريطانية. اتبع في بادئ الامر الاساليب الدبلوماسية والسلمية لتحقيق هدفه هذا وذلك من خلال المصاهرة مع امراء اسكتلندا ،فقرر تزويج ابنته(ماركريت) الى حاكم اسكتلندا الا ان الامر لم يتكلل بالنجاح نتيجة وفاة (ماركريت) المفاجئة.

استثمر ادورد حصول نزاعات داخلية في اسكتلندا لتحقيق اهدافه، فعمل على دعم فريق ضد اخر بالمال والسلاح، فكان دعمه هذا سببا لانتصار احد الزعماء المحليين المدعو(باليول) عام ١٢٩٢م. الا ان الاخير وبعد ان تمكن من تحقيق اهدافه في السيطرة على كامل الاراضي الاسكتلندية بمساعدة الملك الانكليزي تحول للتحالف مع الملك الفرنسي(العدو اللدود لانكلترا) فيليب الرابع وذلك للتخلص من تبعيته

للملك الانكليزي وذلك عام ١٢٩٥م.الا ان الملك ادورد لم يمكن (باليول) من الاستمتاع بأحلامة فتمكن من تنظيم حملة عسكرية ضده وهزيمته هزيمة حاسمة لاستعادة السيطرة على اسكتلندا، ونفي(باليول) الى فرنسا. لقد تمكن الملك ادورد الاول بهذا العمل من اعادة توحيد الجزيرة البريطانية بمقاطعتها الثلاثة(انكلترا، ويلز، اسكتلندا) تحت سلطاته وهو الامر الذي يحسب تاريخيا لادورد وشجاعته ذلك على الرغم من استمرار مقاومة متفرقة في اسكتلندا كون الشعب هناك يتميز بالصلابة وحب الاستقلال والحرية حاله حال الشعوب الجبلية التي تعودت على الاستقلال ومقاومة أي سلطة من خارج المنطقة. لذا فقد استمرت العمليات الحربية التي تشير الى عدم تمكن الملك الانكليزي من فرض سلطانه على كامل المنطقة. حتى في عهد ولده ادورد الثاني استمرت هذه المعارك وحاول تاكيد سلطانه على اسكتلندا الا انه خسر في معركة شهيرة تدعى معركة (بانوكبرنBannoc kbarn) والتي ادت الى ضعف سيطرة ملوك انكلترا على اسكتلندا ثلاثة قرون قادمة اذ بقيت سنة مستقلة ومنعزلة عن انكلترا الامر الذي جعلها تعاني من ظروف اقتصادية وحضارية صعبه نتيجة موقعها الجغرافي المعقد[(١)] .

ج- من اهم سمات الملك ادورد الاول هو ادراكه لاهمية القاعدة السكانية التي يجب ان يستند اليها التاج البريطاني وهو الامر الذي لاحظه خلال معايشته الاحداث التي جرت خلال حكم والده هنري الثالث، فقد وجد ان دعم القاعدة الشعبية الواسعة لسلطة الملك لتحصل سلطة اكثر قوة واستقراراً وكفاءتاً واكثر شرعية ولديها القدرة على مقاومة اعدائها.

((١)) أ.ل. راوس :التاريخ الانكليزي، ترجمة محمد محمود زيارة،(القاهرة، ١٩٤٩)، ص٥٢.

وانطلاقا من ذلك الاعتقاد الذي امن بها ادورد الثالث شهد عهده تطور مهم في الحياة البرلمانية في انكلترا وتوسيع اختصاصاتها وتأثيرها فقد قرر ادوارد الاول اشراك فئات اخرى غير البارونات ورجال الدين في الحياة البرلمانية كنواب المقاطعات ونواب البلدات الانكليزية وذلك بدعوتهم لأجتماعات البرلمان التي يدعو اليها الملك لمناقشة مواضيع مختلفة كفرض الضرائب وامور اخرى تخص بعض القرارات المهمة كالحكم على المتهمين[(١)]، واطلق على هذه الفئات (بالعموم) او(العامة) لتميزهم عن الخواص وهم البارونات وكبار رجال الدين. ان ما ساعد على نمو دور الطبقات الجديدة هي تلك التشريعات التي اصدرها الملك والمتعلق بملكية الاراضي والتي ادت الى زيادة في عدد صغار الاقطاعيين الذي يرتبطون بولائهم الشديد للملك ، الامر الذي جعل الاخير يشرك هذه الطبقة في المجالس البرلمانية ليكونوا داعمين له ولقراراته.

لقد اصدر البرلمان بتشكيليه الجديدة مجموعة من القوانين المهمة كقانون تحديد الضرائب الذي سن عام ١٢٧٥ ، وقانون (جلوستر) الصادر عام ١٢٧٨م والذي تم فيه تحديد صلاحيات محاكم البارونات الاقطاعية، وقانون اخر سمي قانون (ونستمت الثاني) لعام ١٢٨٥م والذي اعطى صلاحيات اضافية للبرلمان، فضلا عن قوانين أخرى ذا اهمية كبيرة في التاريخ البرلماني الانكليزي أثرت على زيادة دوره في الحياة الاجتماعية والاقتصادية للبلاد. وطبقا لفكرة توسيع قاعدة المراقبة والأشراف فقد عين الملك لجنة عام ١٢٨٠ مهمتها استلام ما اطلق عليه

((١)) كالحكم الذي اصدره البرلمان بالخيانة العظمى على زعيم المتمردين في ويلز(ديفيد) والذي اسر في حزيران عام ١٢٨٣.

(الالتماسات) والتي تقدم من قبل مجموع الشعب مباشرةً للبرلمان والتي تتضمن تضلمات وشكاوي الافراد من احكام وحالات معينة ،وعمل هذه اللجنة هو تصنيف هذه الالتماسات حسب أختصاصها ونوعها وتعرض على البرلمان أو الملك لاتخاذ القرارات المناسبة بشانها، وان تلك القرارات تاخذ صفة القانون وتدون ضمن ملفات القوانين مما اعطى سمة جديدة للقوانين البريطانية بانها ليست فقط من صنع الملك او البرلمان واما ايضا من خلال اشراك عامة الناس اللذين يقترحون اجراءات معينة تاخذ طريقها للتشريع مما ساعد على تدريب الشعب وتربيته(اذا صحت العبارة) على الوعي بالشؤون السياسية والاقتصادية والاجتماعية والمشاركة الفعلية في ادارة البلاد وهو ما سوف يسهم بشكل عملي في تطور المشاركة السياسية لافراد الشعب في المراحل اللاحقة.

د- وطبقا لذلك فقد شهد عهد ادورد الأول انعقاد ما اطلق عليه تاريخيا (بالبرلمان النموذجيthe model parliament) وذلك عام ١٢٩٥م(وهي تسمية اطلقها المؤرخون في مراحل لاحقة لاجتماعات عقدها الملك) كتعبير عن اهمية تلك الاجتماعات من حيث نسبة الحضور اذ حضر(٩٨٥) شخصا ،وكذلك من حيث التمثيل الواسع لجميع طبقات المجتمع الانكليزي، لذا اطلق عليه بالنموذجي عند دراسة هذه المرحلة من تاريخ بريطانيا.

خلال هذا الاجتماع دعا الملك فضلا عن البارونات وكبار رجال الدين من رؤساء الاساقفة والاديرة دعا ايضا نائبين عن كل مقاطعة ونائبين عن كل بلدة انكليزية ونائبين عن كل مدينة مما مثل توسع غير مسبوق للتمثيل في اجتماعات البرلمان الذي يعطي المشورة للملك فضلا عن مهام اخرى. وقد كان عدد النواب الجدد (٢٩٠) نائباً يمثلون (٣٥)

مقاطعة و(٣٩) بلدة و(٧١) مرشح. لقد اعطى هذا البرلمان الفرصة ليس فقط للحضور والتمثيل الاكبر وانما ايضا لابداء الاراء المختلفة، فقد كان الخطوة الاولى والمهمة في اعطاء دورا اكبر للحاضرين لاسيما الجدد منهم، اذ حصل هؤلاء على حق التصويت اعتباراً من عام ١٢٩٧م مما مثل تطورا مهما في الحياة البرلمانية الانكليزية بشكل عام وعمق دورها في ادارة الدولة. ويجب ان نؤكد هنا امرين اساسيين الاول ان البرلمان في هذه المرحلة يمثل هيئة استشارية للملك اكثر من كونه هيئة تشريعية، الامر الأخر ان انتخاب ممثلي المقاطعات والمدن والبلدان لم يكن يستند الى دعم شعبي اذ غالبا ما يكون مستندا الى نفوذ النبلاء والاشراف، الامر الذي جعل التمثيل الشعبي بصفته الصحيحة الكامله غير قائم في تلك المرحلة ،الا انه مع هذا كله مثل هذا البرلمان اهمية كبيرة وانطلاقه لتتطور في مراحل لاحقة لينتقل باتجاه الادارة التمثيلية الحقيقة للبرلمان الانكليزي.

هـ. خطا التطور البرلماني والديمقراطي في انكلترا خطوة جديدة ومهمة في عهد ادورد الثاني الذي حكم بين (١٣٠٧م- ١٣٢٧م)، اذ عرف هذا الملك بضعفه ومهادنته لمعارضيه وحتى اعدائهُ، فضلاً عن عدم قدرته على مواجهة البارونات وكبار رجال الدين وتطلعاتهم، الامر الذي شجع هؤلاء بالمطالبة بتقييد اكبر لسلطات الملك السياسية والمالية والادارية في الدولة، وذلك من خلال اصدار مجموعة من القرارات التي اطلق عليها تاريخيا(بالمراسيم) والتي تم اصدارها في اجتماع دعا اليه البارونات عام ١٣١١م. تتضمن تلك القرارات (المراسيم) حق البرلمان في الأشراف على الشؤون المختلفة للدولة بل اكثر من ذلك

بتهديد صلاحيات الملك في امور مهمة من بينها حق اعلان الحرب الذي ثم حصره بموافقة البرلمان لما لهذا الموضوع من اهمية كبيرة على واقع البلاد الامني والاقتصادي كونه يكون سببا بفرض ضرائب اضافية، وذهبت تلك(المراسيم) ابعد من ذلك بان اشارت الى سحب حق الملك بتعيين كبار مستشارية وكبار الموظفين في البلاط وحتى تعيين المقربين من الملك نفسه كحامل أختامه ورئيس البلاط الملكي وغيره واعطت للبرلمان سلطة الموافقة على أي تعين في هذه المناصب المهمة.

كما شملت تلك(المراسيم) أختصاصات جديدة أضيفت الى صلاحيات البرلمان لم تعرف في السابق، اذ كان البرلمان يستشار بفرض نوع الضرائب وكيفية تحصيلها الا انه اضيف لذلك حق الاشراف على الانفاق المالي لمؤسسات الدولة كافة ومنها البلاط الملكي نفسه، أي ان الاموال ستحول الى خزينة الدولة ويكون الاشراف عليها بشكل كامل من قبل البرلمان لاسيما ما يتعلق بالنفقات بعد ان كان ذلك من صلاحيات الملك وحاشيته وكانت الاموال غالباً ما تنفق على الملك وحاشيته وعلى الحروب التي يقرر الملك شنها طبقاً لمصالحه ورؤيته.

كما حدد البرلمان آلية انعقاده وتقرر تشكيل لجان خاصة للنظر بالشكاوى المقدمة ضد الوزراء او كبار الموظفين، كما حدد الية واضحة لمراجعة تنفيذ الاصلاحات ومراقبة السياسة العامة للدولة.

لقد مثلت هذه القرارات (او الاصلاحات) تطورا مهما في الحياة السياسية لانكلترا على الرغم من التشكيك في امكانية تنفيذها بشكل كامل من قبل اعضاء البرلمان او الملك، الا انها عدت خطوة واسعة وكبيرة ومهمة في تلك المرحلة بالمقارنة مع الواقع الاوربي اذ كانت

الدول الاوربية تغط في سبات سياسي وفكري عميق فكانت بمثابة قفزة في سفر الديمقراطية الانكليزية.

ذلك على الرغم من محاولات الملك تعطيل هذه الاصلاحات لاسيما عندما دعا البرلمان عام ١٣٢٢م الى اعادة النظر بالاصلاحات(المراسيم) التي اصدرها البرلمان عام١٣١١م، واقترح قانوناً لتعديل تلك المراسيم بما عرف بقانون(يورك). الا انه لم يتمكن من تطبيق هذا القانون بسبب الظروف التي تعرض اليها الملك لاسيما من قبل زوجته(ازبيلا) وهي اخت الملك الفرنسي (شارل العاشر) والتي تآمرت مع البارونات وكبار الملاكين وكبار رجال الدين للأطاحة بالملك وخلعه رسميا بقرار من البرلمان والحكم عليه بالاعدام عام ١٣٢٧م.

و. انتهاء عهد ادورد الثاني والمناداة لابنه ادورد الثالث (١٣٢٧- ١٣٧٧) ملكاً على انكلترا لم يكن بداية لاستقرار الاوضاع في انكلترا وانما كان بداية لسلسلة من الحروب الدامية خاضها الملك الجديد على الصعيدين الداخلي والخارجي. وقد بدا حكمه تحت وصاية أمه(ايزابيلا) واستمرت تلك الوصاية ثلاثة اعوام من ١٣٢٧ حتى ١٣٣٠م اذ كان عمره عند توليه العرش ١٥ عاماً فهو من مواليد عام ١٣١٢م.

لقد انهى ادورد الثالث فترة الوصاية باسلوب دل على فطنته وشجاعته وطموحه (كما يصفه المؤرخون) اذ انتقم لمقتل والده على يد عشيق والدته المدعو(مورتيمو) عندما حاكمه وأعدمه عام ١٣٣٠ ثم امر بحبس والدته.

توجه في البداية لاعادة وحدة اجزاء الجزيرة البريطانية التي تزعزعت ايام حكم والده الذي اتسم بالضعف والتردد، فقد خاض حروبا لاعادة اسكتلندا الى سلطانه وكذا فعل مع ويلز.

ز. الا ان أندفاعه باتجاه الانتقام لوالده ممن تآمروا عليه لاسيما ملك فرنسا جرته للدخول في حرب مع هذا الملك مدعيا حقه في عرش فرنسا نفسه مما مثل بداية لحرب طويلة دامية بين الدولتين (انكلترا وفرنسا) عرفت بحرب (المائة عام) وذلك ابتداءاً من عام ١٣٤٠م.

ح. لقد ساهمت حروبه في ضعف موقفة الداخلي لاسيما امام معارضيه من البارونات واعضاء البرلمان الاخرين الذين عملوا على أعادة صلاحياتهم ونفوذهم، لاسيما ان الحرب مع فرنسا تطلبت الحاجة الى مزيد من الاموال والتي يتوجب الحصول عليها فرض ضرائب جديدة الامر الذي اظطر الملك معه الى اعطاء تنازلات للبارونات وذلك باعادة العمل بالاصلاحات (المراسيم) والتي حدت صلاحيات الملك لاسيما فيما يتعلق بتعيين كبار مستشارية والموظفين وحق البرلمان بمحاسبتهم، بل وصل الامر الى ان البرلمان اجبر الملك على ان لايقوم بجباية الضرائب لتمويل الحرب الا بموافقة البرلمان.

ط. ظهر في عهد ادورد الثالث اول بوادر انقسام البرلمان الانكليزي الى مجلسين وهما مجلس اللوردات ومجلس العموم اذ حصل تطور كبير في التركيبة الاجتماعية الانكليزية لاسيما ازدياد دور الطبقة البرجوازية[١] (اصحاب رأس المال من سكان المدن) وتحالفهم مع طبقة الفرسان(صغار ملاكي الارض) وكان تعاونهم في مختلف المجالات الامر الذي ساعد على ظهور طبقة منسجمة مع بعضها من

---

[١] -البرجوزية: تطلق على طبقة اجتماعية ظهرت خلال القرن ١٥-١٦ امتلكت رأس المال وامتلكت القدرة والتحكم بالانتاج وعملت وبشكل تدريجي للسيطرة على المجتمع ويعود اصلها إلى الكلمة اللاتينية bourgeoisie وتعني المدينة المحصنة وكانت توصف بها الطبقة الوسط بين النبلاء وطبقات الشعب الدنيا. ولهذه الطبقة عادات وسمات اجتماعية خاصة بهم وتوصف بنها بعيدة عن طبقة العمال والفلاحين وصغار الموظفين.

تجار المدن (البرجوازيون) والفرسان وغيرهم ممن انسجموا معهم كصغار رجال الدين ، وقد تميزت هذه الطبقة عن طبقة كبار البارونات وكبار رجال الدين وقد عملت تلك الطبقة على البحث عن دور مؤثر لهم في البرلمان الانكليزي يميزهم عن طبقة كبار البارونات وكبار رجال الدين.

مثل مجلس اللوردات في تلك المرحلة ما اطلق عليه (المجلس الاعلى) واعضائه ينتمون الى الطبقة النبيلة العليا في المجتمع وتضم ما اطلق عليهم اللوردات الدنيويون (كبار الملاكين) واللوردات الدينيون (أي كبار رجال الدين).

اما مجلس العموم فقد اطلق عليه (المجلس الادنى) وفيه ماعرفوا بالطبقة البرجوازية فضلا عن ممثلي المدن والبلدان وكانت تجمعهم المصالح المشتركة لمواجهة كبار البارونات وقراراتهم. وفي هذه المرحلة من انقسام البرلمان الانكليزي لم يكن للمجلس الادنى(العموم) صفة تشريعية الا انه تمكن من استخلاص مجموعة من الصلاحيات المهمة كونهم ممن يملكون الاموال بشكل مباشر وهم مصدر مهم للضرائب وتمويل الخزينة، فضلا عن دورهم المهم والمؤثر في مدنهم وقراهم لقربهم من الناس نتيجة الاحتكاك المباشر معهم والذي يتطلبه عملهم وطبيعة وضعهم الاجتماعي لذا فقد كانوا غالبا ما يفرضون رأيهم في مسائل عديدة ومنها فرض ضرائب جديدة[(1)].

((١)) تشير الدراسات التاريخية الى ان شكل وتسمية المجلسين لم ياخذ شكله الحالي في القرن السادس عشر وان اول انقسام للبرلمان جرى عام ١٣٣٢م اذاجتمعت فيه مجموعة من النواب في قاعة منفصلة ومن عام ١٣٣٩م اصبح هذا الانقسام اكثر وضوحاً.

ي.الحدث الابرز خلال النصف الاول من القرن الرابع عشر هو انتشار وباء الطاعون(او ماعرف بالموت الاسود بسبب لون بشرة المصاب به والتي تظهر عليها بقع سوداء) في اوربا بشكل عام وانكلترا بشكل خاص ويعتقد انه جاء عن طريق السفن المحملة بالبضائع من الصين والملوثة بالمرض.

لقد مات على اثر هذا المرض أعداد كبيرة من سكان انكلترا فاق تقديرهم بربع سكان البلاد أي ما يقارب المليون شخص، وقد أهلك المرض أسر بأكملها، وأصبح من المتعذر دفن الموتى فكان يلقى بهم في حفر جماعية أطلق عليها(حفر الطاعون) وكان الوباء يعصف بالأراضي البريطانية بين الحين والأخر لفترة امتدت اكثر من خمسون عاما. كانت للمرض اثار سلبية بالغة على المجتمع الانكليزي فقد ادى الى معاناة الناس وشعورهم باليأس والقنوط امام زحف الموت دون القدرة على ايقافه،(اذ قام بعضهم بتمثيل رقصه الموت كالمجانين في المقابر، واخرون يحتفلون بما اطلق عليه(القداس الاسود) ارضاءا للشيطان واستهزاءاً بالدين. ونشأت جمعية غريبة أطلق عليها جمعية الشياطين(flagellant) وكان من طقوسها ان يخرج اعضائها اثنين اثنين يجلدون بعضهم بالسلاسل والسياط)[(1)].

الا ان تلك الاثار السلبية لم تكن الاثار الوحيدة بل يشير المؤرخون الى آثار ايجابية لهذا الوباء تمثلت بكونه كان سببا في تحرير اعداد كبيرة من الفلاحين الذي كانوا يعملون كأقنان والذين قدر لهم تجنب المرض والبقاء على قيد الحياة ، فقد حصل نقص هائل بالايدي العاملة لدى

((١)) نقلا عن: روبرت بالمر، تاريخ العالم الحديث، ج١، ترجمة محمود حسين الامين، الموصل، ١٩٦٤، ص٩٠.

الاقطاعين وملاك الاراضي ونتيجة للحاجة لتلك الايدي العاملة فلم يكن يُسئل الفلاح عن مكان عمله السابق ومن أي مقاطعة وهل هو من الاحرار ام من الاقنان ، كما ساعد نقص العمالة في زيادة كبيرة في اجور العمل التي اخذت بالارتفاع بشكل كبير الامر الذي كان سببا في تنبه الفلاحين والايدي العاملة الاخرى لحقوقهم التي كانت مسلوبة منهم في الماضي مما جعلهم يتمسكون بها ولن يتنازلوا عنها في المراحل اللاحقة.

وهنا لابد ان نعرض للواقع الاجتماعي للفلاحين، اذ كانت هذه الطبقة هي التي تقوم عليها الحياة الاقتصادية في انكلترا وحتى العسكرية(وذلك من خلال الانفاق او من خلال تجنيدهم في الحروب) ، وقد نشأت منها ومن عملها قوة انكلترا وعمرانها وهيبتها . فالاقطاعية قامت على اكتاف الفلاحين الذي عاشوا عبيدا في اراض الاقطاعي والذي كان يتمتع ويلبس ويتعلم ويحارب بالاعتماد على مجهود هؤلاء الفلاحين الذين كانوا قانعين باحوالهم وبجهودهم المسروقة تحت شتى المبررات ومنها المبررات الدينية التي عمقها رجال الدين المنتفعين من الاقطاعي بأقناع الفلاح بان هذا قدرهُ وهو قضاء الله وانه سوف ينال الراحة والسعادة في الحياة الاخرة، وان المالكين والملوك منحم لله السلطة والارض فلا يحق لاحد الاعتراض عليه، لقد كانت عملية تبادل منفعة بين رجال الدين وكبار الملاكين لدعم سلطة بعضهم على العامة. هذا الامر لم يستمر طويلا فقد ساعد وباء الطاعون وحالة الفوضى التي تسبب بها وشحة الايدي العاملة على اجبار الاقطاعيين على ابدال السخرة التي كانت متبعه بنظام الأجرة التي تعطى نقدا ، وهو الامر الذي لم يعرفة الفلاح سابقا. فقد ازداد التعامل بالنقد مما كان له الاثر في تحطيم الاطر الاقتصادية السابقة وتحرير الفلاحين. تلك الحرية التي شعروا بها لم يعد

بمقدور أحد ان يسلبهم أياها لذا عندما حاول كبار الملاكين أعادة الامور الى حالها السابقة او تقليل الاجور في مراحل انحسار الوباء انتفض الفلاحون الغاضبون واستولوا على مدينة لندن وذلك في عهد الملك ريتشارد الثاني والذي حكم بين (١٣٧٧- ١٣٩٩) الا ان الملك(بالرغم من صغر سنة) تمكن من اقناعهم بالهدوء ووعدهم بتلبية كل مطاليبهم لاسيما انهاء السخرة واصدر القوانين التي تنضم تحرير الرقيق.

الا ان ريتشارد الثاني لم يستطيع ان يبقي بالتزاماته وذلك للنفوذ الذي كان يتمتع به البارونات ورجال الدين وقد تصاعد ذلك النفوذ وتجسد بشكل واضح في عهد هذا الملك، فقد مزق البارونات كل الوعود والقوانين التي اصدرها الملك لتأمين حقوق الفلاحين ،وعملوا على اجراء محاكمات لزعماء الفلاحين الذين تمردوا في لندن واعدم احدهم والمدعو(وان تايلر). حتى ان ريتشارد الثاني نفسه تم خلعه من الحكم من قبل البارونات الذين احكموا استحواذهم على ادارة الدولة عام ١٣٩٩.

ك. بداية حرب المائة عام:

خلال هذا لقرن(الرابع عشر) بدات ما اطلق عليها حرب المائة عام والتي يقسمها المؤرخون الى مرحلتين بدات الاولى في عهد ادورد الثالث الذي حكم بين (١٣٢١_١٣٧٧م) وريتشارد الثاني (١٣٧٧_١٣٩٦م) والذي سبق وان تم التطرق اليهم.

ان علاقة انكلترا بفرنسا خلال القرون الثلاثة السابقة اتسمت بعدم الاستقرار والتنافس على السلطة والارض بين ملوك الدولتين الذين دخلوا في حروب ومؤامرات ضد بعضهم على الرغم من العوامل المشتركة بين الدولتين واهمها حالات المصاهرة والنسب بين ملوك الدولتين، فضلا عن ان اصل ملوك انكلترا هم من النورمان ويعود الى جدهم الاكبر وليم الفاتح دوق النورماندي والذي كان يعد تابعا لملك فرنسا ، وهكذا كان اولاده من بعده اذ كان هؤلاء الملوك يدينون بالولاء لملك فرنسا. الا ان احداثا كبيرة وصراع على الاراضي واطماع الاستيلاء على العرش الانكليزي من قبل الملوك الفرنسيين وبالعكس بالنسبة للملوك الانكليز ساهمت في اشعال حروب عديدة وفي تدخل فرنسي مستمر في الشؤون الانكليزية كما اوضحا في النقاط السابقة.

وعند وصول ادوارد الثالث الى السلطة(١٣٢٧) ومن ثم انتهاء عهد الوصاية عليه وبداية حكمه بشكل مباشر عام ١٣٣٠ حتى عام ١٣٧٧ عمل على الانتقام لمقتل والده من قتلته وابرزهم اخواله ملوك فرنسا الذين تامروا على خلع والده وقتله بمساعدة عدد من المتعاونين معهم من البارونات وغيرهم.

لذا بعد ان تمكن من بسط سلطته في الداخل الانكليزي وجه اهتمامه لشن حرب على فرنسا مدعيا حقه بعرشها ، الامر الذي بدات معها حرب طويلة بين الدولتين كانت ساحتها فرنسا ولكن تاثيراتها طالت الاراضي الانكليزية من الناحية الاقتصادية والمالية.

بدات الحرب في صيف عام ١٣٤٠ عندما انتصر ادوارد الثالث في معركة بحرية على السواحل الفرنسية في ميناء(سلوى Sluys) ساهمت في فرض السيادة الانكليزية على بحر المانش، فقد كانت اهمية هذه المعركة تتركز في تأمين المواصلات والامدادات بين ضفتي البحر. لقد تمكنت الجيوش الانكليزية من تحقيق انتصارات عدة وان لم تؤدي هذه الانتصارات الى هزيمة فرنسا بشكل حاسم الا انها اوضحت وبشكل جلي التفوق العسكري الانكليزي لاسيما فيما يتصل بالتنظيمات العسكرية التي عمادها الرماة (حاملي الاقواس الطويلة) وهم من ابناء الفلاحين وابناء المدن بملابسهم البسيطة في مواجهة الفرنسيين التي تحكمهم التقاليد الفرنسية الاقطاعية في الحروب، اذ كان الخيالة بملابسهم التقليدية الثقيلة(ذوي الدروع الحديدية المرصعة بالزرد المانع للطعن) واساليبهم القديمة في القتال والتي مثلت انعكاساً لحالة المجتمعين، فالمجتمع الفرنسي الاقطاعي المتمسك بالاساليب التقليدية للفروسية المعروفة طبقياً ، امام مجتمع انكليزي مستند على التطور وعدم الاصرار على الاطر القديمة في القتال واشراك اكبر قدر ممكن من ابناء الفلاحين والطبقات الدنيا في القتال.

استمرت المعارك على الاراضي الفرنسية خلال عهد ريتشارد الثاني، الا انه اعقب هذه المرحلة نوع من الهدوء النسبي (اذ صحت العبارة) في القتال

حتى عهد هنري الخامس المتوفي عام ١٤٢٢ عندما توقفت هذه الحرب كما سيمر بنا لاحقا.

لابد ان نجيب على تساؤل: كيف انعكست المرحلة الاولى من حرب المائة عام على الواقع الاقتصادي والاجتماعي في انكلترا؟

ان الحرب مع فرنسا كان لها انعكاسات داخلية مهمة من ابرزها اضطرار السلطة في انكلترا ادامة هذه الحرب من خلال جمع الاموال اللازمة لها، وكان مصدر هذه الاموال الضرائب التي تفرض على ملاكي الارض وتجار المدن، ولكن هناك مصدر اخر هو تنظيم التجارة الداخلية والخارجية وكانت أهم تجارة مربحة في تلك المرحلة هي تجارة الصوف، اذ يتمتع الصوف الانكليزي بنوعية جيدة لها سمعتها وسوقها الداخلي والاوربي وذلك لاستخدامها في صناعة الاقمشة الصوفية، فقد اعتمدت تلك الصناعة على الصوف الانكليزي في دول اوربية عديدة منها فلورنسا في ايطاليا والمنطقة الاسكندنافية وغيرها.

لقد انتبه الملك الى اهمية هذه التجارة لتوظيفها في استحصال الموارد اللازمة لادامة الحرب، فقد عمل الملك على تنظيم هذه التجارة من خلال احتكار تجارة الصوف ومنع الاجانب من عملية جمع الصوف وتصديره وفرضت على تصدير الصوف الخام رسوما كمركية عالية جدا تقع على كاهل التجار الاجانب المستفيدين من هذا المنتوج.

ان فائدة هذه السياسة كانت على مستويين الاول تأمين الاموال اللازمة للمجهود الحربي، والفائدة الثانية تمثلت بتأثير ارتفاع الرسوم الكمركية على نمو صناعة النسيج داخل انكلترا وبدأت انكلترا خلال عقود القرن الرابع عشر تصبح من اهم الدول الاوربية في صناعة النسيج والاقمشة الصوفية وتصديرها عن طريق السفن الانكليزية.

لقد ارتبطت تجارة الصوف بالتاريخ الانكليزي ارتباطا وثيقا كون ان تصنيعه وتصديره كان من الموارد الاساسية للدولة ولكبار البارونات ، وقد عمد الفلاحون وحتى صغار رجال الدين على تربية الاغنام في أراضيهم الصغيرة للاستفادة من اصوافها التي تدر ارباحاً كبيرة.

لابد الى الاشارة هنا الى ان عهد ادورد الثالث شهد دخول مصطلحات جديدة في الالقاب الاجتماعية التي تميز الطبقة العليا، اذ كانت الالقاب تقتصر على (الايرل) او(البارون)، الا ان ادورد الثالث حاول التشبيه بالواقع الاجتماعي والسياسي الفرنسي عندما اضاف لقب(الدوق) و (الماركيز) وهي من الالقاب الفرنسية الى جانب الالقاب الاخرى.

فكان الترتيب يبدا بالدوق –الماركيز- الايرل- البارون ويورث اللقب الى الابن الذكر الاكبر، وقد اعطى ادورد الثالث هذه الالقاب الى ابناءه واقربائه من العائلة المالكة الا ان الملك ريتشارد الثاني منحها لافراد لم يكونوا من الاسرة المالكة عندما منحها لعدد من كبار النبلاء عام ١٣٩٧م.

م. في العقد الاخير من حكم ريشتارد الثاني ازداد الصراع بين البارونات والملك، ففي عام ١٣٨٨ عقد البارونات ما اطلق عليه تاريخيا(البرلمان الجائر) والذي عمل على محاربة الملك شخصيا من خلال اصدار احكام قاسية على كل من يوالي الملك من المقربين له، اذ حكم بالاعدام على رئيس الاستقافة (يورك وتريزليان) وكذلك على معلم الملك(سايمون بورلي) واخرون من خاصة الملك . الا ان ريتشارد الثاني سرعان ما استعاد قوته عام ١٣٨٩ عندما انتهت فترة الوصاية عليه واتخذ مجموعة من الاجراءات التي ظهرت وكانها انتقام لما فعله البارونات من خلال الاحكام الجائزة التي اصدروها في البرلمان وعمل

على اعادة سياسة الحكم المطلق الى الملك بالغاء صلاحيات البرلمان .
لقد صرح الملك ريتشارد الثاني بان اعضاء البرلمان هم اتباع للملك ولا يحق التصريح او فعل أي شيء فيه مساس لسلطات الملك أو هيبته بل انه اصدر حكماً بالاعدام على احد اعضاء البرلمان الذي انتقد الملك وحاشيته. واصدر عام ١٣٩٨م قراراً يعتبر أي فعل ضد سلطة الملك يمثل خيانة يستحق المتهم بها الاعدام ، حتى انه عطل البرلمان وشكل مجلسا قوامه(١٢شخصا) ليقوم باعمال البرلمان وبذلك عمل على أعادة الحكم المطلق للملك في ادارة البلاد.

كان الجميع في انكلترا(لاسيما البارونات) يعملون على انتهاز أي فرصة للتخلص من هذا الملك وما يعتبرونه استبداداً ، وقد جاءت هذه الفرصة عندما ذهب في زيارة الى ايرلندا عام ١٣٩٩م تاركا السلطة لعمه(ادموند) دوق منطقة يورك، ومعروف عن هذا الشخص انه غير كفوء وضعيف الارادة والعزيمة . فعمل البارونات بتحشيد كل المعارضين والمنتفعين تحت قيادة دوق لانكستر واجبار الملك للوقوف الى جانبهم بهدف السيطرة على السلطة في انكلترا .وقد وقع ريشتارد في الاسر في ايلول عام ١٣٩٩م وهناك رواية تتحدث عن الاكتفاء بحبسه حتى وفاته فقط واخرى تتحدث عن اعدامه. وصف عدد من المؤرخين هذه الاحداث بانها ثورة ضد استبداد ريتشارد الثاني على الرغم من انه قد دعم مطالب الفلاحين فن ثورتهم في لندن لذا يرى الباحث انها لاتمثل ثورة ضد الملك وانما تآمر قادة البارونات لاسقاط الملك والاستيلاء على السلطة ضماناً لمصالحهم.

ن. جاء خلع ريشتارد الثاني عام ١٣٩٩م ليثير مشكلة وهي في من يتولى عرش انكلترا لاسيما ان ريشتارد ليس له وريث للعرش وان قائد الانقلاب

على الملك هو هنري بن جون الابن الثالث للملك ادورد الثالث(المتوفي عام ١٣٧٧م) لذا فقد عمل هنري هذا من خلال الترغيب والترهيب للوصول الى العرش.

اجتمع البرلمان في تشرين الاول عام ١٣٩٩م واقر تتويج هنري دوق لانكستر ملكا على بريطانيا باسم هنري الرابع وقد حكم هذا للفترة من(١٣٩٩- ١٤١٣).

الا أن موضوع العرش بقي غير مستقر بسبب المعارضين والطامعين ومؤامراتهم حتى من اقرب الناس للملك هنري الرابع وهو ابنه وولي عهده.

تعاقب على حكم انكلترا من اسرة هنري الرابع هنري الخامس(١٤١٣- ١٤٢٢) وهنري السادس (١٤٢٢- ١٤٥٣) وتميزت هذه المرحلة بتمكن البرلمان من الاستقرار في توسيع صلاحياته وذلك نتيجة لحاجة هؤلاء الملوك للبرلمان في مواجهة الاعداء والطامعين في السلطة فضلا عن تجدد حرب المائة عام مع فرنسا في عهد هنري الخامس الذي ارسل مزيدا من الجيوش عام ١٤١٥م بهدف أكمال غزو فرنسا. وقد حقق انتصاراً في معركة(اجنكورت) وفرض عليهم معاهدة صلح. عند وفاة هنري الخامس وهو في سن(٣٥) عاما توج ابنه هنري السادس وهو ابن التسعة اشهر فقط ووضعه تحت الوصاية كان ذلك سببا في حصول اضطرابات داخلية وتراجع وضعف في سلطة الملك وانتشار للفوضى في المدن والمقاطعات الانكليزية. حتى الجيوش الانكليزية في فرنسا منيت بعدد من الهزائم لاسيما بعد تصاعد المشاعر القومية في فرنسا، اذ تمكن الفرنسيون من التخلص من الاحتلال الانكليزي عندما تمكن الزعيم الفرنسي(جان دارك) من قيادة شعبه للانتصار واجبار الانكليز على الرحيل الى بلادهم.

في عام ١٤٣٧ بلغ هنري السادس السن القانونية الا انه وصف بكونه(ضعيف ومتردد يعوزة الكثير من صفات الملك القوي) حتى انه اشيع باصابته عام ١٤٥٣ (بلوثة عقلية) مما اضطر البرلمان لأنتداب دوق يورك المدعو ريتشارد ليكون وصيا على الملك وهو الامر الذي سيكون سببا لاندلاع حرب داخلية اطلق عليها(حرب الوردتين).

الفصل السابع

حرب الوردتين ونتائجها

ان اعتلال صحة الملك هنري السادس العقلية عام ١٤٥٣م ومن ثم عودتها فجاة تدخل كما يرى الباحث، ضمن المؤآمرت الواسعة التي شهدتها تلك الفترة للسيطرة على عرش انكلترا. فقد حاول الوصي على العرش (ريتشارد) الاستيلاء على السلطة وتنصيب نفسه ملكا على انكلترا ، الا ان زوجة الملك هنري السادس وتدعى (مرغريت) كانت امراة ذكية وطموحة.وعملت على استعادة السلطة لزوجها لاسيما بعد ولادتها لطفل ذكر، أذ استطاعت من خلاله ابعاد الوصي وحاشيته عن القصر الملكي واعلان ابنها وليا للعهد. ان هذه التحولات تدخل ضمن حمى التنافس على العرش وادت الى قيام حرب حول من هو احق بالعرش الانكليزي مما يؤكد ان وصاية ريتشارد كان لها اهداف سعى اليها الوصي وفق خطط أعدها مسبقاً.

هذه الحرب سميت حرب الوردتين بين عائلة ريتشارد (الوصي المعزول) وهو من عائلة يورك وكان شعارها الوردة الحمراء، وعائلة لانكستر التي ينتمي اليها الملك هنري السادس وكان شعارها الوردة البيضاء، لهذا اطلق عليها حرب الوردتين.

تميزت هذه الحرب بالقسوة البالغة بين البارونات والطامعين بالعرش ومن يؤيدهم وكان ابناء الشعب الانكليزي يعانون من هذه الحرب من الناحية الاقتصادية وكذلك من ناحية كونهم مادة هذه الحرب ووسيلتها

وكان من بين اهم نتائج هذه الحرب قتل العديد من البارونات الذين قل عددهم وتناقص نفوذهم.

يقسم المؤرخون هذه الحرب الى مراحل عدة تبدا المرحلة الاولى مع بداية اعتلال صحة الملك، وانتداب وصيا عليه عام ١٤٥٣م وقد بدا الوصي خلال هذه المرحلة يخطط للاستيلاء على السلطة بعد ان أخذ من الملك عهدا بان يكون وليا للعهد، الا ان زوجة هنري السادس والبارونات الذين التفوا حولها عملوا على منع الوصي (ريتشارد) من تحقيق غاياته لاسيما بعد ولادة ابن الملك هنري السادس، الامر الذي اجج الصراع الذي ادى الى مقتل الوصي ريتشارد عام ١٤٦٠م.

اما المرحلة الثانية فكانت مع اعلان ابن ريتشارد المدعو ادورد نفسه ملكا على انكلترا باسم ادورد الرابع خلفاً لوالده وذلك عام ١٤٦٠م لاسيما بعد تحقيقه مجموعة من الانتصارات في معارك عدة ضد عائلة لانكستر، واستمر في سلطته القلقه وغير المستقرة حتى عام ١٤٨٤ عندما توفي بشكل مفاجئ الامر الذي اعاد الصراع مرة اخرى الى التصاعد.

المرحلة الثالثة لهذا الصراع يبدا مع تولي ادورد الخامس العرش خلفا لابيه، وكان عمره ١٢ عاما، واعلن عمه المدعو(ريتشارد) الوصاية عليه وعلى اخيه الا انه سرعانما اعلن انهما ابنان غير شرعيان لادورد الرابع وانه احق بالعرش الانكليزي لذا اعلن نفسه ملكا باسم (ريتشارد الثالث). وبعد ان استقرت الامور للاخير أعلن مقتل أدورد الخامس وأخيه عام ١٤٨٥م مما جعل الاتهامات تشير الى ريتشارد الثالث نفسه واستمر تأجج الصراع بين الاسرتين نتيجه لكل التطورات.

جرت معارك عدة خلال هذه الحرب اهمها المعركة الحاسمة (معركة بوسورث) والتي قاد فيها زعيم عائلة لانكسر المدعو (هنري تيودور) تلك

العائلة الى انتصار حاسم وهزيمة ريتشارد الثالث وقتله، وكان من اهم نتائج هذه المعركة تنصيب هنري تيودور على عرش انكلترا بأسم هنري السابع وبوصل هذا الملك الى السلطة تنتهي عمليا حرب الوردتين عام ١٤٨٥ ليبدا عصر جديد في تاريخ انكلترا.

ويمكن ان تشير هنا الى ضعف دور البرلمان خلال مراحل الحرب المذكورة فلم يدعى الى الاجتماع الا نادرا الا انه حافظ على تقاليده خلال المراحل اللاحقة.

الفصل الثامن

ترسيخ الدولة القومية وتنامي قوتها

ان انتهاء حرب الوردتين وتسلم هنري السابع عرش انكلترا عام ١٤٨٥م كانت بداية لانطلاقة جديدة في تاريخ انكلترا بشكل عام ولاسيما البناء السياسي والاجتماعي والاقتصادي والعسكري. فقد اتجه هنري السابع الى ترسيخ سلطته داخل الدولة على صعيد تاثيره على البرلمان وكذلك على صعيد توسيع سيطرته على اقاليم الدولة. وأهم ما قام به هو الحد من سلطات النبلاء مستغلا ضعف دروهم وتناقص اعدادهم وقلة تاثيرهم على المجتمع كما كان سابقا وذلك كأحد أهم نتائج حرب الوردتين التي اثرت بشكل عميق على طبقة النبلاء، وعمل على اشراك اوسع شريحة من المجتمع الانكليزي في ادارة الدولة على جميع الصعد،فقام بتعيين عدد من اصحاب الخبرة والكفاءة من ابناء الطبقة الوسطى الناشئة في الوظائف المهمة في البلاط الملكي او المؤسسات الاخرى. واعتمد على الفلاحين أذ دعم قدراتهم الاقتصادية وأعتمد عليهم في حفظ الامن والنظام وادارة الشؤون المحلية في مناطقهم، مما كان له دلالة واضحة على ضعف دور الاقطاعيين نتيجة لعوامل عدة اخرى كان من بينها انشار الطاعون والحروب الداخلية التي زادت من مركزية الدولة واضعفت سلطة الاقطاعين الامر الذي ساعد على نمو الطبقة الوسطى من صغار الاقطاعين.

كما اهتم هنري السابع بالتجارة أذ جاء ذلك متماشيا مع ما شهدته اوربا بما اطلق عليه بالثورة التجارية [1] وكذلك مع ضعف الاقطاع والذي جاء كنتيجة طبيعة للتطورات السياسية والفكرية التي سادت في اوربا لاسيما بعد انتشار الطاعون وما نتج عنه من اثار اجتماعية كبيرة، فضلا عن الحروب الاهلية (كحرب الوردتين) وازياد مركزية الدولة مع ضعف سلطة الاقطاعيين على الاشخاص الامر الذي ساعد على نمو الطبقة الوسطى من صغار التجار والمتعلمين والموظفين والتي بدات تعمل في الزراعة والصناعة والتجارة خارج سلطة الاقطاعي [2].

---

(١) يطلق المؤرخون مصطلح الثورة التجارية على مرحلة التغيرات الجذرية التي طرات على التجارة في اوربا منذ منتصف القرن الخامس عشر، اذ كان الاقتصاد الريفي هو السائد في العصور الوسطى والذي بني على الاكتفاء الذاتي وكانت التجارة غير معروفة بمفهومها الواسع الا في بعض المدن الساحلية. بعد التطورات التي شهدتها اوربا بانحسار الاقطاع ونمو المدن ظهر ما اطلق عليه تقسيم العمل فكان الريف ينتج والمدن تصنع ،وفي المدن اصبح =التخصص اكثر في العمل كالنساجون والحدادون وصناع الجلود وغيرها.وظهرت النقابات لكل مهنة لادارة فعاليتها الاقتصادية وتوفير الايدي العاملة. بحلول النصف الثاني من القرن الخامس عشر اصبح الجميع من عمال ونقابات خاضعين لاصحاب رؤس الاموال من الاثرياء المتنفذين الذين نظموا شركات تجارية كبرى وسّعت من نشاطتها من المدينة الى مختلف المدن ومن ثم الى باقي الدول والقارات مما ادى الى ازدهار التجارة بشكل منظم مستفيدين من حركة الاستكشافات الجغرافية التي فتحت لهم طرقا جديدة للتجارة.

(٢) لقد كان اهم اسباب انحلال النظام اقطاعي انهيار الاسس التي قام عليها ومن بينها الاساس الديني الذي كان يبرر للاقطاعي سلطاته، اذ انتشرت في اوربا افكار الاصلاح الديني التي اسهمت في ضعف المؤسسات الدينية وتاثيرها فضلا عن ذلك تخلي الملوك عن الجيوش التي كان يوفرها الاقطاعي من التابعين له وذلك بتشكيل جيوش تابعة للملك مباشرة .وجاءت الثورات التي قام بها الفلاحون للحصول على حقوقهم والتي جوبهت بالعنف الكبير من قبل الاقطاعيين لتعطي التبريرات الاخلاقية لحرية الفلاحين، كما تم تجريد الاقطاعيين من السلطة القضائية التي اصبحت تدريجيا ضمن سلطة الملك والدولة كل هذا مع تطورات اخرى اسهمت في ضعف الاقطاع ومن ثم انحلاله وتفككه بشكل تدريجي ونهائي.

ان اهتمام هنري السابع بموضوع التجارة مع الموانئ الاوربية الاخرى كان مدعاة لاهتمامه بالنقل البحري، اذ تم الانتباه الى اهمية موقع انكلترا كدولة بحرية من جميع الاتجاهات، وهو ما يميزها عن جميع الدول الاوربية الاخرى. لذا بدا الملك برعاية الابحاث والمستلزمات الخاصة بالرحلات البحرية وانتدب احد البحارة الايطاليون المدعو(حنا كابوت ويسمى ايضا جون كابوت) ودعمه في جميع النواحي المادية وغيرها. كانت الاخبار والروايات ترد حول وجود اراضي وجزر غنية عبر المحيط الاطلسي فقرر كابوت وبدعم من الملك تنظيم رحلة لاكتشافها(وذلك قبل رحلة كولومبس الشهيرة لاكتشاف القارة الامريكية) وانطلق في رحلته من ميناء بربستول بسفن انكليزية ووصل الى القارة الامريكية الشمالية، الا انه لم يتمكن من العودة وذلك لتعرض سفينته لغرض ومن فيها من رجال وهو ضمنهم. كان ذلك وامور اخرى سببا في عدم استمرار انكلترا في عملية الاستكشافات الجغرافية خلال هذه المرحلة الامر الذي سمح للبرتغال ومن ثم اسبانيا للولوج في هذا المجال بشكل كبير، ومن ثم تسيد البحار بشكل كامل من القارة الامريكية مرورا بافريقيا وحتى سواحل الهند الا ان هذا التسيد لم يستمر طويلا.

ان ما ميز عصر هنري السابع في انكلترا ايضا وجود حالة الاستقرار والانجسام الاجتماعي بشكل كبير وذلك نتيجة لسياسته في احداث حالة من التوافق مع البرلمان لاسيما اعضائه من ابناء الطبقات غير التقليدية. فضلا عن انه عمل على انهاء اثار حرب الوردتين الدموية وذلك من خلال زواجه من اليزابيث ابنة ادورد الرابع فوحد بذلك الزواج اسرتي يورك واستيورت واسس اسرة سميت اسرة تيودور.

لقد ساعدت سياسة هنري على حماية أنكلترا من تداعيات ومخاطر حالة عدم الاستقرار التي سادت اوربا في تلك المرحلة بعد ظهور بوادر ما اطلق عليه (بحركة الاصلاح الديني)[(1)].

كانت من ميزات حكمه ايضا محاولته ترسيخ السلطة المركزية في جميع انحاء الجزيرة البريطانية وايرلندا ،فقد قام بتزويج ابنته من ملك اسكتلندا ،وارسل مبعوثين وممثلين له الى ايرلندا لترسيخ سلطته هناك. لقد ساعدت سياسة ترسيخ سلطة الملك، التي بدت عادلة لدى رعاياه، على مركزية الدولة وقوتها والتي ساهمت بدورها باشاعة الاستقرار. كما نشطت في عهده الحركة العلمية ومن ابرز بوادرها اكتشاف العالِم نيوتن لقانون الجاذبية كما تم اختراع التلسكوب والميكروسكوب.

لقد بدا عصر هنري السابع وكانه اطلالة جديدة على افكار وسياسات متجددة وتصورات غير مألوفة لدى الشعب الانكليزي من مختلف الطبقات لاسيما بعد ان تم تنشيط التجارة مع دول اوربا والتي ادت

((١)) حركة الاصلاح الديني: اصبحت الكنيسة خلال فترة القرون الوسطى(٤٧٦-١٥٠٠) سيدة اوربا بشكل كامل من جميع النواحي السياسية والاقتصادية وغيرها الا ان سياسية الكنيسة في روما وتوابعها في اورابا ساهمت في ضعف هيبتها لاسيما بعد الانقسام البابوي والاسر البابوي المنوه عنه فضلا عن تحول رجال الدين الى داعمين لظلم الطبقات العليا في مواجهة الناس البسطاء والذي ادى الى ان يعيش هؤلاء الرجال بحالة من الترف والابهة والبذخ فضلا عن فرض الضرائب وانتشار الرشوة وكذلك بدعة (صكوك الغفران) التي كانت يتبعها للناس مقابل التكفير عن ذنوبهم مما اوجد تجارة غير اخلاقية بين رجال الكنيسة كما ان ضعف نظام الاقطاع ونمو الافكار الداعية الى الاصلاح والاهتمام بالانسان باعتباره الغاية الاساسية للدين والتي بداها ويكيلف في انكلترا واستمرت في باقي اوربا. الا ان الحركة اخذت ابعاد اقوى واجرى مع ظهور الالماني مارتن لوثر الذي تمرد على الكنيسة ومزق تعاليمها واعلن العصيان عليها ولم تنفع محاولة الكنيسة منعه او حتى قتله فاستمر في ترجمة الكتاب المقدس الى اللغة الالمانية البسيطة الامر الذي ساعد على انتشار افكاره بشكل كبير والتي تقوم على ان ايمان الانسان بالله هو الاساس وليس الاخلاص للكنيسة وان التوبة والغفران والعبادة مسالة شخصيته يمكن ان يقوم بها الانسان مباشرة مع الله دون العودة الى الكنيسة لقد شكلت افكار لوثر ومن بعده كالفن وغيرهم ظاهرة مهمة في تاريخ اوربا لانها افرزت حالة من الاختلاف الفكري فضلا عن الحروب والحركات المتناقضة الا ان اهم نتائجها بروز الدولة القومية المدنية الحديثة.

الى اطلاعهم على احوال العالم الذي بدا اوسع مما كانوا يتحيلونة لاسيما ما يتعلق بالفكر الديني والانساني بشكل عام حتى عدد من المؤرخون عدوا عصر هنري السابع بداية لتاريخ بريطانيا الحديث.

عند وفاة هنري السابع عام ١٥٠٩ واستلام ابنة هنري الثامن العرش الانكليزي دخلت انكلترا منعطفا أخر جديد ومميز في تاريخها وتاريخ اوربا بشكل عام تمثل بتاثرها بافكار الاصلاح الديني التي سادت اوربا خلال هذه المرحلة.

كانت انكلترا قبل هذه المرحلة وفي بدايتها دولة كاثوليكية بأمتياز تابعه بشكل كامل لسلطة الكنيسة في روما ،ولم يسمح لهنري السابع او لابنه هنري الثامن بدخول افكار الاصلاح الديني الى انكلترا، حتى ان الدعوات التي اطلقت في اوربا حول حرية الدين والعقيدة عدت في انكلترا بدعة يستحق من يدعو اليها العقوبة التي تصل الى الحرق والتي نفذت بعدد كبير من الاشخاص المتهمين بها ويبرز هنا دور وزير هنري الثامن الكاردينال توماس وولزي (١٤٧٥- ١٥٣١) الذي اصبح بفضل نشاطه ومهارته وطموحاته ان يكسب ثقة هنري الثامن ويصبح موجها لسياسة انكلترا الداخلية والخارجية. وكانت من ابرز ما قام به هذا الوزير هو تقوية سلطة الملك بوجه النبلاء فضلا عن تقوية العلاقة مع الكنيسة في روما ومنع انتشار افكار الاصلاح الديني في انكلترا. وعمل وولزي على محاكمة الاشخاص من مختلف الطبقات حتى من الطبقات العليا اذ ما وجد خروجهم عن هذا النهج في سلطة الملك او الكنيسة[(١)].

((١)) كان وولزي يجري محاكماته في قاعة عرفت بقاعة النجمة (The star chamber) (كون سقفها مزين بالنجوم وهي محكمة انكليزية يعين الملك قضاتها وتتبع وسائل التعذيب لنتزاع الاعترافات وتصدر احكاما صارمة لذا فقد اتهمت هذه المحكمة بانها اداة للاستبداد والعنف.وانشات اول مرة في عهد هنري السابع لمساعدة الناس لادلاء بشهادتهم وقضاياهم بدون خوف الا انها انحرفت في مهماتها في عهد الوزير وولزي.

ولقوة وقوف هنري الثامن مع الكنيسة وبابا روما فقد كانت علاقاته جيدة معها حتى ان البابا لقب هنري الثامن (حامي حمى الدين) (واصبح هذا اللقب يسك على العملة الانكليزية) حتى ان هنري الف كتابا رد فيه على افكار مارتن لوثر وانصاره ضد الكاثوليكية سماها (دفاع عن الاسرار السبعة المقدسة).

الا انه وبشكل مفاجئ، يفسر تأثر هنري الثامن بنزواته وانفعالاته وغرورة وقوتة وسلطته النافذة في انكلترا على جميع الطبقات،يغير توجهاته ويقرر الخروج عن سلطة الكنيسة في روما وتأسيس الكنيسة القومية الانكليزية والتي جمع الملك فيها السلطتين الدينية والمدنية.

تبدا فكرة الخروج عن الكنيسة الكاثوليكية في روما من رغبة الملك هنري الثامن بتطليق زوجته(كاترين) والزواج بأمرة اخرى تحت مبرر رغبة الملك بانجاب مولد (ذكر) يرث العرش من بعده، وكاترين هذه هي ابنة اخت ملك اسبانيا شارل الخامس وقد انجبت له ابنه هي ماري والتي سيكون لها شان فيما بعد.

كما انها اي(كاترين)كانت سابقا زوجة اخ هنري الثامن المدعو(آرثر) والذي كان وليا للعهد في فترة حكم والدهما هنري السابع ولما توفي آرثر طلب والده من هنري الثامن الزواج من ارملة أخيه كشرط لانتقال ولاية العهد اليه وذلك رغبة من هنري السابع في ابقاء العلاقات الطيبة مع اسبانيا.عند تولي هنري الثامن السلطة عمل عدد من الحاشية الذين حولة باقناعة(لاسباب سياسية) بان هذا الزواج باطل، تناغم هذا الراي مع رغبة هنري نفسه بالزواج من أمراة ثانية فطلب من البابا فسخ عقد الزواج والح في طلبه هذا مرات عدة الا ان البابا ونتيجة لخضوعه لملك اسبانيا لم يعطي موافقه على الطلاق.

يوصف هنري الثامن بانه(رجل ذا ارادة قوية نافذة تحددها ضرورات سياسية وميول شخصية) لذا ولرغبته بالزواج من أمرأة انكليزية أغرم بها كثيرا فقد اتخذ قرارا مصيريا بالتعاون مع البرلمان بالخروج عن سلطة الكنيسة والبابا في روما مستندا الى عوامل عدة في اتخاذ هذا القرار وتنفيذه:

العامل الاول تاريخي: اذ شهد تاريخ العلاقة بين انكلترا والبابا في روما فترات عصيبة اهين خلالها الملك والبرلمان الانكليزي واجبر على اتخاذ قرارات عدة لارضاء البابا مما عمق في نفوس الانكليز الكراهية لسلطة البابا والكنيسة.

العامل الثاني فكري: وهو تاثرا الشعب الانكليزي بالافكار الجديدة التي سادت اوربا في هذه المرحلة والتي احتوت على نقد لاذع للكنيسة وسياسيتها والحاجة لاصلاحها وبالرغم من محاولة الوزير الانكليزي(وولزي) في اتخاذ كل الاجراءات لمنع وصول هذه الافكار الى انكلترا الا ان إجراءاته تلك باءت بالفشل وكانت الموانئ الانكليزية البوابة لتلك الافكار وانتشارها الى باقي اجزاء البلاد.لاسيما بعد سقوط وزارته. وقد انتهى المطاف بالوزير وولزي الى الوفاة في السجن.

العامل الثالث قومي: اذ تصاعدت المشاعر القومية في انكلترا لاسيما في عهد هنري السابع وبداية حكم ابنه هنري الثامن، اذ ساهم ذلك في تعزيز الوحدة القومية لانكلترا وشعور الشعب الانكليزي بوحدته واستقلاله وتعمق شعوره بالحرية مع نمو الطبقة الوسطى المشبعة بالروح

القومية الاستقلالية على جميع الصعد، فضلا عن موقع انكلترا الجغرافي المحاط بالبحار الذي اعطى لانكلترا خصوصية عمقت حالة الشعور بالوحدة القومية التي ترفض الخنوع والوصاية او الخضوع لاي سلطة خارجية.

العامل الرابع اقتصادي: لقد كانت الكنيسة تسيطر على اراضي زراعية واسعة وتفرض الضرائب على اتباعها، فضلا عن ما تمتلكه من اموال منقوله وغير منقوله جعلت رجال الدين يعيشون حالة من الترف والبذخ على حساب ابناء الشعب الذين يكدحون من اجل العيش. هذا الامر ساهم في نفور الناس من الكنيسة وسياستها وساعد هنري الثامنعلى اتخاذ قراره بالانفصال عن الكنيسة، لاسيما انه صادر كل املاك الكنيسة التي مثلت ثروة طائلة، فقد استولى على جميع الاراضي الزراعية التي كانت تمثل خمس الاراضي الزراعية في البلاد فضلا عن كميات كبيرة من مقتنيات الكنيسة من اموال وذهب وعقارات(كنائس واديره)، الامر الذي جعل الحكومة تُنشأ مؤسسة خاصة لحصر هذه الاموال وتبويبها.

وقد حققت هذه الخطوة فائدة اقتصادية كبيرة للدولة وعززت هيبة الملك وقدراته فقد استثمر هنري هذه الاموال في بناء اسطول بحري قوي ينافس الاساطيل الاخرى فضلا عن استثمار الاراضي الزراعية من خلال بيعها الى الفلاحين الذين عملوا على تطويرها وتنمية انتاجها من المواد الزراعية والصوف مما كان له الاثر في زيادة مواردهم.لقد انعكس ذلك كله على الواقع الاقتصادي والاجتماعي لانكلترا بشكل ايجابي مما مثل عاملا داعما لخطوة هنري الثامن في انفصاله عن الكنيسة.

لم يتخذ هنري الثامن خطوته في الانفصال عن الكنيسة الكاثوليكية بشكل مفاجئ او منفرد بل عمل على محاولة اشراك البرلمان في اتخاذ هذا القرار وذلك ليعطي القرار صفة قومية وشرعية. لقد عقد البرلمان الانكليزي بمجلسيه(اللوردات والعموم) جلسات مستمرة طوال اكثر من ست سنوات (١٥٢٩- ١٥٣٥) والذي اطلق عليه(برلمان الاصلاح الديني) واتخذ قراره خلال هذه الجلسات بالغاء سلطة البابا على المسائل الدينية والسياسية في انكلترا الغاءاً تاما ومنحت كل سلطات البابا الى الملك الشرعي لانكلترا الذي اعتبر الرئيس الاعلى للكنيسة الانكليزية، مما جعل كل الشؤون الدينية والكنسية تابعة للسلطة المدنية وتعد جزء من مؤسسات الدولة. واصدر البرلمان ايضا قررات عدة حول مصادرة كل اموال الكنيسة المنقولة وغير المنقولة مما مثل (كما وصف) بثورة اقتصادية في انكلترا لكمية هذه الاموال الهائلة والتي استثمرت في تنشيط الزراعة والتجارة والشؤون العسكرية وغيرها.

لم تمضِ خطوة هنري الثامن هذه دون معارضة، اذ حصلت ثورات عدة ضد سلطة الملك ورفض عدد من اتباع الكنيسة طاعة قرارات الانفصال معتبرين ذلك خروج عن الدين، ومن اهم الثورات ثورة(حج الغفران) عام ١٥٣٦م. وقد استخدم الملك شتى الوسائل لانهاء هذه الثورات لاسيما استخدام القوة .ولم تقتصر المعارضة على الناس العاديين وانما شملت عدد من الشخصيات المهمة والبارزة في المجتمع الانكليزي، حتى ان كثير من الشخصيات والاعيان ورجال دين ذهبوا الى منصة الاعدام لرفضهم اداء القسم (او اليمين) للملك ومن ابرز هؤلاء الفيلسوف ورجل الدين البارز

توماس مور[1] الذي رفض اداء الولاء للملك كونه رئيس للكنيسة بدلا عن البابا الامر الذي ادى الى اعدامه.

كان من ابرز نتائج قرار الانفصال عن الكنيسة طلاق هنري من (كاترين ارغون) وزواجه امراة انكليزية جميلة تدعى(آن بولين) الا ان نزوات الملك ومصالحة الخارجية ادت بعد حين الى ان تسجن(آن) ومن ثم تُعدم بعد ان أنجبت له ابنه تدعى ايلازبيث (وتسمى ايضا الياصبات) والتي سيكون لها شان مهم جدا في تاريخ انكلترا.

وأثيرت الشكوك من ان رغبات الملك الجسدية وليس رغبته بالاصلاح كانت وراء قرار الانفصال عن الكنيسة ، ويؤكد ذلك زواج الملك لاربع نساء بعد اعدام آن قبل ان يتوفى عام ١٥٤٧م ،وقد انجبت احداهن له ذكرا الا انه لم يستمر طويلا في الحياة كما سيمر معنا.

لقد شهد عهد هنري الثامن (غير موضوع الاصلاح الديني) أمور مهمة أخرى في تاريخ انكلترا من اهمها أنضمام ويلز بشكل نهائي الى انكلترا سياسيا وقضائيا، فقد كانت الحروب مستمرة بين سكان ويلز واللوردات الانكليز الحاكمين او الذين يملكون اراضي في هذه المقاطعة الا ان حرب الوردتين اضعفت هؤلاء اللوردات وحدت من سلطاتهم

---

(١) توماس مور(١٤٨٠-١٥٣٥) وهو من طبقة الاغنياء ولد في لندن وكان والده قانونيا كبير واصبح قاضيا ثم واحدا من كبار الموظفين العاملين لدى الملك والذي يتم انتقائهم من افراد الطبقة البرجوازية وتعلم تعليما لاهوتيا على يد الوزير الاول للملك هنري السابع المدعو (مورتون) اصبح قانونيا وانتخب في عضوية البرلمان عن سكان لندن واصبح يعمل في خدمة التاج، اعطي لقب لورد عام ١٥٢٩ ليصبح مستشارا مقربا للملك وتوصف فترة عمله هذه بعدم التوافق مع الملك هنري الثامن اذ قدم استقالته عام ١٥٣٢ رافضاً اداء يمين الولاء للملك كرئيس للكنيسة مما ادى الى أتهامه بالخيانة وحكم عليه بقطع راسه عام ١٥٣٥، يصفة المؤرخون (بانه المرح والمحب والودي المطعم بسخرية حادة) الف كتابة الشهير (يوتيوبيا) عام ١٥١٥م عند عمر(٣٧) عاما حاول من خلاله رسم صورة لمجتمع خيالي متميز تنتهي فيه مظاهر البؤس التي شهدها المجتمع الانكليزي.

الامر الذي سمح للويلزين وحكومتهم المحلية من السيطرة على القلاع والحصون التابعه لهؤلاء اللوردات.

ولان اصول هنري الثامن تعود لاسرة ويلزية جعلت الشعب في ويلز يشعر بالفخر والاعتزاز في ان ملك انكلترا منهم مما ساعد الملك على العمل على انهاء الخلافات وتوحيد ويلز بوحدة سياسية كاملة مع أنكلترا مستفيدا من ولاء وتأتيد سكان ويلز للانضمام بشكل كامل الى أنكلترا وعندها اصبحت خاضعة للقانون والقضاء الانكليزي وان بقيت محافظة على هيويتها الثقافية. كما عمل على تنظيم شؤون ايرلندا وحاول اخضاع اسكتلندا بالقوة الا انه توفي قبل ان يكمل مشروعة هذا.

ان ما ميز حركة الاصلاح الديني في انكلترا انها جاءت بشكل سلمي(تقريبا) ولم تات نتيجة ثورة او حركات شعبية وانما كانت بقرار حكومي قاده الملك وسانده البرلمان وسلم له الشعب مما اعطى ميزة كبيرة الى هذه الحركة في انكلترا عن باقي اجزاء اوربا[(١)].

عند وفاة هنري الثامن عام ١٥٤٧م اصبح ولده الوحيد ملكا باسم(ادورد السادس) وكان هذا الابن له من العمر عشر سنوات ويبدو انه كان معتل صحيا اذ توفى وهو في عمر (١٦) سنة عام ١٥٥٣. لم يكن

((١)) لقد ادى انتشار افكار الاصلاح اليدين لاسيما المذهب البروتستاني الى حالة من الصراعات والحروب الطائفية في مختلف انحاء اوربا، على سبيل المثال اصدر الملك الفرنسي (فرانسو الاول) عام ١٥٣٥ قرارات عدة لاضطهاد الهيكونوت(بروتستانت فرنسا) الذين تعرضوا لاضطهاد وعنف كبير وتابع ابنه من بعده هنري الثاني ١٥٤٧-١٥٥٩ عملية لاضطهاد فقام بحرق وذبح اعداد كبيرة من البروتستانت ومنهم المفكرين والمثقين. وبعد وفاتة اصبحت زوجته وصية على الحكم لكون اولادها قاصرين وكانت هذه المراة وتدعى كاترين مديتشي اقسى ما شهدته فرنسا في تلك المرحلة على البروتسات اذ قادت حملات لاحراق وقتل العديد منهم واشهر هذه المذابح تلك التي جرت عام ١٥٦٠ م عندما هاجم جنودها ملعبا كبيرا في مدينة(فاسي) يصلي فيه الاف المسيحين البروتستانت وقاموا بقتل وذبح كل من فيه مما ادى الى قيام حرب أهلية راح ضحيتها الاف الاشخاص من الفرنسيين من الطرفين وكذلك مذبحة عام ١٥٧٢ التي قدر ضحاياها من الفرنسيين بشعرت الاف قتيل وهذا الامر ينطبق على مدن اخرى في اوربا.

لهذا الملك أي دور يذكر فقد كان خاضعا لحاشيته المتشبعة بالافكار البروتستانتيةة التي أخذت بالأنتشار في انكلترا وعموم اوربا ، واستمرت خلال حكمه عملية مصادرة املاك الكنيسة والاستمرار بنشر افكار الاصلاح الديني بين ابناء الشعب واصدار التعاليم الخاصة بالمذهب البروتستاتني من خلال كتاب (الصلوات العامة Book of commonpayer) والذي اعتبر كتابا دينيا قوميا لانكلترا.

في عام ١٥٥٣ دعى البرلمان ماري ابنة هنري الثامن من زوجته الكاثوليكية(كاترين) لتكون ملكة على انكلترا. كان حكم ماري من أعنف الفترات التي مرت بها انكلترا اذ شهدت اضطهادا دينيا كبيرا وذلك كون ماري كاثوليكية متعصبة متاثرة بما جرى لامها من ظلم بسبب المذهب الديني الجديد كونها طلقت وتوفيت متاثرة بتلك الاحداث فعملت على اعادة الكاثوليكية لانكلترا الامر الذي رفضه الشعب الانكليزي وقاومة ومن ابرز اعمالها:

أ. قامت ماري بالزواج من ملك اسبانيا فيليب الثاني الذي عد رسميا ملكا على انكلترا ايضا مما اثار حفيظة الشعب الانكليزي الذي تشبع بالروح القومية والاستقلال لاسيما ان فيليب هذا قام بمنع دخول السفن التجارية الانكليزية المناطق الاسبانية او البرتغالية او الامريكية وذلك بقرار من البابا وعمل على منع تجارة بريطانيا حتى مع افريقيا والهند الامر الذي جعل الملك وزوجته مكروهين من قبل الانكليز بشكل كبير جدا.

ب. اعلانها رسميا عودة انكلترا الى سلطة البابا الكاثوليكية، وعلى الرغم من عدم اهمية هذا القرار من الناحية العملية كون ان الدولة كانت تدير كل شؤونها الدينية لاسيما بعد مصادرتها املاك الكنيسة فقد ادى ذلك الى حصول مقاومة عنيفه من قبل الشعب،الا ان الملكة

قابلت هذه المقاومة برد فعل عنيف كحملات الاعدام واشهرها اعدام اكثر من(٣٠٠) شخص حرقا بالجملة وعلنا لاتهامهم بالهرطقه والخروج عن الكنسية مما حدث رد فعل كبير من قبل الشعب الذي كره الملكة واطلق عليها لقب (ماري الدموية).

انتهى عهد ماري الدموية بوفاتها عام ١٥٥٨ م وتولت اليزابيث (الياصبات) العرش الانكليزي وهي ابنه الملكة المعدومة (زوجة هنري الثامن الثانية) آن بولين مما مثل اثارة مشوقة في التاريخ الانكليزي ألهمت كتاب القصة والمسرح الكثير من الرويات والاحداث الواقعية والتي تشبة الخيال في دقائقها.

الفصل التاسع

انكلترا قوة بحرية عالمية

تولت السلطة في انكلترا الملكة (اليزابيث الاولى) المولدة عام ١٥٣٣ والتي يطلق عليها في بعض المصادر(الياصبات) وهي ابنة الملك هنري الثامن من زوجتة الثانية آن يولين التي كان بسبب زواجها تحول انكلترا الى دولة بروتستانتية والتي حكم عليها بالاعدام لأتهامها بالخيانهوان ابنتها غير شرعية ، والحقيقة هي ان هنري الثامن كان يتحين المبررات لزواج ثالث ، وتولت اليزابيث الحكم بعد وفاة شقيقتها ماري (الملقبة بالدموية) وذلك عام ١٥٥٨م.

عرفت هذه الملكة بالذكاء والكفاءة الادارية والشخصية الجذابة اذ أستخدمت أنوثتها وجمالها لتحقيق مكاسب سياسية ، فلم تتزوج من شخص معين لذا سميت(بالملكة العذراء)، واستخدمت الاشخاص الذين كانوا طامحين لخطبتها في تحقيق المكاسب ومن ابرز هؤلاء ملك اسبانيا فيليب الثاني الذي كان زوج اختها(ماري)، اذ كان يأمل بالزواج منها والاستمرار بالسيطرة على العرش الأنكليزي من خلالها. واستخدمت معه اسلوب المخادعة لاقناعه بالاستمرار بدعمها لها في وصولها للعرش وتثبيت حكمها. بعدها أظهرت له الجفاء ورفضت الزواج منه بعد ان استمرت علاقتها به لعشر سنوات، لذا فقد عمل الملك الاسباني على تقويض حكمها بكل الوسائل المتاحة ولكن القدر والتفاف الشعب الانكليزي حولها افشل كل مخططات فيليب الثاني.

ويمكن توضيح أهمية عصر اليزابيث من خلال ما ياتي:

أ. القضية الاسكتلندية : اول التحديات التي واجهت اليزابيث أدعاء ماري سيتورت ملكة اسكتلندا بالعرش الانكليزي وذلك بتحريض من الملك الاسباني وبدعم البابا في روما ، وكان مبررها الى ذلك انها حفيدة مركريت اخت هنري الثامن ، وان اليزابيث ابنه غير شرعية لزواج غير شرعي لهنري الثامن بحسب تصنيف البابا له لذا فهي ليس لها الحق في عرش انكلترا. قامت ماري ستيورات بالاستعداد للتحرك بأتجاه لندن عام ١٥٥٨م بهدف خلع اليزابيث بالقوة من العرش وذلك بمساعدة اسبانية فرنسية(تاتي المساعدة الفرنسية من ان ام ماري ستيورت من اصول فرنسية مما اعطى المبرر لفرنسا للدفاع عن حقها المزعوم في العرش على الرغم مما يخفي هذا الموقف أطماع فرنسية في انكلترا)، الا ان القدر يفعل فعلته في تأخير هذه الحملة وذلك لنشوب ثورة بروتستانية في اسكتلندا ضد الملكة ماري، الامر الذي جعل الملكة توجه قوتها لقمع هذه الثورة مما افشل خططها في غزو انكلترا. وكان من نتيجة هذه الثورة فرار ماري الى فرنسا ، الا انها عادت الى اسكتلندا عام ١٥٦١م. لقد وصفت ماري بانها تملك الجمال الفاتن والذكاء والفطنة وقد استخدمت ذلك كله لكسب ود الشعب الأسكتلندي الا ان احداثا عدة منها اعلان كاثولكيتها بشكل علني وزواجها من عشيق لها كان ذلك وغيره سببا في اجبارها على التنازل عن العرش عام ١٥٦٨م، وقررت الفرار الى لندن والاحتماء بعدوتها اليزابيث والتي اكرمتها ووفرت لها الحماية الا انها كانت حذرة منها ،فقد وضعتها في الأقامة الجبرية

في قصر مع حاشيتها ولكن ماري استمرت بمؤامراتها ضد الملكة الامر الذي اضطرت معه اليزابيث لاصدرا حكم الاعدام بحقها عام ١٥٨٧م.

ب. <u>انكلترا تنتصر في البحر</u>: بدات انكلترا ببناء قوتها البحرية خلال حكم هنري السابع والثامن الا انه في زمن اليزابيث وصل الاسطول الانكليزي الى قدرات مهمة جعلته يتحرش بالسفن الاسبانية والتي يعتبر اسطولها الاكبر و الاقوى في تلك المرحلة. فقد قاد (السير فرانسيس دريك) حملة للسيطرة على عدد من السفن الاسبانية وهي مبحرة بهدف الأستيلاء على المواد الثمينة التي تحملها، وقد اقتاد قسم منها الى السواحل الأنكليزية. هذا فضلا عن غاراته على الموانئ الأسبانية وحرق السفن الراسية فيها، ترافق ذلك مع ما قامت به انكلترا من دعم الثورة في هولندا ضد السيطرة الاسبانية، فقد قاد الحملة في هولندا احد القواد الذي كان يتمنى الزواج من اليزابيث وهو دوق فرنسي اغرته الملكة ليقف الى جانبها بوجه حاكم هولندا وهو اخو الملك الاسباني ويدعى (دون جوان) وذلك عام ١٥٨٥م.

لقد تجمعت هذه العوامل مع عوامل اخرى كانت كافية لتحرك الملك الاسباني للانتقام من أنكلترا وملكتها منها عوامل شخصية او عسكرية او دينية او غيرها ، لذا فقد عمل على تجهيز حمله بحرية ضخمة من السفن الخشبية الكبيرة واطلق على هذا الاسطول اسم (الأرمادا) وكان هدفه الاول غزو انكلترا والقضاء على حكم اليزابيث، وقد اعتقد الأسبان انهم يملكون اسطولا لايقهر وقد عدوا خططا اعتبروها متكاملة لتحقيق اهدافهم فضلا عن مراهنتهم على

الأنقسام الديني الداخلي في انكلترا وضعف امكانيات انكلترا البحرية بالمقارنة مع اسبانيا.

كانت الخطوة الاسبانية المعدة للمواجهة تقليدية ومعروفة وكان بالامكان وضع الخطط المضادة لمعالجتها، فكانت الخطة الاسبانية تقوم على استخدام السفن الكبيرة المحملة بمئات الاشخاص والثقيلة في أبحارها وحركتها لتقترب هذه السفن من السفن المعادية ويثب الجنود الاسبان الى سفن العدو للسيطرة عليها باسلوب القتال البري من خلال المبارزات الفردية. تلك الخطة التي استخدمها الاسبان خلال السنوات الماضية، علما ان الاسطول الاسباني تالف من ١٣٠ سفينة كبيرة تحمل اكثر من ٦٠ الف شخص.

الا ان الاسبان لم يعرفوا ان الآخرين سبقوهم في فن الحرب في البحر الذي لايقوم على حجم السفينة او عدد الاشخاص التي على ظهرها وانما يقوم على سرعة الحركة والمناورة ونوع السلاح المستخدم، لقد تعلم الانكليز اساليب جديدة للقتال في البحر اكتسبوها من الهولنديين وغيرهم، فقد بنوا سفن صغيرة الحجم الا انها تتميز بالسرعة وتحمل هذه السفن مدافع في أسفلها وعلى ظهرها كما ان عدد المحاربين عليها قليل لتسهيل حركتها، لان عدد المحاربين هنا ليس هو العامل الحاسم وانما الحركة والمناورة، وقد تدرب البحارة الانكليز جيدا على استخدام هذه السفن الصغيرة لاسيما حركتها ودورانها السريع للابتعاد عن المواجهة المباشرة مع العدو الذي خطط لالالتصاق بالسفن الانكليزية وانزال جنوده عليها. عندما حصلت المواجهة في شهر تموز من عام ١٥٨٨ كان البحارة الانكليز يوجهون مدافعهم الى السفن الخشبية الاسبانية الكبيرة والأندفاع نحوها لاحراقها ، الا انهم حرصوا على عدم الاشتباك مع تلك

السفن وجنودها المدججين بالاسلحة بل كانوا يناورون لضربها والابتعاد عنها بدوران سريع مما ساعد على تحطيم عدد كبير من السفن الاسبانية وقد ساعدتهم الاجواء العاصفة على تثبيت ما تبقى من السفن وطورد القسم الاخر باتجاه القنال الانكليزي.

مثلت الهزيمة الكبيرة لاسطول الأرمادا الاسباني نقطة تحول في تاريخ البحرية الانكليزية والقوة البحرية العالمية بشكل عام، اذ تحولت السيطرة على البحار المهمة وطرق التجارة فيها الى الاسطول الانكليزي الذي اصبح تدريجا سيدا للبحار دون منازع في المراحل اللاحقة.

لقد اكتشفت انكلترا واقعها الجغرافي الذي غاب عن الاهتمام لمراحل سابقة من انها دولة بحرية بأمتياز وأنها اكثر من غيرها تستحق ان تكون سيدة البحار وهذا ما عملت عليه منذ عام ١٥٥٣م من خلال تأسيس شركة التجارة الروسية وشركة التجارة التركية حتى اذا جاء عام ١٦٠٠ تاسست اهم شركة في تاريخ انكلترا وهي شركة الهند الشرقية الانكليزية.

لقد ساهمت عوامل عدة على الانتصار الانكليزي من أهمها قوة الاسطول الملكي الذي بنى على اسس متطورة، فضلا عن مشاركة تجار الطبقة الوسطى الذي كان ولائهم للملكة ولوطنهم فضلا عن دفاعهم عن مصالحهم التجارية، اذ كان البحر هو الطريق الاهم اذا لم يكن الوحيد في تجارة الصوف واستيراد السكر والمواد الاخرى، لذا فقد ارتبط هذا الحدث التاريخي بالملكة اليزابيث وقدرتها في بعث روح الثقة والقوة لدى رعيتها.

ج. وصف المؤرخون الملكة اليزابيث الاولى بانها تعمل بعقلية كبيرة بالرغم من صغر سنها(تولت السة وعمرها ٢٥ عاماً) .كانت جميلة تحب المرح

والبهجة استغلت انوثتها الطاغية في الظفر بما تريد ، وهي شخصية اجتمعت فيها الموهبة والنبوغ كونها تملك قدر كبير من المعرفة باللغات الاجنبية.

جمعت حولها عدد من رجال جيلها والذين ينتمون بافكارهم وطبقاتهم الاجتماعية الى العصر الجديد الذي برز ليس في انكلترا فحسب وانما في اوربا بشكل عام وهو ما يطلق عليه عصر النهضة ، ومن ابرز هؤلاء الرجال وليم سيسل(Wiliam cecil) والذي بقي الى جانبها كوزير اول لها ومستشارها المقرب حتى وفاته عام ١٥٩٨م. وخلفه ابنه (روبرت سيسل) من بعده والذي سار على نهج ابيه في ولائه للملكة وفي تقديم المشورة الصادقة لها ، الامر الذي ادى الى ان تسير البلاد وفق سياسة منسجمة طوال نصف القرن الذي امتد فيه حكم الملكة اليزابيث.

ومنذ توليها السلطة عادت البلاد الى المذهب البروتستانتي وتم فصل الكنيسة الانكليزية عن روما بعد ان حاولت اختها ماري أعادتها ، واعلنت قيام الكنيسة الانكليزية المستقلة. ان هذا الاعلان لا يعني أتخاذ سياسة متشددة ضد الكاثوليك في انكلترا بل حاولت استخدام ذكائها وحكمتها في المحافظة على الوحدة القومية للشعب الانكليزي وابعدته عن حالات الصراع الطائفي الذي شهدته اوربا الذي تميز ،بالاظهاد الديني الذي تعرض له البروتستانت لاسيما في فرنسا لذا نجد وجود تنوع في الانتماء الطائفي الذي كان يتم بحريةٍ كبيرة ، فكان الى جانب اللوثرية والكالفنية الكاثوليكية وغيرها. ويشير المؤرخون الى ان(اليزابيث الاولى) عملت على استرضاء كل الاطراف من خلال أقامة الصلوات البروتستانية مع وجود رموز كاثوليكية مثل الشمعدان والصليب وغيرها.

الا انـه بـالـرغم مـن هـذه الاراء حـول مـرحلـة اليزابيـث الى ان عـدد مـن الكتـاب اشـاروا الى حـالات مـن الاضـطهاد الـديني وذلـك بهـدف تثبيـت البروتستانية ، على سبيل المثال يشار الى انها فرضت غرامات على ما اطلق عليهم(العصاة) وهم الـذين لايحضـرون لصـلاة الكنيسـة او قـد يتعرضـون للاعتقـال والسـجن او يتهمـون بالخيانـة للعـرش الانكليـزي، ويشـار الى تعـذيب عـدد مـن الكهنـة الكاثوليـك بـل وقتلـهم كمـا ان عـدد مـن(المفتشـين) كـانوا يقومـون بزيـارات دوريـة الى عـدد مـن البلـدات الـتي يشك في ارتدادهم الى الكاثوليكية.

الا ان هـذه الحـالات لم تصـل الى حـد العنـف الظـاهر في التـاريخ الانكليزي او ادى الى بروز اقتتال او اضطهاد طـائفي فلم يحظـى الباحـث خلال المصادر التي اطلع عليها على حصول عنف طائفي كما حصل في عدد من الدول الاوربية في نفس المرحلة.

ء. مثل القرن السادس عشر والسابع عشر عصرا تغيَر فيه النمط الحيـاتي في المجتمع البريطاني لاسيما في الريف، اذ ظهرت حركة (التسييج) والتي انتشرت في الاراضي المشاعة وتوسعت لتشمل الاراضي التابعة للفلاحين، كان الهدف من هذه الحركة توسيع الاراضي لتربية الاغنام والـتي تمثل مصدرا مهما لتجارة الاصواف الـتي راجت في تلك المرحلة وانعكس ذلك فميا بعد على تلك الاراضي وخصوبتها اذا اصبحت فيما بعد اراضي زراعية متميزة كونها سمدت بفضلات الاغنام لفترات طويلة ، على الـرغم مـن ان حركـة التسـييج اثـارت الكـثير مـن المشـاكل والنزاعـات والظلـم الاجتماعي من جهة الا انها من جهة اخرى فان حركة التسييج عملت على تخلـي الكـثير مـن الفلاحـين عـن اراضيهم بمقابـل او بـدون مقابـل عنـدما اضطروا لمغادرتها امام قوة الملاكيين والتجار، الامر الـذي ادى الى نـزوح

اعداد كبيرة منهم الى المدن والتي اتسعت وانتشرت فيها الاحياء الفقيرة القذرة وكان لهذه الظاهرة(الهجرة الى المدن)،و الزيادة الكبيرة للسكان في انكلترا، تداعيات مهمة من ابرزها زيادة اسعار المواد الغذائية بشكل ملفت، فعلى سبيل المثال ارتفعت اسعار السكر عام ١٥٨٦ الى شلن و٤ سنتات والشعير ١٣ شلن و٣ سنتات، ولتقدير هذه الزيادة يمكن مقارنتها بما يتقاضاها عامل البناء مثلا(شلن واحد وسنت) في اليوم الامر الذي يشير الى الفارق الكبير بين مدخولات الافراد وبين اسعار المواد الغذائية. كان من نتائج هذه الظاهرة ازدياد استغلال التجار وكبار ملاكي الارضي لهذه الحالة وزيادة ثرواتهم فضلا عن زيادة حالات الوفايات التي تعزى الى سوء التغذية لاسيما ان مرضى الطاعون كان يعاود بين فترة واخرى لاسيما بين عام ١٦٠٠- ١٦٠٤ اذا ازدادت عدد الوفيات لتصل الى(٣٠) الف شخص اسبوعيا.

وتشير الدراسات الى ازدياد حالات السرقة ابتداء من عهد هنري الثامن امتدادا لعهد ابنته ماري، اذ اعدم شنقا اكثر(٧٢٠٠) لص اغلب جرائمهم سرقة المواد الغذائية لاقامة اودهم، الا ان الملكة اليزابيث عملت بشكل كبير من خلال قدراتها الادارية وحكمتها والتفاف الشعب حولها معالجة تلك الظروف بما تتطلب من اجراءات، فقد اصدرت قرار بفرض ضريبة لاغاثة الفقراء عام١٥٧٢ والذي اطلق علية(قانون الفقراء) والذي بموجبة أنشئت الملاجى لاسكان الفقراء ممن لا يستطيعون تدبير لقمة العيش وقد فرض على هؤلاء المستفيدين العمل الذي يكلفون به من قبل السلطات المحلية في كل مدينة.

ان سياسة الملكة(اليزابيث الاولى) ساعدت بقدر او بآخر لبناء مجتمع متوافق وعملت على تضييق الفوارق الطبقية في المجتمع. لقد تمتع

التجار والبحارة الذي يجوبون البحار بسفنهم للتجارة او لحماية الدولة بمكانة عالية في المجتمع الى جانب النبلاء وكبار الملاكين الذي كانت مكانتهم الاجتماعية متوارثة ،وان كل هؤلاء يمثلون مصدر ثروة وقوة انكلترا كلٌ في مجاله.لذا فان سياستها الداخلية والخارجية المتوازنة ساهمت في خلق المناخ الملائم لازدهار ملحوظ في انكلترا اقتصاديا واجتماعيا وحتى ثقافيا.

هـ. من الناحية الثقافية يعتبر عصر اليزابيث بداية للعصر الفكري المتميز في انكلترا ، فنتيجة للاستقرار وازدهار الاقتصاد والتجارة وأهميتها في توسع التلاقح الفكري مع المجتمعات الاخرى فقد ازدهرت في عهدها الاداب والفنون والعلوم.

وتعتبر اللغة الاداة الاساسية والمهمة في أي نهضة فكرية لاسيما اذا كانت اللغة غنية بمفرادتها وواضحة وسلسلة في معانيها لتكون مفهومة لكل طبقات المجتمع كما حصل في انكلترا ، اذ ساهمت اللغة وتطورها في اشاعة الانسجام الاجتماعي وانتعشت كلغة للادب والشعر والمسرح والفكر بعد ان كانت مقتصرة على امور محددة شعبية كانت ام تجارية او قانونية وما شابه ذلك.

الا ان ما ميز هذا العصر ظهور أبرز شخصية ادبية في تاريخ انكلترا بل في تاريخ الادب العالمي الا وهو (وليم شكسبير)، ولد في نيسان من عام ١٥٦٤ في مدينة واركستير وعُمد في كنيسة(الثالوث المقدس) في ٢٦ نيسان ١٥٦٤ كما هو مدون في سجلات الكنيسة باللغة اللاتينية ، وقد اشارت تلك السجلات الى الواقع الاجتماعي في تلك المرحلة من خلال توثيق نسبة الوفيات التي تزداد في الطبقات الفقيرة لتصل الى اكثر من ٤٢٪ من المواليد بعد تعميدهم على عكس ابناء الطبقات الغنية

والمتوسطة، وتشير تلك السجلات ايضا الى ان متوسط عمر الرجال لايتعدى (٤٧) عاما في تلك المرحلة، اذ لاتزال الامراض وسوء التغذية والطاعون تحصد أرواح الناس. حتى ان شكسبير أعتبر اكثر حظا لزيادة سنوات عمره الى ٥٢ عاما عندما توفى بسبب مرض أختلف في تشخيصه ولكن هناك من يشير الى انه من الامراض الجنسية عام ١٦١٦[1].

توضح سيرة شكسبير الى اهتمام الملكة اليزابيث بالادب والمسرح وكانت مؤلفاته المسرحية انعكاس للواقع الصاخب الذي شهدته لندن والمدن الاخرى والتي وجدها((بانها تضج بالحياة والحركة وغصت بالحاشية والتجارة واهل البحار واصحاب الدكاكين وصبيان الحرف الصناعية)) هذا ما وصفه في مسرحيته (العاصفة) اذ قال (لاتخف فان الجزيرة عامرة بضوضاء الحياة).

وبالرغم من موجات الطاعون التي تاتي فجاة وتقتل العشرات الا ان المسرح كان نشطا في تلك المرحلة. كما برز عدد من الشعراء من امثال سبنسر وفيليب سدني وغيرهم اذ تكثر اسماء الادباء والشعراء ومؤلفي الموسيقى والاغاني فقد انتعشت الموسيقى وظهر عدد من ابرز الموسيقيين الامر الذي وصفت انكلترا في عصر اليزابيث بانها(بلاد الموسيقى).

كما تم ترجمة العديد من الكتب المهمة في مختلف المجالات الى اللغة الانكليزية من اللغات الاخرى اللاتينية واليونانية والايطالية وغيرها، وكان من ابرز مفكري عصر اليزابيث الفيلسوف الشهير

[1] عن وفاة شكسبير وحياته ينظر: بيتر اروید، شكسبير السيرة ، ترجمة عارف صديقة، ص٦٤٢.

فرانسيس بيكون (١٥٦١- ١٦٢٦) وهو ابرز من عمل على مناقشة واقع العلوم وكيفية تصنيفها وأصلاحها ، اذ كان من ابرز اعماله المصنف الشامل(التجديد الاكبر) وكتابه(اعظم مخاض للزمن). درس بيكون الحقوق في لندن والف في بداية حياته العملية(احكام القانون) وفيه عرض للقوانين السارية في انكلترا وتطورها التاريخي. تقلد مناصب عدة خلال حكم الملكة اليزابيث ومن اهمها منصب المستشار القانوني للتاج الانكليزي[1].

وكان مؤلف بيكون هذا ضمن اعمال اخرى قام بها عدد من القانونيين لتوثيق القانون الانكليزي وشرحه من ابرزها (شرح القانون العام وتطوره) لـ(ادوارد كوك).

وقد برز خلال هذه الفترة مجموعة من علماء الرياضيات من امثال هاربوت والجغرافية والطب اذ اكتشف وليم هارفي[2] الدوره الدموية لجسم الانسان.

اما الفن المعماري فقد كان هذا العصر بداية لمرحلة جديدة من العمارة الانكليزية التي تطورت بشكل واضح خلال حكم اليزابيث لارتفاع المستوى المعيشي للسكان الذي انعكس على واقع البناء للمنازل والاعمال التجارية[3].

---

[1] لمزيد التفاصيل عن بيكون ينظر: اميل برهيية، تاريخ الفسلفة، ج٤، ترجمة جورج طرابيشي، بيرت -١٩٨٣، ص٣١.

[2] هارفي طبيب انكليزي عاش بين(١٥٧٨-١٦٥٧) الف كتاب عنوانه بحث(تشريحي عن حركة القلب والدم في الحيوانات) وهو مؤسس علم وظائف الاعضاء وتمكن من وصف الدوره الدموية الكبرى.

[3] عن طريقة بناء البيوت في انكلترا خلال هذه المرحلة ينظر اليشا، المصدر السابق، ص١٤٠.

لـذا يمكـن تقيـيم عهـد اليزابيـث بانـه عصـراً متميـزاً في التـاريخ الانكليزي اذ شهد زيادة الثروة لدى افراد المجتمع الانكليـزي فضـلا عـن انتعاش العلوم والاداب بالرغم من حالات الفقر الذي كان موجودا في عدد من فئات المجتمع والتي حاولت الملكة معالجته فضـلا عـن موجات مـرض الطاون التي تعصف في البلاد بين الحين والاخر.

الفصل العاشر

آل ستيورات والثورة الانكليزية

(قيام جمهورية كروميل)

توفيت الملكة اليزابيث عام ١٦٠٣ واوصت بالعرش الى جيمس ملك اسكتلند وهو ابن ماري استيورات التي اعدمتها اليزابيث عام ١٥٨٧.

ولد جيمس الاول عام ١٥٦٦ وتولى السلطة في اسكتلندا عام ١٥٦٧ وعمره عام واحد عندما تنازلت امه عن العرش الاسكتلندي وفرارها الى لندن، لذا فقد وضع تحت الوصاية حينها حتى عام ١٥٨٣ عندما تولى السلطة بنفسه كانت علاقته مع الملكة اليزابيث الاولى جيدة حتى قيل انه تفهم قرار اعدام امه وتقبله بهدوء، لذا فقد اوصت اليزابيث بالعرش الانكليزي له.

اعتبر جيمس الاول فيلسوف الملكية المطلقة(أي الحق الالهي في لحكم حتى انه الف كتابا عنوانه(القانون الحقيقي للملكية الحرة) اكد فيه على ان الملكية حرة من اي رقابة ان كانت من البرلمان او من القوانين والاعراف السائدة، اذ ان الملك فوق الجميع والحكم عنده منحة إلاهية، وان اللّه عين الملوك ليحكموا ، اما الرعية فانها لا تملك حقوقا وانما هم يتمتعون بامتيازات يمنحها الملك لهم مقابل اداء واجباتهم، وان الملك بمثابة الاب الذي يرعى ابناءه (فكما الاب يؤدب ابناوءه يؤدب الملك رعاياه). كما انه مسؤول فقط امام اللّه وان كل المؤسسات الحكومية اوغيرها تستمد سلطاتها من الملك وليس العكس ويعتبر ان الثورة او التمرد كفر

يجب محاسبته. باختصار ان الملك فوق القانون والبرلمان وانه الاساس في اشاعة السلام والاستقرار في البلاد.

لقد عرف جيمس الاول بالغرورة والعناد وعدم الحكمة اذ يستخدم قراراته في اغلب الأحيان في غير محلها، وهو قليل المعرفة بالواقع السياسي في انكلترا الذي يختلف اختلافا تاما عن الواقع السياسي السائد في اسكتلندا والتي كان جيمس يديرها.

عندما استلم جيمس الاول الحكم كانت الاوضاع مهيأة له لأتباع السلطة الملكية المطلقة اذ حجمت اليزابيث الاولى نفوذ وسلطة النبلاء لصالح سلطة الملك ووزارته، كما اصبحت البروتستانتية مترسخة لدى الشعب الانكليزي. اما القوة العسكرية الانكليزية فقد تمتعت بنفوذ وهيبة في اوربا لاسيما بعد الانتصار الحربي الانكليزي في معركة الارمادا(١٥٨٨).

كما ان سياسية اليزابيث المرنة تجاة القوى السياسية والأجتماعية قد ادت الى ان يخضع البرلمان لسلطة الملك بل ان تلك السلطة كانت قريبة بشكل او باخر من قلوب الجميع لذا كانت السلطات طيعة للملكة على اساس توافق البرلمان مع الملكة ولم يكن خضوعه اجباريا لها. لذا عندما استلم جيمس السلطة كانت الاوضاع السياسية مهيأة لتطبيق فلسفته (الملكية المطلقة). لقد قامت حاشية الملك بدور مؤثر في ترسيخ منهجه هذا، على الرغم من وجود(روبرت سيسل) الوزير المخضرم من العهد السابق الذي لم يتمكن من انجاز واجباته كونه توفي بعد فترة من استلام جيمس السلطة كما ان الملك تخلص من القاضي الشهير(ادوارد كوك) وهو الخبير القانوني الضليع بالقانون الانكليزي وتطوره وتطبيقاته، وذلك من خلال ابعاده ومن ثم عزلة عام ١٦١٤ عن منصبه

كقاضي للقضاة وذلك لمعارضته هيمنة الملك على السلطة القضائية باعتبار ان الملك اعلى من السلطة القضائية كونه فوق القانون بل هو الذي يشرعة الامر الذي رفضه كوك.

اما المفكر المعروف(فرانسيس بيكون) فقد استمر في منصبة كمستشار للملك كونه كان مؤمن بنظرية الملكية المطلقة وعمل على تبرير كل اعمال الملك وتصرفاته وفقا لتلك النظرية. فضلا عن ذلك فقد كان يحيط بالملك مجموعة من المستشارين الذين ووصفوا بغير الأكفاء من امثال (روبريت كار، ايرل سومرست، جورج فليبر"دوق بنكهام") وكانوا هؤلاء جميعا مناصرين لسلطة الملك وسياسيته ومنفذين او منظرين للملكية المطلقة. وبالرغم من توحد الجزيرة البريطانية في عهده (انكلترا وويلز واسكتلندا) مع بقاء ايرلندا تابعة للتاج الانكليزي، الا ان نسبة الهجرة من بريطانيا الى العالم الجديد(امريكا) ازدادت بنسب عالية وذلك لعدد من الأسباب اهمها تلك الاساطير التي يسمعها الناس عن العالم الجديد وما فيها من فرص العيش والعمل والمنفعة الاقتصادية الامر الذي شجع الناس للهجرة لها، فضلا عن الاسباب الدينية فقد كانت ولاية فرجينيا وميرلاند محطة مهمة للكاثوليك الانكليز الذين اُعتبروا اقلية مضطهدة في بلادهم، كما ان الملك نفسه منح الاراضي هناك لعدد من المقربين والذي اسسوا اول مستعمرة انكليزية على الاراضي الامريكية عام ١٦٠٩ سميت باسم الملك جيمس الاول(جيمس تاون).

- **<u>الخلاف مع البرلمان:</u>**

كانت علاقته مع البرلمان (بمجلسية) غير مستقرة وتسودها الخلافات ، اذ كان يعتقد ان البرلمان في انكلترا هو بنفس المستوى الذي كان عليه البرلمان الاسكتلندي والذي اعتبره مكانا لاملاء اوامر الملك والتصديق

على قراراته. لذا فقد بدا النزاع بين الملك والبرلمان عندما اخذ البرلمان يعارض الملك في مسائل دستورية وسياسية عدة تتعلق بالسياسة الخارجية والداخلية لانكلترا.

فقد رد الملك على معارضية في البرلمان بقوله:((انه ليس من شأن البرلمان التحدث في المسائل السياسية التي هي مهمة الملوك وليس مهمتهم وهي فوق قابلياتهم)).

كان البرلمان الانكليزي يمتلك صفات مختلفة عن ما موجود في اوربا ، اذ ان له تاريخ طويل في النشأة والتجربة مما اسهم في ايجاد أعراف وقوانين تنظم عمله وصلاحياته، كما انه كان برلماناً مركزيا أي انه يمثل انكلترا جميعها بكافة طبقاتها الاجتماعية، وهي تختلف عن دول اوربية اخرى مثل هولندا وفرنسا واسبانيا والتي كانت مجالسها اما اقليمية او طبقية، لهذا نظر الشعب الانكليزي الى البرلمان كمركز للدفاع عن مصالحهُ وحماية حقوقه ومعارضة الملك بشكل شرعي وبمبررات دستورية، وامتلك البرلمان قوته من تشكيلته والتي تضم عدد كبير من الوردات والذين (وصفوا بالعلمانيين) وكبار ملاكي الارض وصغار الملاكين الذين ازدادت ثروتهم خلال المراحل السابق فضلا عن كبار التجار وممثلي الفلاحين الذين زادت قوتهم الاقتصادية مع سيطرتهم على اراضي الكنيسة الكاثوليكية، وكذلك من تجارة الصوف التي انتعشت في تلك المرحلة، لهذا كله فان البرلمان يمتلك قوة التنظيم وقدرة اقتصادية وكذلك سعة في التمثيل لكل طبقات المجتمع فكان من الصعب على جيمس الاول او غيره من الملوك تجاوز البرلمان او الوقوف ضده والعمل خلاف ارادته لان ذلك سيعرضة للمشاكل الداخلية كون البرلمان مصدر لتمويل نشاطات الملك.

لقد حاول جيمس الاول من خلال المكر ومحاولت الالتفاف على الواقع السياسي من جعل البرلمان شبيها ببرلمان اسكتلندا المطيع للملك الا ان الامور لم تسير بما يشتهي:

كان من ابرز الخلافات هي رغبة الملك التصرف بالاموال دون مسائلة (اذ كان معروف عنه الاسراف)، وقد كان حسب القوانين والاعراف المتوارثة ان يطلب الاموال التي يحتاجها من البرلمان، الا انه كان يترفع عن ذلك الطلب الامر الذي جعله يلجا الى فرض المزيد من الضرائب فضلا عن استحصاله للاموال عن طريق منح الالقاب والمناصب(كلقب اللورد مثلا) مما كان له الاثر في ازدياد حالة التقاطع والتنافر بين الملك والبرلمان.

عام ١٦٠٤ كان اول صدام علني بين الملك والبرلمان، وذلك عندما اعترض الملك على انتخاب احد الاشخاص الذي لايرغب فيه لعضوية البرلمان بدلا من شخص اخر كان من اتباعه، وقد طلب جيمس الغاء عضوية ذلك الشخص الا ان البرلمان اصر على رأيه وأقر صحة العضوية، وامام اصرار البرلمان الذي كان الامر من صلاحياته تراجع الملك واقر بدستورية او شرعية مراقبة البرلمان للانتخابات وعدم جواز تدخله بهذا الشان. وكان لهذه الحادثة مدلولات عدة اهمها بداية العلاقة المتوترة بين الملك والبرلمان وكذلك بداية لتحديد صلاحيات الملك التي ستتطور فيما بعد لتصبح امرا مفروضا في تنازل الملك عن الحقوق المطلقة التي كان يعتقد بها.

خلال الفترة من ١٦٠٤ حتى عام ١٦١١ عقد البرلمان خمسة اجتماعات بحث خلالها الحقوق المالية للملك لاسيما ان الاخير قام بتحاشي طلب الاموال من البرلمان ولجأ الى الضرائب التي تغافل عنها البرلمان كونها تمثل حقوقا مارسها الملوك سابقا، اذ فرض ضريبة على

الخمور وغيرها. وخلال هذه الاجتماعات التي كان محورها تقييد حرية الملك في التصرف في الاموال ومحاولة تحديد صلاحياته في الامور السياسية شعر الملك بعدم الرضا وضاق ذرعا بتصرفات البرلمان الامر الذي ادى الى حل البرلمان عام ١٦١١.

الا ان جيمس الاول اضطر لدعوة البرلمان في نيسان من عام ١٦١٤ وذلك لاقرار بعض الاحتياجات المالية، الا ان البرلمان توسع في مناقشة الشؤون السياسية ولم يقتصر على بحث الشؤون المالية فقط ، ووصفت أجتماعاته بالصاخبة لاسيما من قبل معارضي الملك الامر الذي اضطر الملك الى اتخاذ قرار حله مجددا بعد شهرين من انعقاده وذلك في حزيران من عام ١٦١٤م.

استمر الملك في ادارة شؤون البلاد بشكل منفرد من خلال مجموعة من المستشارين المؤيدين له، الا ان التطورات الخارجية لاسيما ما شهدته اوربا من حروب في فرنسا والمانيا وغيرهما تطلب موافقت البرلمان واستشارته في التدخل في تلك الاحداث لدعم البروتستانت ضد التحالف الكاثوليكي الذي تقوده اسبانيا، فيما اطلق عليه بحرب الثلاثين عام التي شهدتها المانيا[١]، لذا فقد قرر دعوة البرلمان عام ١٦٢١. الا ان هذا البرلمان لم يكن أقل معارضة من سابقه اذ عاد وناقش سياسة الملك الداخلية والخارجية ،وظهرت معارضة قوية لتلك السياسية الامر الذي

[١] شهدت المانيا حربا اهلية بسبب الانقسام الديني(الكاثوليكي والبروتسانت) الا ان هذه الحرب اخذت ابعادا دولية عندما تدخلت اسبانيا وفرنسا وهولندا والدنمارك السويد تحت مبررات دينية الا ان ابعاد هذه التدخلات سياسية كل لمصلحتة فكان على انكلترا ان توضح موقفها من هذه الحرب.وقد استمرت تلك الحرب بين عامي ١٦١٨—١٦٤٨ وانتهت بعقد معاهدة وستفاليا التي وضعت الاسس القومية للدول الاوربية الحديثة.

حدا بالملك الى حله في نفس السنة ولم يدعى الى الانعقاد الا عام ١٦٢٤ وعندها لم يتمكن جيمس من حل هذا البرلمان لانه توفي بعد اشهر من انعقاده وذلك عام ١٦٢٥م.
لقد تميز حكم جيمس الاول بتوتر العلاقة مع البرلمان وفي انشغاله بالحروب الخارجية مما أسهم في أضعاف موقفه.

- **مشكلة البيوريتان (المطهرون):**

قبل مجيء جيمس الاول الى السلطة كان هناك توتر ديني في انكلترا وان كان اقل حدة من ما شهدته الدول الاوربية الاخرى، اذ شكل الكاثوليك في هذه المرحلة من تاريخ انكلترا اقلية صغيرة من السكان تصل نسبتهم الى(٣٪) فقط، اما البروتستاتنت فمثلوا اغلبية الشعب البريطاني، الا ان هذا المذهب لم يكن موحدا في اسلوب تدينه او في نشاطه الاجتماعي او السياسي، فقد ظهرت تقسيمات او مذاهب عدة منها الوثريون(اتباع مذهب مارتن لوثر) ومنهم الكالفنيين(أتباع مذهب كالفن) وغيرهم. الا ان اكثر الجماعات تشددا ونشاطا هم الذين اطلق عليهم (البيوريتان) او (المتطهرون). تعرف البيورتانية بانها معتقد بروتستانتي مزيج من الافكار الاجتماعية والاخلاقية والسياسية واللاهويتة، وهي افكار مستمدة في أغلبها من المذهب الكالفني، ظهر اول مرة في لندن عام ١٥٦٧ ايام الملكة (اليزابيت الاولى). وأتباع هذا المذهب هم جماعة متطرفة ضمت مجموعة من ابناء الطبقة الوسطى من تجار ومثقفين وغيرهم من ابناء المدن كانت دعوتهم تشدد على رفض الكاثوليكية تماما بتعاليمها وخضوعها للبابا في روما، فضلا عن التاكيد على التمسك بالأنجيل والتوراة كمصدر اساسي للتعاليم الدينية

والطقوس، كما ركزت تعاليمها على مبادئ محددة من قيم في السلوك كطبيعة الملبس والصوم وترك اعمال اللهو(المراقص والحانات وكل اماكن اللذات الحسية). لذا اطلق عليهم بالمتطهرون وقد اسسوا كنائس خاصة بهم.

حاول البيوريتان استمالة الملك جيمس الاول ، بعد ان ضيقت عليهم اليزابيث سابقا، اذ قدموا طلبا له بالتسامح معهم، الا ان الملك كان متاثرا بعوامل عدة جعلته يتخذ قرارا باعتبارهم خارجين عن الكنيسة الرسمية الانكليزية وذلك خلال مؤتمر(هامبتون كورت) مع بداية استلامه للسلطة، وقد خيرهم بين الانسجام مع الكنيسة الرسمية او ترك البلاد وقد هاجر عدد كبير منهم الى (العالم الجديد) واسسوا هناك ولاية(نيو انكلاند).ان من بين تلك العوامل ايضا محاولة جيمس الاول التوفيق بين التنوع المذهبي في انكلترا وابعادها عن التطرف الديني وهذا ما سعت اليه الملكة اليزابيث ايضا.

كما انه اتهم بميله للكاثوليكية وذلك كون امه كاثوليكية وزوجته ابنة ملك الدنمارك هي ايضا كاثوليكة ،الاان ما يدحض هذا الراي انه كان متشددا ايضا مع الكاثوليك، لذا فقد حاولوا قتله في مؤامرة سميت(مؤامرة البارود) والتي اكتشفت قبل تنفيذها عام ١٦٠٥، اذ كان من المفروض ان تفجير القاعة التي كان يجتمع فيها الملك مع البرلمان الامر الذي ادى الى اصدار البرلمان لقوانين مشددة ضد الكاثوليك الا ان الملك تجاهل تنفيذها.

لقد اسهم اضطهاد البيوريتان الى انتشار نفوذهم وافكارهم واصبح دعاتها قادة لمذهب جديد انتشر بين المزارعين وباقي الطبقات الاجتماعية باعتبارها(قاعدة لحياة فكرية مثالية)، وكان هذا التاثير مقدمة

لحركات عنيفة هزت المجتمع البريطاني في الاعوام اللاحقة. وفي محاولة من جيمس الاول تعزيز سلطة الكنيسة الرسمية في انكلترا فقد تم اصدار الترجمة الانكليزية للكتاب المقدس عام ١٦١١ من خلال لجنة من رجال الدين الذين عملوا على وضع هذا الاصدار بلغة انكليزية نثرية اشرت نضوج اللغة الانكليزية وسعة مفرداتها وعمق معانيها وقد اصبح هذا الكتاب الذي عنوانه(Authorised version of the Bible) مرجعا للقيم الانكليزية وطباع الانكليز وخيالهم ولغتهم وعاداتهم في تلك المرحلة فكان مصدراً(فتح للناس عالما جديدا في التاريخ والخيال والايمان والشعر) واعتبر بمثابة حركة للنهضة الانكليزية الفكرية.

الملك شارل الاول:

عام ١٦٢٥ توفي جيمس الاول ليخلفه ابنه الملك شارل الاول(المولود عام ١٦٠٠ ويسمى في بعض المصادر تشارلز الاول) على عرش انكلترا ، وكان يختلف عن ابيه في شخصيته ووسامته ولكنه شبيه والده في كونه من اشد المؤمنين بحق الملك الالاهي، تزوج اخت الملك الفرنسي لويس الثالث عشر وكانت كاثوليكية وكان قد تزوج قبلها اميرة اسبانية وكانت ايضا كاثوليكية الامر الذي انعكس على سياسية شارل الاول وتوجهاته، حتى قيل ان الطقوس الدينية كانت تقام في مقرة على الطريقة الكاثوليكية في روما مما كان مبعث انزعاج من قبل الشعب الانكليزي.

ورث شارل الاول في بداية حكمه نزاعه مع البرلمان بنفس الاسلوب الذي كان والده يتعاطى معه، فقد دعا البرلمان للانعقاد لحاجته للحصول على موافقة البرلمان على المنح المالية التي يحتاجها في حروبة

الخارجية، الا ن البرلمان لم يوافق الا على نسبة قليلة مما طلبه الملك، وعلاوة على ذلك بدا البرلمان بمناقشة سياسة الملك الداخلية والخارجية وطالبه بالرجوع للبرلمان لأستشارته بدلا من الاعتماد على مجموعة المستشارين المحيطين بالملك في ادارة شؤون البلاد، كما ناقش البرلمان زواج الملك من اميرة كاثوليكية، وهاجموا السلبيات التي تشهدها البلاد لاسيما المحسوبية التي على اساسها تعطى الالقاب والمناصب والمصالح التجارية.

لم يتحمل الملك انتقادات البرلمان له وتدخله في قراراته وسياسيته فقرر حله، الا انه اضطر تحت وطاة الهزائم العسكرية الخارجية الى دعوته مجددا عام ١٦٢٦.

حاول الملك استمالة أعضاء البرلمان من خلال تعيين بعض زعمائهم في وظائف مهمة،كما عمل على تنفيذ القوانين الصادرة ضد لكاثوليك والتي لم ينفذها والده في خطوة لاسترضاء البرلمان، كما قام بتعين الاسقف(لود) والذي يحظى بقبول اعضاء البرلمان ليلقي العضة المعتادة على الاعضاء عند أجتماعهم.

الا ان ذلك كله لم يثير اهتمام اعضاء البرلمان وانما استمعوا طويلا الى زعيم المعارضة جون اليوت(٥٩٢- ١٦٣٢) الذي انتقد الخسائر التي تكبدها الانكليز بسبب سياسة الملك الخاطئة والمستندة الى استشارة وزيره الاول(بيكنكهام). ونتيجة لتلك المعارضة ولعدم قبول البرلمان لطلبات الملك المالية امر بحل البرلمان مجددا وعندما ما لم يتمكن من جمع الاموال اللازمة من ابناء الشعب عن طريق الضرائب والمنح اضطر لدعوة البرلمان مجددا في انتخابات جديدة عام ١٦٢٨(فيما اطلق عليه

(البرلمان الثالث) وكان معظم اعضاء في البرلمان الجديد من معارضي الملك وممن سجنوا بسبب رفضهم لسياسة الملك.

تاتي اهمية البرلمان الثالث في عهد شارل الاول من المطالب التي قدمها البرلمان للملك والتي سميت ملتمس الحقوق والذي يعتبر من اهم مصادر ووثائق الدستور البريطاني ويتضمن:

أ. عدم جواز فرض وجباية الضرائب او فرض القروض والهبات والمنح الا بموافقه البرلمان.

ب. عدم توقيف وسجن أي فرد الا بأصدار قضائي من المحاكم المختصة مع بيان الاسباب.

ت. عدم اعلان الاحكام العرفية أوقات السلم ومنع استغلال المواطنين وبيوتهم لدعم الجنود او ايوائهم.

وافق الملك على هذا الوثيقة على الرغم من ايمانه بحقه المطلق في ادارة الدولة(الحق الالهي) وكان مقابل هذه الموافقة منحة الاموال اللازمة.

كان وجود الوزير بيكنكهام قد اثار مشكلة بين الملك والبرلمان الذي طالب بعزلة مما أعتبره الملك تدخلا في شؤونه الخاصة الا ان مقتل الوزير في ظروف غامضة ساعد على تخفيف التوتر بين الطرفين.

في عام ١٦٢٩ اجتمع البرلمان مجددا وعارض فرض الضرائب التي لم يوافق عليها البرلمان، فضلا عن ذلك شهدت هذه المرحلة تصاعد الخلافات الدينية بين الكنيسة الانكليزية الرسمية وجماعة البيوريتان وكان ذلك بسبب تزايد اعضاء البرلمان ممن ينتمون الى تلك الجماعة الذين وقفوا ضد رجال الدين الرسميين المؤيدين من قبل الملك، وتلخص كلمة احد الاساقفة الرسميين طبيعة الصراع الديني اذ يشيير الى ((ان

البابوية تؤدي الى الديكتاتورية بينما البيورتانية تؤدي الى الفوضى وكلاهما عدو للاستقرار والاعتدال)).

اصدر البرلمان خلال اجتماعه قرارات عدة خوّن خلالها كل من يرتد الى الكاثوليكية كما خون كل من يفرض الضرائب دون موافقة البرلمان مما اعتبرت هذه القرارات موجهة ضد الملك مباشرة الامر الذي ادى الى اصدار الملك لقرار بحل البرلمان.

لقد تميزت هذه المرحلة بزيادة الانقسام الداخلي من خلال ازدياد نفوذ البيورتان عند الشعب الانكليزي، فضلا عن انقسام البرلمان بين مجلس اللوردات الذي وصفه الملك(بالرزانة والوقار) وبين مجلس العموم الذي وصفه (بالتمرد والكفر).

- خلال السنوات من ١٦٢٩ حتى عام ١٦٤٠ ادار شارل الاول الدولة بشكل منفرد من خلال مجموعة المؤيدين له ومن ابرزهم الاسقف(وليم لود) الذي عين رئيساً لاساقفة كنيسة كانتبريري فضلا عن كونه رئيسا للحكومة، وقد أتصف لود بالعناد والمكابرة وتجاهله لروح العصر. وعمل على التضيق على افكار ومبادئ المذاهب الاخرى لاسيما البيوريتان من خلال تخفيف القوانين القاسية على الكاثوليك واجاز مجالس الترفية واقامة الحفلات الموسيقية المسارح نكاية بالبيوريتان.

اما الشخصية الاخرى فهو(الكونت ستراففورد) حاكم ايرلندا والذي اخضعها بمختلف الوسائل للتاج الانكليزي، وقد كان داعما للحكم المطلق واقامة حكومة ملكية قوبة ويوصف بانه أظهر براعة وحزم في ادارة الاقاليم التي يحكمها كما ساعد الملك مجموعة من القضاة الذي عملوا على تاطير قرارات الملك قانونيا وتنفيذها.

وبالرغم من ذلك كله فقد اضطر الملك الى مراعاه الاعراف الدستورية والقوانين النافذة لاسيما في الامور المالية ، او عمل على فرض الضرائب التي اجازها القانون للملوك في عهود سابقة، فقد فرض ضريبة العقار والغابات ومنح احتكارات لصناعات معينة مقابل الاموال مثل صناعة الصابون والخمور وغيرها. مع هذا فقد اثارت ضرائب اخرى نقمة شعبية مثل ضريبة السفن التي فرضتها على الموانئ الانكليزية الامر الذي اضطر الملك الى استصدار رأي قانوني يؤكد شرعية هذه الضريبة.

شهدت هذه المرحلة أيضا حصول ثورة في أسكتلندا ضد اجراءات الملك والتي حاول من خلالها فرض تعاليم الكنيسة الانكليزية الرسمية على الكنيسة الاسكتلندية وقد كانت هذه التعاليم تحتوي على بعض التعاليم الكاثوليكية والتي هي مرفوضة تماما من قبل الاسكتلنديين الذين يعتنقون البروتستتانية الكالفنية.

فقد أجتمع رجال الدين الاسكتلنديين عام ١٦٣٨ واصدروا ميثاقا قرروا فيه الدفاع عن كنيستهم وطرد كل رجال الدين الذين ارسلهم الملك لاحداث حالة التغير وفرض التعاليم الجديدة، تطور التمرد الكنسي هذا الى ثورة عارمة.

ونتيجة لذلك اعلن البرلمان الاسكتلندي الثورة على ملك انكلترا والف لجنة وطنية للانقاذ وعين لها قادة عسكريون الفوا جيشا زحف بأتجاه شمال انكلترا وكان ذلك الجيش بزعامة ضابط قدير يدعى(لسلي)، بالمقابل زحف الجيش الانكليزي المكون في اغلبه من سكان أيرلندا وذلك لانه من هيأتم واعدهم حاكم ايرلندا

(سترافورد) وجرت معركة حاسمة على ضفاف نهر نين شمال انكلترا سميت(بحرب الأساقفة) توضيحا لرغبة الاسافقة اعادة سلطاتهم الدينية في اسكتلندا.

وقد هزم الجيش الانكليزي هزيمة كبيرة وارغم الملك على توقيع هدنة تبقى الاوضاع العسكرية الناتجة عن المعركة كما هي والقاضية باحتلال اسكتلندا لاراضي شمال انكلترا.

كان من اهم نتائج هذه الحرب ضعف موقف الملك الذي بدا منقادا لتنفيذ رغبة البرلمان، فقد دعا البرلمان للانعقاد عام ١٦٤٠ الا ان هذا البرلمان لم يستمر الا بضع أشهر اذ حله الملك لذا سمي (البرلمان القصير) تميزا له عن (البرلمان الطويل).

لقد كانت الحرب مع اسكتلندا فاتحة لعهد جديد في تاريخ انكلترا برمته لانها اولا هيأت الاجواء داخل انكلترا للانتفاضة ضد الملك واتباعه وثانيا هي ضعف الملك واضطراره للتنازل عن حقوق كثيرة كان يتمتع بها الى البرلمان.

يمكن اجمال ما تحقق(للربمان الطويل) الذي انتخب عام ١٦٤٠ واستمر حتى عام ١٦٦٠ بما يلي:

١. الغاء (مجلس المظالم) والذي كان يعقد في (قاعة النجوم) اذ كان رمزا للظلم واداة لقمع المعارضين وكان ذلك له اهمية كبيرة في سحب وسيلة مهمة ومخيفة من وسائل الملك غير الخاضعة للرقابة للانتقام من معارضته.
٢. الغاء المجلس الديني الاعلى والذي يمثل راس ادارة الشؤون الدينية في انكلترا ومن اهدافه ترسيخ التاج باعتبارة رئيس الكنيسة

الانكليزية من خلالل فرضة، مجموعة من الطقوس والمبادئ الدينية الرسمية،مما كان له الاثر في اضعاف سلطة الملك.

٣. اجبار الملك على توقيع مرسوم يحرم حل البرلمان دون موافقة اعضائة، فقد كان حل البرلمان يصدر بقرار من الملك حصرا مما يعني ان ذلك القرار سَحب اهم صلاحية للملك في ادارة الدولة ومحاولة التملص من سلطة البرلمان ورقابته من خلال حله او تجميده، مما اعتبره عدد من المؤرخين بانه بداية للاستقلال عن سلطة الملك لان البرلمان منذ هذا التاريخ لم يعد تابعا للملك وارادته.

٤. اصدار وثيقة (الاحتجاج الاعظم) والتي نصت على مسؤولية البرلمان حصرا على محاسبة الوزراء ومراقبة اعمالهم، كما تضمنت الوثيقة نقدا لاذعا للملك وسياسته ومساوئ حكمه.

لقد جاءت مناقشة البرلمان وقراراته في هذه الوثيقة باعتبارها(طرح ثقة بالملك) كما وصفها احد الاعضاء البارزين والذي سيكون له شأن في تاريخ انكلترا وهو اوليفر كرومل.

لقد اوضحت المناقشات الحامية في البرلمان في ٢٢ تشرين ثاني عام ١٦٤١ طبيعة الهوة التي كانت موجودة بين الملك والبرلمان،اذ استمرت تلك المناقشات ساعات طويلة(من الصباح حتى بعد منتصف الليل) وقد وقف احد النواب المؤيدين للملك قائلا (ان هذه المظالم، المطروحة (في الوثيقة) بينه وظاهرة....ولا يستطيع احد ان ينكر المظالم والاخطاء العديدة ولكن يجب ان نكون حذرين فالملك هو الملك جزء لاغنى عنه لحكومة البلاد واذا اقررنا الاصلاحات المذكورة في الوثيقة كانه نزعنا الثقة عن الملك...واعلموا انكم تلقون بتاج بلادكم....اني اتوسل اليكم ان لا تلبسوا

انفسكم جريمة كهذه....اني اعلم ان حول الملك بطانة سوء ولكن يجب ان ندافع عن انفسنا دون ان تتحدى الملك.

رد عليه احد زعماء المعارضة:((اظن ان صديقي التبس عليه الامر فهذا الاحتجاج ليس موجها ضد الملك وانما ضد سياسة معينة وهو يخلو من أي تحدي للملك)).

وتبرز هنا الروح الثورية لدى كروميل والذي يعتبر رجل المرحلة بامتياز اذ يرد على ما ورد في كلام زملائة قائلا((هذا يوم يجب على كل انسان ان يقول فيه كلمة الحق التي تدوي في اعماق نفسه والا فالنسكت الى الابد منكسي الرؤوس...اني اقول ان قراراتنا واحتجاجاتنا هي اقتراع على الثقة بالملك. يا سيدي ان هذه البلاد قاست ما لا صبر عليه من مظالم فمن الذي فرضها؟ انه الملك، هل يتحرج الملك من فرض الضرائب الفادحة ارضاءاً لهواه....وهل تجهلون ما يقترف في مجلس النجوم ؟الم تعرفون اولئك الذين سلبت اموالهم وقطعت اذانهم وزجوا في اعماق السجون مدى الحياة؟ ان هذه البلاد غصت بالمظالم المفجعة، وهذا الملك وحده المسؤول عن هذه الاثام))...،لقد كانت صرخة كرومل مدوية أجبرت النواب اولا على الموافقة على الاصلاحات الواردة في (وثيقة الاحتجاج) وفي ذات الوقت اشارت الى بروز شخصية تتحدى الملك جمعت حولها الساخطين على الملك وسياسته.

الثورة والتحول الى الجمهورية

ان الانقسـام الحاصـل في النظـام السياسـي كـان باتجـاهين الاول داخـل البرلمـان مـن جهـة وبـين البرلمـان والملـك مـن جهـة اخـرى، وقـد اخـذ هـذا الانقسام ابعاد خطيرة وجديدة على الواقع السياسي الانكليزي، من خلال تاسيس البرلمان لجيش بعيدا عن سلطة ونفوذ الملك فضلا عن تقييد الاخير وسحب كل صلاحياته تقريبا، صاحب ذلك الغليان الشعبي الذي له دوافع دينية اكثر منها سياسية اذ اصبحت المبادئ البروتستانتية المتشددة والثورية في توجهاتها احد اهم العناصر المحركة للشعب الانكليزي.

لقد جاءت اجراءات البرلمان لتضع الملك امام اختيار صعب لمدى قوته ونفوذه وسلطته فكان عليه ان يتخذ ردود افعال حاسمة وسريعة تعيد له هيبته لا سيما بعد اعدام احد اهم مستشارية المقربين له وتقديم البرلمان للائحة تعطي الصلاحيات للبرلمان في تعيين قادة الجيش وتجنيد الاشخاص وجباية الضرائب اللازمة وكذلك حق البرلمان في اعلان الاحكام العرقية. لذا اعتبر الملك شارل(او تشارلز) ذلك كله(بانه مثير للسخرية والازدراء) مما حدى به الى قيادة قوة عسكرية بنفسه لالقاء القبض على عدد من قادة المعارضة في البرلمان والذين أعتبرهم المحرضين الاساسيين لتلك القرارات، وهم(جون بيم) وهو شخصية بارزة في البرلمان عرف بالجراة والفصاحة وسرعة البديهية، (وهامدن) وهومن الملاكيين الذين اشتهروا بمعارضته للملك والضرائب التي يفرضها، وقد وصف بالحنكة والاقدام وبخطاباته المؤثرة اضافة الى شخصية اخرى اقل اهمية من الاثنين ويدعى(هالس). كانت التهمة الموجهة لهم هي تحريض الاسكتلنديين ضد انكلترا ومساعدتهم في احتلال اجزاء منها الا انه لم يتمكن اعتقالهم لاختفائهم من قاعة البرلمان بشكل مفاجئ.

ان هذا العمل بالرغم من عدم اكتماله كانت له مدلولات مهمة وخطيرة، اذ يعني ان الحالة المتازمة وصلت بين الملك والبرلمان الى ذروتها وجعل الملك يعتقد بان البرلمان سوف لن يسكت على ما قام به فقرر ترك لندن في اذار من عام ١٦٤٢م الى مدينة(يورك) ومنها الى مدينة(هل) ثم الى(توتنكهام).

لقد عد ترك الملك للعاصمة ايذانا ببدء حالة الحرب بين الملك وانصاره من جهة وبين البرلمان من جهة اخرى فيما اطلق عليها(الثورة الانكليزية) ،اذ أعلن الملك من توتنكهام الحرب على معارضية في اب من نفس العام.

يمكن وصف الواقع البريطاني عشية حصول الثورة من الناحية السياسية والجغرافية بما يلي:

- اشترك في الصراع ٤٠٪ تقريبا من ابناء الشعب الانكليزي بين مؤيد للملك ومعارض.
- التحق(٣٠٠) عضو من مجلس العموم بالثورة ضد الملك فيما الحق(١٥٠) عضو من اعضاء المجلس مع انصار الملك.
- تتفق المصادر على صعوبة تقسيم المتصارعين جغرافيا لوجود تداخل في كل منطقة بين ملكيين او معارضين، الا انه مع مرور الوقت اصبح بالامكان تقسيم القوى المتحاربة الى ان الغرب والشمال الانكليزي كان مع البرلمان بينما كل الشرق والجنوب على الاغلب مع الملك.

- **من الناحية الاجتماعية:**

أ.البرجوازيون من التجار ورجال الصناعة من ابناء المدن كانوا من انصار الثورة تؤيدهم فئة قليلة من صغار النبلاء.

ب.الاقطاعيون ورجال الدين واغلب الفلاحين كانوا مع الملك.

جـ.رجال الجيش كانوا مع الملك لتاصل الروح العسكرية والتقاليد المتوارثة فيهم.
ء.رجال البحرية كانوا يؤيدون الثوار لصلتهم الوثيقة مع الحركة التجارية والحياة الصناعية ورجالها من ابناء الطبقة الوسطى المؤيدين للثورة.

- **من الناحية الدينية:**

أ.الكاثوليك واتباع الكنيسة الانكليكانية مع الملك.
ب.البروتستانت بكل اقسامهم كانوا من انصار الثورة.

من ناحية الموارد المالية للطرفين:

أ.موارد الملك كانت تعتمد على ثروته الخاصة وأملاكة وجواهرة التي رهن معظمها ، فضلا عن اموال الاقطاعيين الذين يؤازرونه والذين تطوع عدد منهم لدعم الملك مادياً الا ان تلك الثروة على كبر أهميتها الا انها وصفت بالناضبة وغير المستمرة.
ب.موارد البرلمان كانت تعتمد على ثروة الطبقة البرجوارية النامية والمستمرة ،فضلا عن القروض التي ثم استحصالها من كبار التجار والموانئ،والضرائب التي تم فرضها على المناطق التابعة للثوار وكان المواطنين يدفعونها بقناعة باعتبارها اكثر شرعية من الضرائب التي تذهب الى ملذات الملك وحاشيته.

من الناحية العسكرية

أ.جيش الملك (بدا ب ١٠ الاف) مقاتل من الجنود المدربين والفرسان الماهرين.

ب.فيما كان جيش الثوار(٢٠) الف مقاتل في بداية الثورة ولكنهم كانت تنقصه الخبرة والقادة المدربين.

من الامور التي تحسب في هذه الثورة بان طرفي الحرب لم يستندوا الى قوة اجنبية كما كان يحصل في السابق وذلك لاسباب عدة من بينها الطبيعة الجغرافية لبريطانيا وكذلك الواقع الأوربي غير المستقر نتيجة الصراعات والحروب التي تعج بها القارة.

لمع اسم كرومل منذ بداية الثورة على الملك واثبت جدارة عالية حتى اصبح من اهم قادة الثوارة.او ليفر روبرت كرومل من مواليد قرية صغيرة في انكلترا تدعى(هوتنغدون) في ٢٥ نيسان عام ١٥٩٩ من عائلة فقيرة. تلقى علومه الاولى في مدرسة القرية على يد احد دعاة البيوريتان المتعصبين وكان هذا المعلم قد وضع كتابا متشددا ضد البابا عنوانه (عدو المسيح بابا روما) ، بعدها التحق في جامعة كامبرج[1] في نيسان من عام ١٦١٦ عندما كان عمره ١٧ سنة. وعلى الرغم من انه لم يبقى في هذه الجامعة الا عام واحد فقط نتيجة وفاة والده وعودته للقرية فقد تعززت نزعته البيورتانية كما واظهر رغبة في دراسة التاريخ والموسيقى.

يوصف كرومل بانه قوي الارادة،طويل القامة، ممتلى الجسم، مربع الراس، عريض الوجه، بارز الوجنتين، منفتح الاوراج، احمر الانف، له

---

[1] جامعة كامبرج:تاسست عام ١٢٠٩ في مدينة كامبردج جنوب شرق انكلترا وتعتبر ثاني اقدم جامعة بعد جامعة اكسفورد التي تعود فترة انشائها الى عام ١٠٩٦ تطورت بشكل كبير عام ١١٦٧، في عام ١٢٣٣ منح البابا غيريغوري التاسع خريجي جامعة كامبرج الحق في التدريس في كل انحاء العالم المسيحي.تتمثل اهمية هذه الجامعة في انها خرجت نخبة مهمة من العلماء =والمفكرين من بينهم نيوتن(الجاذبية) وداروين(علم الوراثة) وليم هارفي(مكتشف الدورة الدموية) وجوزيف طومسن(مكتشف الاكترون) وغيرهم.كان للجامعتين ممثلين لها في البرلمان الانكليزي لفترات طويلة.

شاربان رفيعان وخال في أعلى فمه، حاجباه كثيفان، شفتاه غليضتان ،اما عيناه فكانتا حادتين نافذتين زرقاوين، كان يرخي شعره الكستناني فيسترسل حتى يبلغ كتفية. أي انه حاد الملامح لا تلاحظ فيه رقة الا انه يمتلك هيبة اوكارزما مكنته من ان يكون له دور كبير في ادارة الثورة ومن ثم قيادتها، لقد اظهر كرول مواهب بارعة في القتال حتى سميت فرقته بالفرقة الحديدية لتمييز جنودها بالقوة والصلابة.

مع بداية الصراع حقق الملك وجيشه انتصارات مهمة حتى كاد يستولي على لندن مرات عدة لولا المقاومة العنيدة للثوار، وذلك كون الجيش الملكي كان يتمتع بالتنظيم والتسليح والولاء المطلق للملك.

وعندما وجد البرلمان ضعف قدراته العسكرية من حيث التنظيم والتسليح قرر الاستنجاد بالجيش الاسكتلندي المتواجد في شمال انكلترا، فقد جرت مفاوضات بين الطرفين انتهت الى عقد اتفاقية تالفت من نقاط عدة:

أ.اشتراك الجيش الاسكتلندي في الثورة ضد الملك ويتحمل الثوار كل نفقاته.

ب.الاتفاق على اجراء اصلاحات في الكنيسة الانكليكانية تتوافق مع معتقدات وتوجهات الكنيسة الاسكتلندية.

جـ.اشراك رجال دين اسكتلنديين في مجمع الكهنة الانكليزي الذي انشاه البرلمان لاصلاح الكنيسة.

وطبقا لهذا الاتفاق فقد ارسلت اسكتلندا جيشا في مطلع عام ١٦٤٤ يقارب ٢٠٠ الف مقاتل مما ساعد على تحقيق عدد من الانتصارات والانتقال من حالة الدفاع الى الهجوم.

وبعد وفاة زعيم المعارضة(بيم) صعد نجم كرومل في قيادة الجيش كزعيم للثوار، وقد ساهمت في ذلك سمعته في النزاهة واخلاصه في الواجب وتقبله للمتطوعين المتحمسين للثورة، اذ فاق عدد المتطوعين الذين يقودهم الى(١١) الف رجل قسمهم الى فصائل تحت قيادة اشخاص يثق بهم.

وقد اشتهر كرومل بخطبه الحماسية الى جنودة اذ كان يستثير فيهم الهمة والحماس ومن بين خطبه:((اننا ندعى اليوم الى ان نقيم حصنا منيعا مشيدا يحمي عقائدنا وحرياتنا...ليس من السهل ان ننتصر ونتغلب ..لكننا نُقبل على المعركة مؤيدين بروح اللّه..لنتقدم جميعا أقوياء القلب اشداء العزم)).

لقد اهتم كرومل من خلال قيادته للعمليات الحربية على تعلم اشياء كثيرة لم يكن يعرفها كالتخطيط العسكري وفن ادارة المعارك والبناء المعنوي للثوارة مما اكسبه خبره كبيرة صنعت من كرومل قائدا عسكرياً وسياسياً.

- في شباط من عام ١٦٤٤ الف البرلمان لجنة سميت(لجنة المملكتين) لانها ضمت ممثلين عن انكلترا او اسكتلندا وكان ابرز عضوين فيها هما كرومل واللورد مانشتر كان هناك اختلاف بين الرجلين من الناحية الدينية والسياسية فان كرومل يميل الى فئة المستقلين من البيوريتان(وهم جماعة من البيوريتيان"المطهرين" لهم نظرتهم الخاصة للتدين فهم يشجبون التعصب ويؤمنون بحرية التعبير والتسامح مع اتباع المذاهب الاخرى فضلا عن رفضهم لاي واسطة بين الرب وعبده ويعتقدون ان قراءة الكتاب المقدس كافي لايمان الانسان ولا حاجة للكهنة او الصلوات او أي مظاهر شكلية للتدين).

اما مانشستر فهو يميل الا ما يطلق عليهم (البرسبيتاريون) وهم جماعة متعصبة من البيوريتيان.فضلا عن ذلك فان كرومل لايميل الى أي صلح مع الملك ويعتقد ان استمرار النضال ضده هي الوسيلة الصحيحة لتحقق النصر، فيما يذهب الاخر الى عدم الممانعه من تحقيق الصلح اذا وافق الملك على شروط البرلمان.

خلال هذه الفترة اصدر البرلمان قانونا سمي قانون(التنازل الشخصي) والذي اشار الى عدم جواز الجمع بين عضوية البرلمان والقيادة في الجيش الثوري الامر الذي ادى الى تنازل مانشستر عن القيادة في الجيش ليتفرغ الى البرلمان الامر الذي ساعد على تخلص كرومل من منافسه. في ذات الوقت رفض البرلمان طلب كرومل بالاستقالة من الجيش كونه يمثل قائدا ضروريا في المعارك الدائرة.كما كان لهذا القرار أهمية كبيرة في تخلص الجيش من نفوذ النبلاء وحتى نفوذ البرلمان ليدار من قبل قادته العسكريين فقط.

لقد مثل عام ١٦٤٤ بداية مهمة في انتصارات جيش الثوار، الذي تطور تنظيمه بشكل ساعد على تكوين جيش موحد يخضع لقيادة موحدة ويرتدي زيا موحدا(الون الاحمر لان انصار الملك كانوا يرتدون القمصان البيضاء والزرقاء).

وخلال الاشهر الاولى من عام ١٦٤٥ خاض الجيش الثوري معارك حاسمة من اهمها معركة(نازيبيي) بقيادة كرومل والتي اسر فيها اكثر من (٢٥ الاف) جندي من جيش الملك فضلا عن الغنائم المادية، الامر الذي ادى الى تراجع قوات الملك وتحول الحرب الى حرب عصابات حاول انصار الملك من خلالها الاعتصام بالقلاع والحصون، الا ان كرومل تمكن من السيطرة على تلك القلاع من خلال الحصار الطويل او من خلال الهجوم

كما حصل في حصن(لريستول) الذي استسلم فيه كل الجنود في ٢٠ ايلول من عام ١٦٤٥م، وكذلك حصار قصر(راغلان) الذي كان سقوطه اعلانا لانتصار الثوار وهروب الملك الى اسكتلندا(موطن عائلته) ذلك في اب من عام ١٦٤٦ واعلان استسلامه لتنتهي الحرب بانتصار الثوار.

ان الانتصار في الحرب الاهلية لم تكن نهاية المطاف اذ برزت في المرحلة اللاحقة لاستسلام الملك صعوبات اكبر تمثلت في الأجابة على تساؤل مهم وهو(من يدير البلاد؟) فلم يكن هدف الثورة المعلن خلع الملك بل كان السعي لتحقيق الاصلاح وتحديد سلطة الملك وايقاف سياسية الاستبدادية، الا انه الان وقد انتهت الحرب وجدت البلاد نفسها بدون حكومة شرعية وهنا ظهرت لدينا ثلاث توجهات في هذا المجال

١. انصار الملك من الاقطاعيين والتابعين للكنيسة الانكليكانية ويعتبر هؤلاء شارل الاول ممثلا للسلطة الشرعية التي لايمكن التنازل عنها.

٢. البرلمان واكثر انصاره من البيوريتان(البرسبتاريون) ويعمل هؤلاء على استمرار البرلمان في الحكم واقامه حكومة دستورية تحت سلطة الملك المقيدة يؤيدهم في ذلك الاسكتلنديون الذين يتعاطفون مع الملك باعتباره ينتمي عائليا لهم.

٣. الجيش الثوري والذي كان سببا لتحقيق النصر كانت تسوده الاهداف السياسية التي سعى من أجلها في الاصلاح وكذلك القيم الاخلاقية اذ كان اغلبهم من المستقلين وتتحدد مطالبهم باعلان سلطة الشعب من خلال التصويت الشعبي وقد طبق هؤلاء التصويت في ادارة شؤونهم الداخلية وفي انتخابات قادتهم.

كـان الـدور السياسـي في هـذه المرحلـة يقـوده البرلمـان والـذي دخـل في مفاوضـات مـع الملـك في ايـار مـن عـام ١٦٤٦ الا انهـا لم تفضـي لاى شـيء يذكـر. كـان البرلمان يخشى نفوذ الجيش الثوري وقادته لذلك كـان يعمـل علـى اعـادة الملك وسـلطاته وهيبتـه مـدعوم مـن قبـل انصـاره لـذا فقـد عقـد البرلمـان اتفاقـا مـع الاسـكتلنديين بتسـليمهم الملـك مقابـل اطفـاء قسـم مـن ديونهم الى انكلترا. وفي كانون الثاني عام ١٦٤٧ نقل الملك الى قصـر(هـو لمـبي) في مقاطعـة تورنـامبتون في انكلـترا عنـدها انحسـب الجـيش الاسكتلندي باتجاه حدودة.

كـان لعودة الملك تعزيـزا لسلطة البرلمـان الـذي عمـل علـى تحجيم قـوة الجيش الثوري من خلال اصدار قرار تقليص عـدده وتسـريح قادتـه، الا ان الجـيش رفـض ذلـك القـرار واجتمـع كـرومـل في منزلـه في لنـدن مـع قـادة الجيش في آيار من عام ١٦٤٧ وقرروا ارسال قـوة الى القصـر لاعتقـال الملـك في ذات الوقت تقرر ان تزحف قوات اخرى باتجـاه لنـدن للسيطرة عليهـا،اذ تم الاعـلان(ان السـلطة المطلقـة خطـر اذا كـانـت بيـد الملـك او بيـد البرلمـان وان الشعب هو صاحب السلطة الاولى وان ارادته فوق كل ارادة).

عندها اصبحت البلاد تدار من قبل لجنة تتألف من ابرز قـادة الجـيش وهـم كرومل وأيرتون و فيرا فاكس اما مجلس العموم فقد هـرب معظـم قادتـه وفقد مجلس اللوردات اهميته.

الا ان الملـك شـارل الاول اسـتطاع الهـرب مـن معتقلـه في ١٥ تشـرين الثـاني ١٦٤٧ وعقـد اتفاقـا مـع الاسـكتلنديين بمسـاعدته للقضـاء علـى معارضـية مقابـل تنـازلات دينيـة وسياسـية، وبموجـب هـذا الاتفـاق اجتـاز الجـيش الاسـكتلندي الاراضـي الانكلزيـة مجـددا يسـاعدهم انصـار الملـك في

الداخل، وهنا قرر كرومل مواجهة الموقف بحزم(ولن يتوقف القتال الا بأعدام الملك).

ونتيجة للحماس والخبرة تمكن كرومل بجيشه المنظم ان ينتصر على القوات الاسكتلندية وياسر منهم آلاف الجنود ،ولم يكتف بذلك فقد سار باتجاه اسكتلندا نفسها ودخلها ومكن المعارضين من استلام السلطة ثم عاد الى لندن.

وعلى الرغم من استغلال البرلمان لغياب كرومل فيها ومفاوضتهم للملك فان من تبقى من قادة الجيش قرروا حل البرلمان وانشاء حكومة مؤقته،وتم اعتقال الملك الموجود في جزيرة تدعى(ويغت) كما تم اعتقال عدد من اعضاء البرلمان واقصاء عدد اخر ولم يتبقى من اعضاء مجلس العموم سوى خمسين نائبا من اصل(٥٠٤) انتخبوا منذ عام ١٦٤٠ في عملية اطلق عليها تطهير برايد(PRIDES PURGE) نسبة الى القائد العسكري الذي قاد عملية التطهير، يشير المؤرخون الى ان بهذا الاجراء تم الانتهاء من مرحلة ما اطلق عليها(البرلمان الطويل) وبدا عهد جديد اطلق عليه(البرلمان الذنب) لخضوعه لسلطة قادة الجيش الثوري. شكل كرومل محكمة من ١٣٠ مفوضا في ٦ كانون الثاني عام ١٦٤٨ للنظر في محاكمة الملك، كما تقرر ان مجلس العموم يحكم باسم الشعب وليس باسم الملك لذا لاحاجة لمصادقة الملك او مجلس اللوردات على قراراته وانه ينتخب عن طريق التصويت العام للذكور.

عقدت المحكمة جلساتها في ١٩ ك ١٦٤٦ واصدرت حكما باعدام الملك شارل الاول بتهمة كونه (طاغية وخائنا وسفاحا وعدوا عاما لابناء الامة الطيبيبن) ونفذ الحكم فيه بعد ٣ ايام بالرغم من محاولات انقاذه من قبل

قادة محليين واوربين الا ان كرومل كان حاسما في قرار اعدامه وقد علق على جثته قائلا (انها ضرورة قاسية)[١].

لابد التاكيد هنا ان الثورة الانكليزية لم تكن لاسباب اقتصادية او اجتماعية كون المجتمع الانكليزي مستقر وينمو نموا طبيعيا وفيه من الموروثات القانوينة والاجتماعية ما يساعد على تماسكه ووحدته الا ان الانقسام الديني الذي بدأ في اوربا وامتد الى انكلترا ودعم الملوك لفئة دون اخرى اجج الصراع الذي انتهى الى ثورة ومن ثم الى جمهورية ديكتاتورية، حتى في تفاصيل الصراع خلال هذه الثورة كانت كل الاتفاقات لاسيما مع الاسكتلنديين تشير الى الامور الدينية ومحاولة سيطرة مذهب على اخر مما كان ذلك اهم محور من محاور تأجج الصراع

عصر الجمهورية في انكلترا

بعد اعدام الملك في ٣٠ كانون الثاني عام ١٦٤٩ قرر مجلس العموم في ١٩ ايار ان انكلترا اصبحت جمهورية(ودولة حرة تحكمها سلطة الامة العليا بواسطة ممثلي الشعب في البرلمان والذي يتم تعيينهم خدمة للشعب)

اعقب ذلك الغاء مجلس اللوردات وعدوه يمثل خطرا على البلاد بما يمثلة من تاييد للملكية ولمورثاتها التي تمت الثورة عليها والاطاحة بها.

واعلن ايضا في مجلس العموم ان صلاحيات الملك تشكل عبئا وخطرا على حرية الشعب وسلامته ومصالحه،لذا تقرر الغائها وتحويل السلطة

---

[١] اثار اعدام الملك ردود فعل مختلفة لدى الشعب الانكليزي وتم رفع راسه على الرماح بعد اعدامه واختلطت هتافات المناؤين مع بكاء وحزن جماهير كثيرة من ابناء الشعب الذين يوقرون الملكية ويحترمونها باعتبارها مؤسسة عريقة في المجتمع الانكليزي.

التنفيذية الى مجلس سمى(مجلس الدولة) يقوم مقام سلطة الملك ويتالف من(٤١) شخصا ينتخبون بالتصويت المباشر في البرلمان واحدا واحدا(أي ليس انتخابهم بقائمة واحدة) وقد اطلق عليهم تسمية المستشارين وكان كرومل واحد منهم.

تراس هذا المجلس شخصا يدعى(برادشو) وكان شغل منصب رئيس المحكمة العليا التي قضت باعدام الملك، كما عين الشاعر والاديب الانكليزي(جون مبلتون) امين سر المجلس، وقد عرف عن هذا الاديب اخلاصة الكبير للجمهورية ومقاومته للاستبداد والطغيان الملكي وقد اصدر هذا الاديب كتابا برر فيه عملية اعدام الملك عنوانه: ((الدفاع عن الشعب الانكليزي))[١]

لقد قامت الحكومة الجديدة باعمال عديدة من بينها:

أ. اصلاح المحاكم والقوانين بما يتناسب والعهد الجديد.

ب. محاكمة قواد الملك و اعدام قسم منهم.

ت. تعيين رؤساء جدد للاسطول الانكليزي استعدادا للدفاع عن الجمهورية

لقد كان رد الفعل لدى الدول الاوربية عنيفاً ومنفعلا من عملية اعدام الملك باعتبارها انقلابا عن الشرعية التي اعتبروها إلاهية، لذا لم يعترفوا بقيام الجمهورية في انكلترا وبدأوا بمقاومتها بكل الوسائل المتاحة ومن ابرزها مقاطعة البضائع الانكليزية لاسيما من قبل فرنسا، فضلا عن

---

[١] بعد عودة الملكية وهزيمة الجمهورية كتب هذا الشاعر قصيدة مؤثرة سميت(الفردوس المفقود) رثى فيها ضياع الجمهورية ومبادئها التي افنى حياته من اجلها.

مهاجمة السفن الانكليزية في البحار للتاثير على تجارتها، وقد تم اغتيال ممثل الجمهورية الانكليزية في لاهاي.

الا ان ابرز ما قامت به الدول الاوربية العمل على دعم القوى الانكليزية المعارضة للجمهورية ومن ابرز هؤلاء الملكين كان يرأسهم ضابط يدعى(مونتروز)، اذ قام هذا بتأليف جيش من انصار الملكية والناقمين على الوضع الجديد في انكلترا كان هدفه المعلن اعادة الشرعية الملكية الى انكلترا واصبحت المانيا مقرا لهذا الجيش.

لقد واجهت السلطة الجديدة تحديات عدة ابرزها ظهور اتجاهات ثورية متطرفة لدى افراد الجيش الذي قام بالثورة على الملك، مع ظهور تيارات اخرى يمينية متطرفة، اضطر معها كرومل الى شن حملة عنيفة ضد هذه الفئات وأعتبارهم متمردين على الجمهورية ويمثلون خطرا على مستقبلها، لذا قام باعتقال اعداد كبيرة منهم وتمت محاكمتهم وتقرر اعدام قسم منهم .مثلت عملية تطهير الجيش بالشدة والحزم الذي تصرف بها كرومل مع اشخاص كان يوما يقودهم في حربهم ضد الملك قد اعطت اشارات واضحة الى قوة كرومل ومدى نفوذه وكذلك الى وضوح أهدافه وطموحه، حتى اعتقد الناس انه يريد أن يصبح ملكا على انكلترا، الا ان هذا التوقع سرعانما انتهى عندما رفض كرومل لقب الملك فيما بعد.

من التحديات الخطيرة الاخرى هو التمرد الايرلندي الذي لم يعترف بالجمهورية وأعلن أخلاصه للملكية، لذا قاد كرومل حملة للقضاء على الثورة هناك في حزيران عام ١٦٤٩ وذلك بتكليف من البرلمان ويعتقد ان اعضاء البرلمان كانوا يهدفون الى ابعاد كرومل عن لندن للحد من طموحاته التي كان يخشاها اعضاء البرلمان نتيجة لما يتمتع به من قدرات وهيبة ونفوذ على المؤسسات المدنية والعسكرية في لندن الا ان كرومل

استطاع ان يحقق انتصارات باهرة في ايرلندا نتيجة للقسوة والشدة التي اظهرها مع الثوار الايرلنديين اذ دمر مدنهم وقتل اعداد كبيرة منهم، اذ كان يعتقد انه كان ينظر نظرة سيئة للايرلنديين حتى انه اعتبرهم ادنى منزلة من الانكليز.

ونتيجة للقسوة البالغة التي تعامل بها مع الثوار ومقدار الرعب الذي زرعه في مدنهم ونفوسهم فقد استسلموا لكل شروط كرومل و قام بتعيين عدد من انصاره الانكليز في ادارة ايرلندا على راسهم ابنه(هنري) كحاكم عام في ايرلندا وهو من ابرز ابناءه واكثرهم مقدرة ادارية على الرغم من انه ليس اكبر ابناءه، عاد بعدها الى انكلترا منتصرا في ٢٦ ايار عام ١٦٥٠.

ولم يمض وقت طويل حتى أعلنت اسكتلندا ثورتها على الجمهورية وذلك لاسباب عدة من ابرزها:

أ.ان اعدام الملك مثل عملية مرفوضة من الاسكتلنديين اذ عدوه انتهاكا لحرمة ملكية ال ستيوارت الاسكتلندية الاصل.

ب. وصول انصار الملكية وزعيمهم(مونتروز) الى اسكتلندا المدعومين من الدول الاوربية بهدف جعلها منطلقا لحربهم ضد انكلترا.

جـ.اتفاق شارل الثاني(ابن شارل الاول المعدوم) والذي اعتبر نفسه الملك الشرعي لانكلترا مع الاسكتلنديين على اعلان الثورة بعد ان استجاب لمطالبهم لاسيما الدينية منها.

لذلك كله فقد قاد كرومل جيشا باتجاه اسكتلندا في حزيران من عام ١٦٥٠ وقد حمل لقب(القائد الاعلى لجميع القوات المسلحة في الجمهورية الانكليزية).

وبعد مناوشات وحالة من حرب العصابات المنهكة التي ادت الى اعتلال صحته استطاع كرومل من الانتصار على الجيش الاسكتلندي وقتل واسر الالاف من جنوده ومن بين الاسرى القائد (ليسلي)، اما الملك شارل الثاني فقد تمكن من الهرب الى فرنسا عبر الغابات.

لقد اظهرت الحربين في ايرلندا واسكتلندا المقدرة العسكرية والادارية الكبيرة لكرومل ومدى سعة نفوذه وحزمه مما هيا له الظروف لكي تكون له السيطرة الكاملة في ادارة السلطة في انكلترا على الرغم من تاثر صحته بشكل كبير نتيجة ماعاناه خلال معاركه خلال الثورة او بعدها، فقد وصف بانه كان يبدو كهلا على الرغم من ان عمره لم يكن يتجاوز (٥٢ عام).

لقد أستقبل في لندن بعد انتصاره في اسكتلندا استقبالا حافلا من قبل الجماهير والبرلمان وكبار الموظفين في احتفال كبير يتقدمة موكبا كبيرا للفرسان وتحيط به الناس. ترافق ذلك مع اطلاق المدفعية نيرانها احتفاءا به، كما قرر مجلس الدولة رفع رايته الى أربعة الاف ليرة سنويا ومنحه قصرا ملكيا هو قصر(هميتون كور)، الا ان ذلك كله لم يجعل كرومل مغرورا او طموحا الى الالقاب واستمر عضوا في (مجلس الدولة) على الرغم من ان سلطته كانت هي الفيصل في عمل هذا المجلس رافقت انتصاراته الداخلية انتصارات خارجية لاسيما في البحر ضد هولندا وكذلك ضد فرنسا الامر الذي ساعد على اعتراف هاتين الدولتين بالجمهورية الانكليزية.

عمل كرومل في هذه المرحلة على معالجة عدد من القضايا الداخلية التي أعتبرها ملحة من بينها الجيش الذي فيه اعداد الكبيرة تقدر باكثر من(٥٠) الف جندي يستهلكون اموالا طائلة من ميزانية الدولة ويؤثرون

على اقتصادها ، اذ تقدر الاموال التى تنفق على الجيش ما قيمته(مليون ونصف) ليره سنويا ،لذا فقد فكر كرومل بتقليص تلك الاعداد من خلال تسريح قسم منهم لاسيما ان بعض قادة الجيش كانوا يتدخلون بالشؤون السياسية ، لم يكن من احد له القدرة على فكرة تسريح الجنود سوى كرومل الذي اتخذ اجراءته بقوة وحزم.

التفت كرومل الى وضع البرلمان الذي كان منتخبا قبل الثورة أي منذ(١٢) عاما وان اغلب اعضاءه تم طردهم ولم يبقى سوى (٥٠) عضوا فقط.وقد اتهمهم كرومل بالفساد وتعاطي الرشوة كان ذلك عندما حضر كرومل الى البرلمان (عام ١٦٥٣م) مع مجموعة من الفرسان وخطب في اعضاءه بلهجة غاضبة مبينا عيوبهم ونواقصهم، ثم امر الفرسان باخراجهم معلنا حل البرلمان مبررا ذلك بان الاعضاء كانوا(يهدفون الى اغراض انانية).

كما نه وجد ان(مجلس الدولة) لم يكن بمستوى المسؤولية ولم يحقق أي اصلاحات في الدولة فضلا عن انه ليس له اساس دستوري يستمد منه الشرعية لذا امر بحله ايضا وقد ايدت الجماهير حل البرلمان ساخرة من اعضاءه، كما وردت رسائل التائيد من اسكتلندا وآيرلندا على تلك الخطوات.

لقد جاء حل البرلمان ومجلس الدولة كدليل جديد على مدى سعي كرومل للتفرد بالسلطة واطلاق يده في ادارة لبلاده ،وقد عين في هذه المرحلة مجلسا استشاريا مكونا من عشرة اعضاء سبعة عسكريين وثلاثة مدنيين لادارة البلاد لحين انتخاب البرلمان، واعلن انه سيدعو لانتخاب برلمان جديد.

جاءت انتخابات المجلس الجديد وفق الية جديدة يتحكم بها كرومل نفسه،اذ تختار الكنائس(البيورتانية) في كل مقاطعة الاشخاص الذين

يتصـفون بـالاخلاص في تمثيـل الشـعب والمعـروفين بالامانـة والاسـتقامة الوطنيـة، مـن هـؤلاء يختـار كرومـل(١٥٠) شـخص ممـن يعتبرهـم الاشـد التزاما دينيا ليتشكل منه البرلمان الجديد والذي اطلق عليه تاريخا(برلمان القدسيين).

افتتح كرومل هذا البرلمان في ٤ تموز(يوليو) عام ١٦٥٣م معتبرا ان انتخاب هذا البرلمان يمثل(عهدا جديدا في انكلترا والعلم فهو يمثل عهد الفضيلة والاصلاح الذي يستتب في ظله العدل والسلام) جاء ذلك في خطاب مطول لكرومـل اسـتمر لسـاعتين كـان في محتـواه يمثـل موعضـة دينيـة مفعمـة بالمشاعر.

وفي الجزء الثاني من تلك الجلسة خطب الاعضاء(وهم من المتدينين) بنفس الوتيره من المواعظ الدينية والأدعية وأحيانا يتخلل تلك الخطب صفحات كاملة من التوارة والانجيل. أتخذ البرلمان الجديد مجموعة من القرارات والتي اعطت انطباعا مغايرا لتوجهاته الدينية وفيه توجه علماني منها:

- ان يكون الزواج مدنيا في المؤسسات الحكومية وليس الكنيسة.
- تسجيل المواليد والوفيات في سجلات الدولة.

الا ان عدد من الاصوات تصاعدت في البرلمان لالغاء القوانين التي تحدد حريات المواطنين وان يكون الدين والكتاب المقدس هو محور الحياة الاجتماعية وعندها لايكون هناك حاجة الى مؤسسات الدولة او البرلمان فيما اعتبر توجها طوباويا خطيرا نظر اليه الناس بانه محاولة لأشاعة الفوضى الامر الذي ادى الى تصاعد المطالب لحل البرلمان وهو ما أستجاب له كرومل وأمر باصدار مرسوم حل البرلمان.

واجه الاعضاء المتطرفين قرار الحل ورفضوا اخلاء مقاعدهم باعتبارهم مختارين لاداء الواجبات الالاهية لذا فقد امر كرومل باجبار هؤلاء الاعضاء على ترك القاعة بقوة السلاح.

في هذه المرحلة تصاعدت لدى كرومل الرغبة لحكم البلاد حكما مطلقا ولكن تحت مبررات دينية، اذ اعتبر نفسه قديسا وجد ليحكم البلاد بما يمليه عليه واجبه الذي نذر نفسه له لتنفيذ ارادة الله، ووجد كرومل ان الاعتماد على قوى اخرى فيه مخاطر على البلاد لان البرلمانيون ثبت انهم مناورين وأنانين والجنود في ثورة دائمة والبرجوازيون يبحثون عن مصالحهم،لذا فقد سعى كرومل لايجاد سلطة ديمقراطية حسب رؤيته من خلال انشاء نظام سياسي جديد ووضع دستور. وانتدب لتحقيق ذلك مجلس جديد للدولة كانت اهم اعماله وضع دستور جديد للبلاد والاشراف على انتخاب برلمان جديد.

الا ان اول عمل قام به البرلمان المنتخب في اواخر عام ١٦٥٣ تنصيب(اوليفر كرومل) كحامي للجمهورية وهو لقب جديد يحمل معاني ثورية وفي ذات الوقت دلائل على ترفع كرومل على الالقاب من اجل ايصال رسالة انه صاحب مشروع مقدس وليس حاكم او ملك يهدف الى السلطة. وعلى الرغم من ذلك فقد تم تنصيبة باللقب الجديد بمراسيم فخمة تشبه مراسيم تنصيب الملوك.

كان اول عمل قام به(حامي الجمهورية) اقراره للدستور الجديد للبلاد والذي اعطي فيه صلاحيات واسعه منها منحه لقب(صاحب الجلاله حامي الجمهورية) ويمنح ايضا اموال الملك وصلاحياته كقيادة الجيش وله حق اعلان الحرب والسلم ومن اهم مهامه ترسيخ المذهب البروتستانتي كما اقر الدستور وجود سلطة تنفيذية تعمل مع(حامي الجمهورية) وهي(مجلس

الدولة) والذي يضم(٢٤) عضوا يحق لكروميل تعينهم وعزلهم، وفي حالة خلو أحد مقاعد المجلس فان البرلمان يقترح ستة اسماء يختار حامي الجمهورية واحدا من بينهم لشغل المقعد.

اما البرلمان فانه يضم ممثلين عن انكلترا واسكتلندا وايرلندا ويكون انتخابه كل ثلاث سنوات، يجتمع سنويا بما لا يقل عن خمسة اشهر، وله مهمة سن القوانين وتحديد الضرائب وأقرار موازنة الدولة. وفي خطوة اعتبرت تطورا في تلك المرحلة الزم الدستور (حامي الجمهورية) بالالتزام بقرارات وتشريعات البرلمان التي تكون ملزمة التطبيق دون الحاجة الى موافقة (حامي الجمهورية) مع اعطاءه حق الاعتراض على القرارات لمدة عشرين يوما، فضلا عن ذلك فقد وسع كرومل حق المشاركة السياسية من خلال شمول طبقات اوسع من المجتمع في الانتخابات وذلك بتخفيض شروط التصويت التي شملت كل فرد يملك مائتي ليره استرلينة بعد ان كانت الشروط اصعب من ذلك بكثير.

لقد انقسم المجتمع الانكليزي بين معارض لكرومل ومؤيد له في الوقت الذي وجدت فيه الطبقة الوسطى والبرجوازية من رجال الاعمال وغيرهم قائدا حازما يفرض السلم والامن الداخلي الضروري لتحقيق التطور الاقتصادي والصناعي، الا ان الصلاحيات التي اعاطها كرومل لنفسه اثارت عليه معارضه واسعة ليس فقط بين انصار الملك وانما حتى من بين انصاره الذين عابوا عليه صلاحياته الواسعة التي تشبه صلاحيات الملك السابق الذي ثاروا عليه[1].

---

[1] وقد علق كارل ماركس فيما بعد على شخصيته كرومل(انه مثل في الثورة الانكليزية دور روبسير في الثورة الفرنسية الا انه ما لبث ان تحول الى دور نابليون فيما بعد).

هذا الاختلاف حول صلاحيات (حامي الجمهورية) انعكس على جلسات البرلمان المنتخب الذي عقدت في ١٣ ايلول عام ١٦٥٤، اذ ناقش البرلمان موضوع اعادة كتابة الدستور و بالتحديد محاولة اعادة النظر بصلاحيات(حامي الجمهورية) من خلال تقليصها فضلا عن اقتراح ان يكون مسؤولا امام البرلمان، الا ان كرومل رفض هذه التوجهات وعمل على منع اقرارها بالقوة ،اذا ارسل حرسه الى قاعة البرلمان لايقاف النقاشات حول هذه التعديلات الدستورية ثم القى في عدد من اعضاء البرلمان خطابا أشار فيه الى انه عمل على قيادة الدولة بوحي من اللّه وتنفيذا لارادته وانه تنازل او تخلى عن جزء من صلاحياته الى البرلمان ليكون هناك عمل مشترك في ادارة الدولة. ثم طلب من اعضاء البرلمان اداء قسم احترام الجمهورية ودستورها ،وقد ادى(٣٠٠) عضو هذا القسم فيما استقال الاخرون رفضا للتوقيع على القسم.

وبالرغم من ذلك كله فان كرومل وجد ان البرلمان يتناقض مع توجهاته ورغباته واتهم اعضاء البرلمان بعدم الجدية والنفع قائلا لهم(ان الاشجار تنبت في ظل اشجار اخرى اما انتم فلا تنبت في ظلكم الا الشوك والعليق).كان هذا التوجه يتفق تماماً مع ايمانه بان سلطته وحدها تكفي لادارة الجمهورية ،لقد اوجدت سلطة كرومل المركزية القوية مناخا مناسبا للاستقرار مما هيأ الاجواء لنمو وازدهار الاقتصاد مع ان تلك المركزية لم تمنعه من منح هامشا مهما من الحرية التي لاتتعارض مع سياسته وتوجهاته، على سبيل المثال انه منح الحرية الدينية للكاثوليك على الرغم من كونه بروتستانتيا ولكن في ذات الوقت ضيق على الحريات المتعلقة بالاخلاق، اذ شن حملة شديدة على الملاهي الليلية ودور القمار وبيوت الدعارة بل انه انزل عقوبات صارمة على اصحابها.

بعد اكثر من عام وثمانية اشهر على حل البرلمان دعا الى انتخابات لبرلمان جديد وذلك لحاجته لغطاء دستوري وقانوني لفرض الضرائب التي يحتاجها في حروبة الخارجية ونفقاته الداخلية وذلك عام ١٦٥٦م.الا انه سرعان ما دخل في خلاف مع البرلمان الجديد على امور عدة اهمها النفقات الحربية ،فضلا عن موضوع الحريات الدينية والتي كانت من اكثر المواضيع اثارة للصدام بين كرومل والبرلمان لاسيما في قضية(جيمس تايلرر)[1].

خلال تلك الفترة ازدادت المؤمرات الداخلية والخارجية التي تستهدف حياة كرومل شخصيا من خلال محاولات اغتياله بدعم مباشر من عدد من الدول الاوربية لاسيما اسبانيا التي كانت في حالة حرب وتنافس تجاري مع انكلترا ،الامر الذي اثار مخاوف القوى السياسية الداخلية في انكلترا حول من يخلف كرومل فمينا اذا نجحت محاولات الاغتيال لذا فقد اقترح البرلمان ان يحمل كرومل لقب الملك ويحكم بموجب الدستور الملكي القديم وذلك بهدف سحب مبررات اغتياله من جهة وضمان خليفة له بشكل شرعي وهو ابنه الاكبر حسب القوانين الانكليزية.

وبالرغم من معارضة قادة الجيش الا ان كرومل اقنعهم ان الامر يعود الى البرلمان تحديدا ، وفي ٢٤ اذار عام ١٦٥٧م صادق البرلمان على قرار ينص

---

[1] عام ١٦٥٦ ادعى رجل يدعى جيمس تايلور انه المسيح وعاد لانقاذ البشر، مما عده البرلمان خروجا عن الدين وادعاء يستحق عليه العقوبة وتمت محاكمته وعوقب بالاعدام وبعد تدخل كرومل عدل الحكم الى السجن المؤبد مع الجلد والكي الا ان كرومل رفض هذا القرار ووجده معارضا للحرية الدينية بل ومخالفا صلاحيات البرلمان الأمر الذي جعل كرومل يفكر في الحد من سلطة البرلمان باعادة مجلس اللوردات.

علـى(ان يسـمح صـاحب الجلالـة(حـامي الجمهوريـة) بـان يقلـد اسـم"ملـك انكلترا واسكتلندا وايرلندا" وأبهته ومقامة ووضعيته...).

وعكـس كـل التوقعـات فقـد رفـض كرومـل قبـول اخـذه لقـب (الملـك) كأسم له بدلا مـن(حـامي الجمهوريـة) وابلـغ المجلس بهـذا الـرفض بـالرغم من كل الجهود التي بذلت لاقناعة لاكثر من خمسة اسابيع.

وقد اشار المؤرخون الى ان رفض كرومل لهذا اللقب كان لاسباب مبدئية وليس ادعاء بشيء، وذلك كونه يحرص علـى ان يبـدو انـه لايملك طموحا شخصيا بحكم انكلترا كملك لاسيما انـه ثـار علـى الملك في السـابق، وعلـى صـلاحياته كمـا انـه يريـد ان يؤكـد مـا قالـه سـابقا مـن انـه يعمـل بـوحي مـن ارادة الله وانـه لايريـد خيانـة مبادئـه الـتي حـارب مـن اجلـها مـع اصدقائه قادة الجيش.

الا ان هناك من يشير الى ان السبب الحقيقي لرفضه لقب الملك هو تخوفه من الحد من صلاحياته وتقييده من قبـل البرلمـان لانـه سـيعمل وفـق القـانون القديم الذي حدد صـلاحيات الملك ومـع انـه رفـض اللقب الا ان وافـق علـى تعـديل الدسـتور في منحـه سـلطات الملك دون حملـه لقبـه وهـذا يخولـه حـق تعين اعضاء مجلس الوردات وحق تعينة ولي العهد مع عـدم منحـه صـلاحية حل البرلمان الا بموافقة اعضـاءه. وقـد اتفـق كرومـل واعضـاء البرلمـان علـى تطبيـق التعـديل الجديـد للدسـتور وبـدا ان ابنـه الاكـبر ويـدعى (ريتشـارد كرومـل) مـن يخلـف أبـاه في الحكـم لـذا عمـل كرومـل علـى تـدريب أبنـه علـى اسـلوب ادارة الدولـة مـن خـلال منحـه عـدد مـن المناصـب الاداريـة والعسكرية.

عندما اختار كرومل اعضاء مجلس اللوردات كان القسم الاكبر منهم هم من اعضـاء مجلس العمـوم(البرلمـان) لـذا اصبحت مقاعـدهم شـاغرة في

هـذا المجلس، الامـر الـذي دعـا كرومـل الى السـماح للاعضـاء المعارضـين لكرومل الذين انسحبوا منه بالعودة اليه. لذا عندما افتتح اجتماع مجلس العمـوم في ٢٠ كـانون الثـاني ١٦٥٨ بـرزت المعارضـة الشـديدة لكرومـل لوجـود مجلس اللـوردات الـذي عـدوه أعـادة لانتـاج النظـام الملكـي القـديم الذي ثاروا عليه لـذا فلم يسموه باسمه وانما اطلقـوا عليـه(المجلس الآخـر) وان مجلس العموم هو المجلس الشرعي الوحيد.

لم ينتهـي الانقسـام في السـلطة التشـريعية حـول وجـود مجلـس اللـوردات بالرغم من محاولات كرومل لاقناع مجلس العموم بضـرورة وجـود(المجلس الاخـر) كونـه سـلطة محايـدة بـين السـلطة التنفيذيـة والبرلمـان، اذ أصـر مجلس العموم على موقفهم الامر الذي دعا كرومل في ٤ شباط ١٦٥٨ الى حل البرلمان واعتقل عـدد مـن قـادة الجيش السـاخطين علـى قـراراه لاسيما قرار اعادة مجلس اللوردات.

لقد اثرت هذه الاحداث والصراعات الداخلية المحتدمة علـى صـحة كرومل وعلى نفسية التي انسحبت بالحزن العميق، اذ ادت هـذه المشـاكل وما تحمله من معاناة خلال السنوات السابقة الى اعتزالـة في قصـرة وتفـاقم الامراض عليه والتي جعلته يعاني من الام شـديدة فضـلا عـن نوبـات الحمـى وظهور حصاة المثانة عنده وداء المفاصل مع ظهور ندب بارزة في ظهره(دمـل) وجـاءت وفـاة ابنتـه اليزابـث لتزيـد مـن حزانـه وألامـة وأمراضـة الامـر الـذي جعله يبتعد عن ادارة شؤون الدولة.

ومع كل هذه المعاناة الا ان المؤرخين يشـيرون الى تشـبث بـالحيـاة اذ قال لاجد اطباته(انتم الاطباء تعتقدون أني سـاموت..انـي أوكـد لكـم انـي لن اموت الان...اني اقول الحقيقة..ان الله هو الذي اعطاني هذا الجواب).

في ٣ ايلـول عـام ١٦٥٨ تـوفي كرومـل وهـو يـردد(ان مـن الهـول ان يمثـل الانسان بين يدي الاله الحي).
لم يكن خليفة كرومل ابنـه ريتشارد بالامكانيات والقدرات التي تمتع بها ابوه اذ اتسم بالضعف وعدم القدرة على ادارة الدولة وسط معارضة واسعة، لذا فقد تخلى عن لقب(حامي الجمهورية) في اذار عن عام ١٦٥٩م.
اجريت انتخابات لتعيين برلمان جديد عقد اولى جلساته في ١٦ ايار ١٦٦٠ وكان اول عمل قام به البرلمان توجيه الدعوة الى شارل الثاني المتواجد في هولندا ليكون ملكا على انكلترا باعتباره يمثل الشرعية التي يتفق عليها الجميع.
في ٢٩ ايار ١٦٦٠ تم تنصيب شارل الثاني ملكا على انكلترا في الذكرى (الحادية عشر) لاعدام والده، كان اول الاعمال التي قام بها الغاء القوانين التي صدرت في عهد كرومل ،كما قام باعتقال الثوريين وأعدم عدد منهم وعلق رؤوسهم على ابواب العاصمة لندن.
ليس هذا فحسب بل هو حوكم كرومل وعدد من الشخصيات التي توفيت وتقرر اخراج جثثهم من القبور، وعلقت رؤوسهم في ٣٠ كانون الثاني عام ١٦٦١ على ابواب لندن انتقاما لإعدام شارل الأول.
وعلى الرغم من سياسية شارل الثاني وخليفته جيمس الثاني في محاولة محو او الحد من قرارات وتأثيرات ثورة كرومل الا ان قيمها ومبادئها وروحها بقت قائمة حتى انها انتجبت ثمارا تمثلت في ثورة عام ١٦٨٨(الثورة المجيدة)، والتي مثلت صفحة جديدة ومهمة في تاريخ انكلترا.

الفصل الحادي عشر
عودة الملكية واستمرار التوثب للثورة ضدها

لم تـأت عـودة شـارل الثـاني الى الحكـم بـدون شـروط، اذ تعلـم البرلمانيون وباقي القوى الاجتماعية من الماضي بان لاتعود الملكية الا وفق المبادئ التي تصيغها تلك القوى.

لذا فقد جاءت عودة شارل الثاني وفق(اعلان بريدا) وهـي مدينـة في هولندا وذلك في نيسان من عام ١٦٦٠. تضمن هذا الإعلان تأكيد الملك الجديد على مبادئ(الماكناكرتا) وكذلك على مبادئ(ملتمس الحقوق) الذي وافق عليه والده عام ١٦٢٨م، كما تعهد باستقلال الشؤون الدينية فضلا عن ترك الأمور المالية للبرلمان، وتعهد بان البرلمان مستقل في قراراته وسلطاته لذا فقد اقر بعدم التدخل في سياسيته، كما وافق على اصدار عفو عام عن كل الذين اشتركوا في أحداث الثورة مع استثناء الذين ساهموا باعدام والده.

عندما اعتلى شارل الثاني عرش انكلترا وصفه المؤرخون بانه رجل ذكي أمتاز باللباقة، ويبدو انه استوعب الدرس بما حل بوالده لاسيما بما يتعلق بموقفه من حق الملوك الالهي، اذ اتبع سياسة مرنة مع البرلمان واخفى ميوله الكاثوليكية التي تربى عليها في قصر الملك الفرنسي لويس الرابع عشر.وكثيرا ما كان يحاول أظهار نفسه بعيدا عن تمسكه بنظرية الحق الالهي للملك، وكان يضع اللوم في حالات الخلاف مع البرلمان على وزرائه ومستشاريه.وكانت اول اعمال شارل الثاني اعتبار كل القوانين والاجراءات قبل عام ١٦٤٠ شرعية وقانونية واعاد العمل بها.

كان البرلمان يراقب سلطات الملك لاسيما المالية منها ويدقق ميزانية البلاط وصرفياته، فقد عرف عن شارل الثاني تبذيرة لاسيما في استخدام المال في الرشاوي المقدمة لاعضاء البرلمان وكذلك لدعم نفوذه في الجيش.

اصدر البرلمان عدد من القوانين المهمة التي حددت معالم الواقع الأجتماعي والسياسي في انكلترا، اهمها قانون تاجير الاراضي(باللزمة) بعد ان كان مستغلي الاراضي يدفعون مبالغ الاراضي ومبالغ اخرى الى الملك مقابل استثمارهم لتلك للارض.**تاتي اهمية هذا القرار من جوانب عدة:**

أ. بموجب هذا القرار نشأت الطبقة الارسقراطية بشكل جديد قوامها ملاكي الارض الذي تزايد نفوذهم بشكل متميز في انكلترا.

ب. اصبحت هذه الطبقة مستقلة بشكل كامل عن سلطة الملك ونفوذه ومساندة للبرلمان وعملت على تعزيز نفوذه وانسحب ذلك الى قدرة الحكومة وقوتها في اتخاذ القرارات التي ترغب فيها كونها تستند الى سلطة البرلمان المدعوم من قبل تلك الطبقة المهمة.

ج.اصبحت تلك الطبقة من اهم القوى التي تسير دفة الاحداث في السياسية الانكليزية وانها لم تسمح للطبقات الاخرى بان يكون لها دور واضح في ادارة الدولة.

حتى انهم كانوا يديرون او يشرفون على القضاء من خلال المحاكم ومراقبة موظفي الكنيسة حتى اطلق على هذه المرحلة (عهد طبقة الوجهاء الريفين)

ء.تلك الطبقة لم تكن تميل الى الطبقة التجارية في المدن تلك الطبقة التي كان دورها محددا في البرلمان خلال هذه المرحلة.

كما اصدر البرلمان لائحة الملاحة والتي اصبحت بموجبها المصالح التجارية التي تتعلق بشؤون الملاحة محمية من قبل الدولة اما في الشؤون الاجتماعية فقد فعل البرلمان قانون الفقراء عام ١٦٦١م واطلق عليه(لائحة التسوية) وبموجب هذه اللائحة عدل اسلوب دعم الفقراء(وكان عددهم كبير) ليكون تطبيقه لا مركزيا ، اذ يدار من قبل الكنائس المتواجدة في المدن والقرى،و اصبح كل فقير يتبع الكنيسة التي في منطقته وهي المسؤولة عن اعالته الامر الذي ساعد على استيطان اعداد كبيرة من السكان في مناطقهم واستقرارهم في هذه المرحلة عادت مشكلة الدين والانقسام الطائفي الى واجهة الاحداث مرة اخرى عند عودة شارل الثاني الى الحكم اذ كانت ميولة كاثوليكية،وكان البرلمانيون وحتى ابناء الشعب يسايرون الملك ويتغاضون عن توجهاته الدينية كونهم كانوا مفزوعين من احداث السنوات السابقة والعنف الذي شهدته انكلترا خلالها(عهد الجمهورية) لذلك كان اخلاصها ودعهما للملك ليس من باب الولاء للملك شخصيا وانما حرصا على الاستقرار.

لقد كان الشعب الانكليزي رافضا للكاثوليكية وداعما للكنيسة الانكليزية،وان شارل الثاني لم يجرا على اعلان ميلة للكاثوليكية بشكل مباشر،بل انه عمل على اتباع وسائل عدة لاعادة الكثلكة الى المجتمع الانكليزي،فقد اصدر(بيان الغفران) والذي بموجبة أبطل كل القوانين التي صدرت ضد المخالفين للكنيسة الانكليزية انطلاقا من ادعائه بايمانه بمبدا التسامح.

الا ان البرلمان رد على ذلك باصداره مجموعة من القوانين منها(قانون الانجسام) عام ١٦٦٢ والذي اجبر البيوريتان وغيرهم بالانضمام للكنيسة الانكليزية ، وان المخالفين لذلك يجردون من وضائفهم بل ان البرلمان

اصدر قانون اخر يدعم هذا القانون عام ١٦٦٥ (قانون الأميال الخمسة) والذي بموجبة لايسمح لكل من لا ينْظم الى الكنيسة الانكليزية بالاقتراب من الكنائس بحدود خمسة اميال.

وفي عام ١٦٧٣ اصدر البرلمان(قانون الاختبار) والذي اشترط فيه على جميع الموظفين الحكوميين على مختلف المستويات المشاركة في طقوس الكنيسة الانكليزية، كما حرم على الكاثوليك او من خرج عن الكنيسة الانكليزية الحصول على الوظائف الحكومية او الخدمة في الجيش او الاسطول. الا ان الازمة التي دقت ناقوس الخطر على الواقع السياسي الانكليزي هو اعلان اخو الملك وولي العهد(جيمس) كاثوليكيته بشكل علني، الامر الذي ادى الى سعي العديد من اعضاء البرلمان الى تنحيته عن ولاية العهد في لائحة قدمت الى البرلمان عام ١٦٧٩م. ادى ذلك الى انقسام البرلمانيون الى قسمين الاول كان من البيورتان والرافضين لتوجهات جيمس الدينية واطلق عليهم الويك(Whigs) او (الراديكاليون).

اما القسم الثاني فكان رايهم المحافظة على الملكية بأي ثمن لان ذلك يعني المحافظة على الأستقرار، وان الملك هو صمان الأمان لهذا الاستقرار،وأن الخضوع لملك كاثوليكي افضل من حرب أهلية، وأطلق عليهم(التوري)(tovies) او(المحافظون) وقد اصبح هذا التقسيم راسخا في الحياة السياسية الانكليزية خلال المراحل اللاحقة.[1]

عند وفاة شارل الثاني(الذي أعلن كاثوليكيته) عام ١٦٨٥ استطاعت القوى المؤيدة للملكية من(المحافظين) تثبيت جيمس الثاني على العرش الانكليزي بالرغم من محاولات الراديكاليين(الويكز) الحيلولة دون

---

[1] جائت التسمية

وصوله الى العرش والعمل على تنصيب ابن شارل(مونماوت) بالقوة على العرش الا انهم فشلوا في ذلك.

كان لتنصيب جيمس الثاني اثرا في تحريك مشاعر الثورة مجددا لدى البرلمان والشعب الانكليزي، اذ كان جيمس حاد الطباع صريح في معتقداته الدينية الكاثوليكية دون الخوف من أي تبعات، كذلك أعلن ايمانه الصريح ايضا بالحكم المطلق فقد صرح مع بداية حكمه انه يملك الحق بالتحرر من قرارات البرلمان، ليس هذا فحسب بل انه عمل على اصدار قوانين عام ١٦٨٧ تقضي بالتسامح مع الكاثوليك وتعينهم في الوظائف العسكرية والمدنية.

وبالرغم من اتفاق الجميع على معارضة جيمس الثاني على كل ما يصدر عنه الا ان هناك من كان يأمل بأنقضاء عهده وتسليم السلطة الى احدى بناته كونه ليس له ولد. الا ان جيمس خيب امال هؤلاء عندما تزوج مرة اخرى من أمرأة كاثوليكية ولدت له ولدا اصبح هو المرشح لولاية العهد وبذلك اقتنع الجميع بان توجهات جيمس ستستمر الى وقت غير معلوم،لذا بدأت كل الاطراف التي كانت متقاطعة في آرائها حول تنحية جيمس تتفق وتفكر جديا بازاحته عن العرش، ولكن بشكل سلمي لا يعيد الاحداث الماضية التي اتسمت بالعنف الى الحياة السياسية الانكليزية، لذا فقد تم التفكير بدعوة ابنة جيمس (ماري) وزوجها وليم اورنج (حاكم هولندا) للقدوم الى انكلترا واستلام عرشها وهو ما اطلق عليه بالثورة الجليلة.

ثورة عام ١٦٨٨(الثورة الجليلة)

قد لاينطبق مفهوم مصطلح الثورة على ما حصل من تغيرات سياسية في أنكلترا خلال عام ١٦٨٨، ذلك كون ما حصل في هذه السنة لايشبه ما حصل عام ١٦٤٠م عندما ثار الشعب كله ضد الملكية المستبدة، وأشتعلت على اثر ذلك حرب اهلية استمرت سنوات عدة وكان لها اثار عميقة في التاريخ الانكليزي لاسيما في عهد الجمهورية الذي تلى الحرب الاهلية.

الا ان ما حصل عام ١٦٨٨ يمكن ان يتوافق مع مصطلح الثورة من جاب اخر اي ليس باسلوب التغير وانما بنتائجه،لان ما اعقب التغير في تلك السنة مثّل اجراءات ثورية عميقة الاثر في التاريخ الانكليزي(والجزيرة البريطانية بشكل عام) اذ بينت واقعا جديدا حدد معالم السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية كما حدد سلطات وصلاحيات الملك لهذه المرحلة والمراحل اللاحقة.

عندما بدا جيمس الثاني يتصرف بشكل يخالف تعاليم ومبادئ الكنيسة الانكليزية فضلا عن محاولته اعادة مفهوم سلطة الملك المطلقة وعندما بدا بسن قوانين جديدة وأبطال قوانين اخرى كان قد اقرها البرلمان اتحد الحزبان(الويك والتوري)،بالرغم من تناقض منطلقاتهما، ضد الملك لاسيما بعد ولادة ابنه الذكر من زوجته الثانية الكاثوليكية ، لذا فقد يحسب لجيمس الثاني عمل مهم لم يقصده خدم السياسية البريطانية الا وهو توحيد الجميع ضد سياسته من طبقات اجتماعية وبرلمان وقوى سياسية ودينية وحتى الجيش لذا فعندها قررت تلك القوى دعوة ابنة جيمس وهي(ماري) المتزوجة من ملك هولندا(وليم اورنج) والتي تعتنق البروتستانتية وكان زوجها يقود حملة اوربية لمواجهة فرنسا وقوى اخرى

لعودة الكاثوليكية، وجد وليم اورنج هذه الدعوة مناسبة لضم انكلترا الى التحالف الذي يقودة.كما انها تعطية الشرعية لقيادة جيش كبير والدخول الى الاراضي الانكليزية ومواجهة جيمس الثاني الذي فقد الشرعية التي سحبها منه البرلمان ولم يستطيع الاخير ان يواجه جيش وليم اورنج بعد ان تخلى عنه جيشه وشعبه من ثم هرب الى ايرلندا.

نودي وليم اورنج ملك على انكلترا باسم وليم الثالث بمشاركة زوجته ماري.وقد حاول جيمس الثاني ان يحشد جيشاً من الايرلندين بمساعدة فرنسية لاعادة عرشه الا ان هذا الجيش هزم في معركة عند نهر(بوين) في ايرلندا، عندها هرب جيمس الى فرنسا وعومل فيها معامله ملك لعدم اعتراف ملك فرنسا لويس لرابع عشر بالتغيير الذي حصل في انكلترا.

وفي الوقت الذي اعتبر وليم الثالث استلامه عرش انكلترا دعماً كبيرا لسياسته الاوربية التي بداها في هولندا فان الانكليز وجدوا في الوضع الجديد فرصة مهمة وتاريخية لوضع اسس النظام الانكليزي في الحكم والذي يقوم على تحديد سلطات للملك وصلاحياته لصالح سلطة البرلمان.اذ ستبنى اعراف وقيم جديدة ومهمة لتحديد صلاحيات السلطات الثلاث التنفيذية والتشريعية والقضائية، مستندة الى ايمان وليم الثالث بالافكار الليبرالية والى آراء وآفكار الفيلسوف الانكليزي(جون لوك)[1]

---

[1] ولد جون لوك عام ١٦٣٢ من اسرة تعمل بالتجارة، اشترك ابوه في ثورة كرومل ضد الملكية التحق لدراسة اللاهوت في جامعة اكسفورد عام ١٦٥٢، الا انه تحول الى دراسة الطب عام ١٦٥٨، اضطر المغادرة انكلترا واللجوء الى فرنسا بعد عودة الملكية عام ١٦٧٩ وفي عام ١٦٨٤م اضطر لمغادرة انكلترا مجددا الى هولندا حتى عودته مع وليم الثالث الى انكلترا ،له عدد من المؤلفات في الفكر السياسي منها(حول السلطة المدينة) وفيه اكد ان القانون الطبيعي هو القانون الشرعي الوحيد وهو يناقض الحقوق الالهية للسلطة اذ اعتبر ان هذا القانون تضمن الحرية الفردية المطلقة وأن الشعب هو مصدر السلطة وفقا

والذي جاء على نفس السفينة التي أوصلت وليم وزوجته ماري، اذ كان الملك وليم الثالث متاثرا بافكاره وحاول منحه مناصب عدة الا ان وضعه الصحي كان حائلا امام تقلده مناصم مهمة.

وانطلاقا من المبادئ التي يؤمن بها وليم الثالث فقد ووافق على(لائحة الحقوق) الصادرة بعد اقل من عام على قيام الثورة أي في(١٦٨٩م) وتعهد الملك فيه بعدم اصدار أي قانون بفرض الضرائب الا عن طريق البرلمان لانه لا يملك صلاحية ابطال أي قانون يصدره البرلمان باعتباره ممثلا للشعب وصاحب السلطة الحقيقية، ومنع الملك من تشكيل جيش الا بموافقة البرلمان، وتضمنت اللائحة عدم توقيف أي مواطن مهما كان مستواه الطبقي دون محاكمة قضائية عادله.

في عام ١٧٠١ صدر قانون مهم سمى (قانون التسوية) (act of settlement) والذي ضمن مبادئ مهمة دخلت في العرف الدستوري البريطاني وحددت صلاحيات السلطات الثلاث:-

أ. حدد القانون عدم جواز تولي كاثوليكي عرش انكلترا في محاولة لمنع أي ادعاء لورثة جيمس الثاني بالعرش، وان يؤدي الملك يمين الولاء للكنيسة الانكليزية عند تتويجه.

للعقد الاجتماعي بين ابناء المجتمع الذين كانوا يعيشون في حالة سلام، الا ان افراد المجتمع وجدوا انه لابد لوجود تنظيم يحمي الحريات الفردية ويحمي حقوق الافراد بشكل عادل وتنظيم العلاقات الاقتصادية للمجتمع ومن هنا ظهرت الدولة فالشعب وليس الملك هو مصدر السلطة وهو من اوائل المفكرين اللبراليين الذين دعوا الى الملكية المقيده والى تقسيم السلطات واستقلاليتها وقد الهمت افكاره عدد كبير من المفكرين من بعده بالافكار وقيم جديدة كانت كافية لتكون محركاً لثورات عدة في أوربا وأمريكا بدأ من الثورة الأمريكية ١٧٧٤ مرورا بالثورة الفرنسية ١٧٨٩ وليس انتهاء بثورات أوربا عام ١٨٣٠و ١٨٤٨.

ب. منع الملك وحاشيته من التدخل بالقضاء لاسيما حق عزل القضاة، اذ ترك ذلك للبرلمان ،كما حدد القانون مرتباتهم وثبت استقلال القضاء مما ساعد على اتساع الوعي الاجتماعي في احترام القانون واحترام حريات الافراد.

ج. كما نص القانون على عدم الجمع بين العضوية في البرلمان ووضيفة حكومية اخرى مما منع الوزراء في هذه المرحلة من التمتع بعضوية البرلمان، وان تغير الحال بعد ذلك كما سنرى في عام ١٦٨٩. اصدر البرلمان(قانون التسامح) في محاولة لايجاد واقعا اجتماعيا مستقرا متسامحا بعيد عن الاحقاد والعنف،اذ سمح هذا القانون للبروتستانت الخارجين عن الكنيسة الانكليزية بالمساهمة في الحياة العامة ومزاولة طقوسهم، وبموجب هذا القانون اصبح الكاثوليك قادرين على العيش بسلام في مجتمع لا يضايق الانسان فيه بسبب ديانته اوطائفته، الامر الذي انعكس على واقع المجتمع الذي اوجد حالة من التسامح والابتعاد عن العنف او الصدام، وقد اخذ الدين بعداً شخصيا يتعلق بالفرد نفسه ولا دخل للمجتمع فيه.

انتبه البرلمان الى اسكتلندا التي كانت قي اتخاد شخصي مع انكلترا أي يحكمهما ملك واحد مع كونهما في الحقيقة مستقلتان اقتصاديا وسياسيا ،كانت اسكتلندا خلال هذه المرحلة بعد ثورة عام ١٦٨٨ في واقعع اقتصادي صعب جدا وتشير المصادر الى ان اسكتلندا عانت من اثار حملة قادها(وليم بانرسون) وهو رجل مال اسكتلندي سبق وعمل في بنك انكلترا(الذي سيرد الحديث عنه لاحقا) الا انه عاد الى اسكتلندا ليقنع البرلمان الاسكتلندي بالقيام بحملة عسكرية هدفها استعمار منطقة بنما في امريكا الجنوبية التي اكتشفت حديثا، والتي توقع انها ستدر ارباحاً

خيالية لاسكتلندا، لذا وضعت الحكومة والشعب الاسكتلندي كل الامكانيات لارسال حملة استعمار بنما وذلك بارسال ٥ سفن محملة بكل الامكانيات اللازمة وعلى متنها اكثر من ١٢٠٠ شخص بينهم بانرسون وعائلته. الا ان هذه الحملة باءت بالفشل نتيجة فقر المنطقة التي نزلوا فيها وانعدام الموارد التي كانت تحلم فيها الحملة ،لذا فقد قرر الاسكتلنديون العودة الى وطنهم.ولم تصل من السفن الا واحدة وعلى متنها ٣٠٠ شخص فقط وهلك الباقون. المهم ان هذه الحملة ادت الى افلاس الحكومة الاسكتلندية ولجأت الى الاقتراض، في هذه الظروف الصعبة والمعقدة التي مر بها الاسكتلنديون اضطرتهم للجوء للتفاوض مع انكلترا لأيجاد وحدة متكاملة اقتصاديا وسياسيا وساهم عدد من المتنفذين الأنكليز بمنح رشاوى الى عدد من نبلاء اسكتلندا المفلسين لانهاء صفقة الوحدة الكاملة التي وصفها الاسكتلنديون بانها(صفقة الشيطان). لذا فقد أعلن في عام ١٧٠٧ انشاء(المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى) واندمجت اسكتلندا بالكامل مع انكلترا التي بدأ يطلق عليها في الادبيات التاريخية باسم (بريطانيا) وارسل الاسكتلنديون نوابهم لتمثيلهم بالبرلمان البريطاني وفتحت انكلترا اسواقها الداخلية ومستعمراتها امام المنتوجات الصناعية والزراعية الاسكتلندية،وتعهدت انكلترا بدفع ما يقارب نصف مليون جنية كديون كانت مستحقة على اسكلتلندا لذا فقد اخذ الاقتصاد الاسكتلندي بالنمو والثراء نتيجة لهذه الخطوة.

كان الاسكتلنديون مشهورين بشجاعتهم لذا تم تجنيدهم في الجيش البريطاني،كما ساهم عدد من المفكرين الاسكتلنديون في الحياة الفكرية البريطانية بل الانسانية اذ لايمكن اغفال الدور الفكري

والانســاني للمفكــر دافيــدهيوم[1] وكــذلك المفكــر الاقتصــادي ادم سميـث[2] فضـلا عـن عـدد كـبير مـن الشـعراء والادبـاء والعلمـاء الـذين ساهموا بالثورة الصناعية التي سيرد الحديث عنها لاحقا.

اما ما يتعلق بايرلندا فقد كانت تعرف بكاثوليكيتها ووقفت ضد الثورة الجليلة بدعمها لجيمس الثاني والذي هزم فيها.لذا فان البرلمان البريطاني عمل على اتخاذ اجراءات عقابية واسعة ضد الكاثوليك كنفي الكهنة ،وحرم على جميع الكاثوليك في ايرلندا من التصويت او الترشيح للبرلمان ،بل وصل الامر الى منعهم من التعليم او شراء الاراضي او تاجيرها فضلا عن مجموعة من الاجراءات والعقوبات الاقتصادية القاسية في ما اطلق عليه(قانون العقوبات) وكان الهدف منه جعل الارلينديين يخضعون لسلطة بريطانيا (وديانتها).

في عهد وليم الثالث استمر بناء الاسطول البحري وتطويره الى الحد الذي اصبح يمثل اقوى الاساطيل البحرية الاوربية ويستدل على ذلك من

---

[1] ديفيد هيوم(١٧١١-١٧٧٢) فيلسوف ومؤرخ اسكتلندي شرح ورسخ افكار لوك وغيره، ركز في فكرة على الواقع النفسي للانسان وكذلك التربوي، له مؤلف شهير(رسالة في الطبيعة البشرية) عرف مذهبه بالشك للوصول الى الحقيقية.

[2] ادم سميث(١٧٢٣-١٧٩٠) من كبار المفكرين الاقتصاديين الاسكتلندي الأصل، من اول كتبه(بحث في طبيعة واسباب ثروة الامم)، والذي صدر عام١٧٧٦ ويعتبر اساس علم الاقتصاد الحديث ونهل من فكره الكثير من الاقتصاديين لقرون بعد عصره باعتباره دعا الى الاقتصاد الحر اذ يعد كتابه هذا محيط بكل النظريات الاقتصادية ومنطلق لعلم الاقتصاد اذ كان من دعاه الحرية الاقتصادية على اعتبار وجود ارتباط بين سعي الافراد لمصلحتهم الذاتية المادية وبين مصلحة المجتمع المتمثلة في اتساع الانتاج وتطويره لذا كان من دعاة عدم تدخل =الدولة بالنشاط والاقتصادي كما دعا لتقسيم العمل باعتباره محفز لزيارة الانتاج وتحسينه وتعميق الخبره.

هزيمة الاسطول الفرنسي بكل ما يملكه من امكانيات امام الاسطول البريطاني بعد الثورة.

اما التطور الاقتصادي المهم في بريطانيا فهو بناء (بنك انكلترا) وذلك عام ١٦٩٤ و(مصرف الاقراض الوطني الخاص) وذلك بهدف ايجاد الوسائل والاساليب المناسبة لدعم المجهود الحربي البريطاني ضد الاخطار الخارجية لاسيما التهديدات الفرنسية المستمرة للاراضي والمصالح البريطانية، فضلا عن دعم لواقع الاقتصادي.

فقد قام ابناء الطبقة الارستقراطية والتجار واصحاب المال باقراض الحكومة من اموالهم التي تضاعفت في هذه المرحلة نتيجة النمو في الانتاج الزراعي والصناعي والتجاري، وكان هذا المصرف يقوم بتنظيم عملية الاقتراض هذه، وتشير الدراسات الى استفادة بريطانيا من نظم الادارة والمصارف في هولندا المشهورة بخبرتها المالية والتجارية والملاحة البحرية وان هذا التاثر انسحب الى نواحي اخرى في الحياة البريطانية كالادب والفن واسلوب تصميم المنازل ويعود ذلك لجهود وليم الثالث (الهولندي الاصل) في بناء علاقات متطورة بين الشعبين.

في موضوع بنك انكلترا يبرز امامنا نشاط اليهود الذين عادوا الى بريطانيا بعد الثورة الجليلة عام ١٦٨٨، اذ يعود تاريخ طرد الانكليز لليهود الى عهود سابقة يمكن تحديدها بعام ١٢٩٠، وعلى مر القرون اللاحقة لم يكن لليهود لا وجود ولا دور في المجتمع الانكليزي. في عهد جيمس الاول قرر الملك دعوة اليهود للعودة الى انكلترا قد تكون دعوته لاسباب دينية(لتوجهاته الكاثوليكية) او لاسباب تتعلق بالاستفادة من مهاراتهم وصِلاتهم التجارية وقدراتهم المالية. بعد الثورة الجليلة وفي عهد وليم الثالث ذات التوجهات الليبرالية ازداد عدد اليهود العائدين الى

انكلترا بشكل ملحوظ،لاسيما انه كان يرتبط بعلاقات جيدة معهم عندما كان ملكا على هولندا وعلى وجه الخصوص عائلتي(ماشادو و بيريرا) ذوي النفوذ المالي الكبير في هولندا ،وابرز رجالات تلك العوائل(انطونيو مشادو وجاكوب بيريرا) وهما المولين الرئيسين للجيش الهولندي لمختلف احتياجاته من مؤن غذائية الى خيول وعربات، لاسيما ان الجيش الهولندي كان يخوض صراعا مريرا في تلك المرحلة مع فرنسا.

عندما اصبح وليم ملكا على انكلترا استمرت علاقته مع اليهود بشكل عام وتلك العائلات بشكل خاص ومن ابرز اليهود الذي اعتمد عليهم الملك هو(سولومون دو مديتا) والذي منحه وليم الثالث لقب فارس، وهو اول يهودي يمنح هذا اللقب في انكلترا عام ١٧٠٠م.

لقد كان للتمويل اليهودي للمؤسسات البريطانية دور اساسي في تحقيقها انتصارات كبيرة على الجيش الفرنسي، على الرغم من التفوق العددي للفرتسيين، فقد اسس اليهود من العوائل المذكورة عام ١٦٨٩ سوق لندن للاوراق المالية(وقد كان مثل هذا السوق موجودا في هولندا) وقد ساهم بدور كبير في تنشيط الأستثمار المحلي والأجنبي، وفي ما يخص تطوير الأسطول البحري البريطاني، فضلا عن الصناعة والتجارة . ساهم اليهود بشكل فاعل بنشاط بنك انكلترا الذي أنشأ عام ١٦٩٤، اذ عمل اليهود كسماسرة للاوراق المالية الحكومية وقد جمعوا من هذه العملية(السمسرة) اموالا طائلة .على سبيل المثال كون اليهودي(سامون عزرون) ثروة هائلة من المضاربات بالسندات الحكومية حتى بلغت (أرقام فلكية بحسابات ذلك العهد) هذا ينطبق على يهود اخرين جمعوا اموالا طائلة من هذه العملية.

لقد عدت ثورة عام ١٦٨٨ تطورا مهما وتاريخيا في ترسيخ مبادئ الحكومة البرلمانية وتعزيز حكم القانون انطلاقا من فكرة ان السلطة الحقيقية تكون بيد الشعب الذي هو مصدر جميع السلطات ،لذا لم يعد الملك قادر على اتباع سياسة لايريدها الشعب او البرلمان الممثل له، ولم يعد ايضا بالامكان ادارة الحكومة ضد ارادة طبقات الشعب.

ان ابرز مظهر نتج عن تلك الثورة هو تعزيز وترسيخ فكرة الاحزاب السياسية، اذ تمحور جماعة الراديكالين والمطالبين بالاصلاح حول(حزب الويك) وهم مؤيدن للملكية المقيدة وتعزيز سلطة الشعب والبرلمان، وكان اغلبهم من البروتستانت والبيوريتان وآخرون من ابناء الطبقات المختلفة والتي كانت ارائهم متجددة ومطالبتهم بالتغير مستمرة. اما المحافظون فقد مثلهم حزب(التوري) وهم من ابناء الطبقة الارستقراطية ورجال الدين من اتباع الكنيسة الانكليزية[1].

في عهد وليم الثالث(١٦٨٨- ١٧٠٢) والملكة آن(١٧٠٢- ١٧١٤) اصبح الحزبان يتناوبان على السلطة في بريطانيا . الحياة الحزبية هذه انعكست على الواقع السياسي بشكل عام والتنفيذي بشكل خاص اذ كانت الدولة تدار قبل الثورة من قبل الملك عبر مستشارين يحيطون به وينفذون سياستهم طبقا لتوجهات الملك وأطلق على مجموعة المستشارين باسم (الكابينه) لاجتماعها في غرفة خاصة مع الملك لتخطيط سياسة الدولة، الا انه بعد الثورة اصبح الملك لايختار المستشارين والوزراء حسب رغبته وانما يجب ان يعينوا من قبل الحزب الذي حصل على اغلبية برلمانية

---

[1] اطلق اسم الويك على المجموعة التي ساندت البرلمان وكان معظمهم من الطبقة البرجوازية وومصطلح الويكز (whigs) كان يطلق على عصابة من قطاع الطرق البروتستانت في اسكتلندة. واطلق اسم التوري (tories) على المؤيدين للملك واغلبهم من ملاكي الارض وهذا المصطلح كان يطلق على عصابة من قطاع الطرق الكاثوليك في شمال ايرلندة . في منتصف القرن التاسع عشر اطلق لقثب حزب الاحرار على الويك وحزب المحافظين على التوري.

في الانتخابات. ففي عهد الملك وليم الثالث كان حزب الويك هم الاغلبية في البرلمان لذا فان الوزراء كانوا هم الذين يختارونهم ،وبعد ان كان الملك يتراس أجتماع هيئة الوزراء تم تكليف الوزير الاول(والذي سمي فيها بعد رئيس الوزراء) هو الذي يتراس اجتماعات مجلس الوزراء وعادة يكون من حزب الأغلبية البرلمانية.

كما ساهمت الثورة في تعزيز الوحدة القومية للجزيرة البرطانية وانهت حالة الصراع والتنافس بين الملك والبرلمان بشكل نهائي وبقيت الكنيسة الانكليزية متمتعة بمركزها القوي باعتبارها الكنسية القومية الرسمية لبريطانيا.

وأظهر الناس روح التسامح والادراك والاعتدال بدلا من الحماسات المذهبية والفورات الحزبية او الطبقية مما ساعد على نمو الواقع الاجتماعي الاقتصادي والصناعي فضلا عن الجانب المالي

الفصل الثاني عشر

التحولات السياسية والاقتصادية خلال القرن الثامن عشر

استمر حكم وليم الثالث حتى عام ١٧٠٢ وهو عام وفاته، عندها تولت الملكة(أن) آلابنة الثانية لجيمس الثاني والتي تنتمي الى الديانة البروتستانية وشهدت فترتها تطورات داخلية وخارجية مهمة، اذ كان للتطورات الخارجية انعكاس مهم على الأوضاع الداخلية لاسيما التنافس التاريخي بين حزبي الويك والتوري اذ وقف حزب الويك ضد معاهدة(او ترخت)[1] والتي انهت حرب الوراثة الاسبانية فقد استمرت من عام ١٧٠٢ الى عام ١٧١٣ واشتركت فيها معظم الدول الأوربية لاسيما اسبانيا وفرنسا وبريطانيا والنمسا والبرتغال والدويلات الايطالية والالمانية وهولندا. فقد وقفت جماعة الويك ضد الاتفاقية على اعتبار انها لم تحقق المكاسب المطلوبة لانكلترا لاسيما ان الاخيرة قد بذلت من الاموال والرجال الشيء الكثير، في الوقت الذي ايد التوريين هذه المعاهدة ووجدوا في السلام انه يصب في مصلحة بريطانيا.

---

[1] ادى موت ملك اسبانيا(تشارلز الثاني) عام ١٧٠٠ الى حرب اهلية اسبانية بعد وصية الملك المتوفي بان يكون العرش الاسباني الى امير فرنسي هو(فيليب) قريب الملك الفرنسي الرابع عشر رفضت دول التحالف المكون من النمسا وانكلترا ولروسيا هذا الامر خشبية توسع نفوذ فرنسا واندلعت حرب استمرت حتى عام ١٧١٢ وعقدوا معاهد او تخرت التي مثلت نصرا لبريطانياالانها كسبت عدد من المستعمرات الاسبانية فضلا مصالح اقتصادية عدة وانتهت الحرب ١٧١٤ .

وفي الوقت الذي كان التوريون اغلبية في مجلس العموم فان المشكلة في سيطرة الويك على مجلس اللوردات،لذا عمدت الملكة آن على اعطاء لقب لورد الى ١٢ عضوا من المحافظين التوريين لايجاد الاغلبية اللازمة لتمرير الموافقة الى المعاهدة.

لقد اصبحت هذه العملية سابقة في العرف الدستوري البريطاني فعندما يرغب الملك من خلال مجلس اللوردات الوقوف بوجه مجلس العموم والانتصار عليه فما عليه الان يضيف العدد المطلوب من اللوردات المؤيدين للملك وسياسته (وهذا حصل خلال الاعوام ١٨٣٢ و١٩١١) في عام ١٧١٤ وفي خضم التنافس السياسي الداخلي في بريطانيا والخارجي في اوربا والمستعمرات توفيت الملكة آن، ولم يكن لها اولاد يرثون العرش. وهنا يظهر اخيها الكاثوليكي(ابن جيمس الثاني) والذي لقب بجيمس الثالث ليطالب بالعرش، الا ان قانون تولية العرش الذي صدر عام١٧٠١ والمشار اليه سابقا يمنع وصول كاثوليكي الى العرش ادى الى اختيار أبن حفيدة جيمس الاول(صوفيا) والذي كان يعيش في هانوفر(في المانيا) والذي استدعي الى لندن ومنح العرش بلقب(جورج الاول)[1].

منذ توليه العرش أظهر جورج الأول ميلا الى جماعة الويك على الرغم من ان الأغلبية في البرلمان من حزب التوري،وكان سبب ذلك يعود الى اعتقاده بان المحافظين من التوري يتآمرون مع الملك المستبعد الكاثوليكي(جيمس الثالث) في محاولة أعادته الى السلطة.

---

[1] جورج الاول(او جورج لويس) ولد في ٢٨ ايار ١٦٦٠ في هانوفر ضمن الاراضي الالمانية وحصل على منصب اميرها وصل الى العرش البريطاني في سن(٥٤) وهو اول ملك من عائلة هاتوفر.مثل وجوده على عرش انكلترا بداية جديدة في تاريخالنظام السياسي البريطاني الذي تحول في عهده الى نظام الوزاره.

وكان لهذه المخاوف ما يبررها ،اذ حاول عدد من حزب التوري اقناع جيمس الثالث باعلان بروتستانتيتة ليكون مقبولا كملك، وكانوا يتواصلون معه بطريقة او اخرى بل تهددت سلطة ال هانوفر(اسرة جورج الاول) بعدد من الثورات التي أيدها التوريين انطلاقا من اسكتلندا لاسيما عام ١٧١٥ والتي اطلق عليها(ثورة اليعاقبة).

الا أن هذه الثورة فشلت كون جيمس ضعيف الارادة وملتزم بكاثوليكته كما توقف الدعم الفرنسي له بوفاة لويس الرابع عشر.لذا تمكن جورج الاول وبدعم ومساندة من الويك ان يقضي على هذه الثورة مما عزز ثقته بهذا الحزب وعهد اليه برئاسة الوزارة والتي أنيطت الى (طاوزن) زعيم الويك، وعندما اجريت انتخابات برلمانية تمكن الويك من تحقيق الأغلبية اللازمة في مجلس العموم واللوردات.

الا ان طاوزن لم يستمر طويلا في الحكم لبروز خلاف مع الملك حول السياسة الاوربية وقدم استقالته عام ١٧١٨. حل محله ستانهوب والذي عقد عدد من الاتفاقات والتحالفات الاوربية ،الا ان وزارته سقطت عام١٧٢١ نتيجة لفضائح مالية تتعلق بتلقي رشاوى من شركة(جون لو) والتي عانت من الفضائح بعد افلاس الشركة وتكبد عدد من المواطنين الانكليز لخسائر مالية.

ظهور منصب رئاسة الوزارة:

ان سقوط وزارة ستانهوب مهد الطريق لوصول شخصية مهمة في التاريخ البريطاني هو(روبرت والبول) والذي استمذر في السلطة حتى عام ١٧٤٢ أي ما يقارب عشرون عاماً.

والبول رجل اعمال ثري اذ ورث ثروة كبيرة عن والده، حصل على تعليم جيد في جامعة كامبرج،وحصل على عضوية مجلس العموم عام ١٧٠٠ لقد ساعدت سمعته المالية وقدراته على اختياره وزيرا في وزارة ستانهوب، اثبت خلال استيرازه كفاءه واضحة فضلا عن نزاهته التي حمته من آثار سقوط وزارة ستانهوب، اذ لم تشمله الفضائح المالية لاعضاء تلك الوزارة ولم يتورط باي اتهامات بالرشاوي.كان يشغل منصب وزير المالية قبل ان يكلف برآسة الوزارة(والذي يلقب عندها الوزير الاول) ولابد ان نشير هنا الى ان منصب وزير المالية هو اهم منصب في الوزارة وغالبا ما كان يشغله الوزير الاول.

لقد اظهر(والبول) مهارة كبيرة في ادارة السياسة الداخلية والخارجية، وساهم في تثبيت اسس الدولة البريطانية. اتصفت سياسته بالدبلماسية والمناورة في ادارة الحكم بهدف استيعاب معارضية وتحقيق الأهداف التي خطط لها. وقد اتبع سياسة اقتصادية ناجحه لاسيما عندما الغى الضرائب المفروضة على الصادرات وخفض الضرائب على المواد المستوردة الى بريطانيا والتي تمثل موادا أساسية تحتاجها الصناعة، الامر الذي ساهم في نمو النشاط الصناعي والتجاري وتدفق العملات الأجنبية على بريطانيا والذي سيعطيها السبق في التفوق على باقي الدول الأوربية في المجال الاقتصادي فضلا عن السياسي.

تاتي أهمية المرحلة التي شغلها والبول من أن عهده شهد بروز منصب رئيس الوزراء في بريطانيا، اذ أصبح هذا المنصب مستقلا عن الملك بشكل تدريجي ومرتبط بشكل اكبر مع البرلمان، ولم يعد الملك (كما كان في السابق) يحضر جلسات مجلس الوزراء، وكان لهذا الامر له اسبابه أهمها نمو فلسفة الملكية المقيدة والتي تعمقت بشكل واضح بعد ثورة عام ١٦٨٨، فضلا عن ان الملك جورج الاول كان لا يتقن اللغة الانكليزية، ولم تكن شؤون انكلترا تشغله كثيرا على اعتبار ان أهلها ادرى بشؤونها فقد كان ولائه وانتماءه المانياً حتى وهو ملك بريطانيا.

وهكذا اصبح منصب رئيس الوزراء هو المسؤول الاول عن ادارة الشؤون السياسية الداخلية والخارجية وان كانت باسم الملك ولكن كان ذلك أسميا، اذ ان رئيس الوزراء اصبح مسؤولا امام البرلمان حصرا في كل الاعمال التي يقوم بها، واصبحت هذه القاعدة ثابتة في الحياة السياسية البريطانية، وتطور هذا الامر في عهد جورج الثاني والذي تولى العرش البريطاني بين عام(١٧٢٧- ١٧٦٠)، فقد اصبح الملك يكلف زعيم الاغلبية البرلمانية بتشكيل الوزارة وادارتها.وخلال هذه المرحلة ايضا لاسيما عام ١٧٣٠ اصبح الشخص المكلف بالوزارة يسكن دارا خاصة به هي(١٠ داوننغ ستريت) فقد اهدى الملك جورج الثاني[1] هذه الدار الى والبول. وفي بادرة، تدل على نكران الذات والشعور الوطني العالي والتي رسخت العرف السياسي البريطاني، فقد رفض والبول ان تكون هذه الهدية شخصية وانما اعتبرها مقدمة الى منصب رئيس الوزراء حصرا، لذا

[1] ولد في ٣٠ تشرين اول ١٦٨٣ وتوفي في ٢٥ تشرين باول ١٧٧٠ ولد ونشأ في المانيا وكان يتقن اللغة الفرنسية ومن ثم اتقن الالمانية بعدها اطلع على اللغة الانكليزية والايطالية درس علم الانساب والتاريخ العسكري

فقد بقي هذا التقليد قائما الى الوقت الحاضر اذ يسكن رئيس الوزراء في تلك الدار خلال فترة ولايته فقط.

كان والبول زعيماً لحزب الويك(الاحرار) لذا فقد حرص على ان يكون اعضاء وزارته من الحزب ذاته الامر الذي سيؤدي الى ان تكون وزارته منسجمة في قراراتها ومتضامنه في مسؤوليتها أمام البرلمان ،كما اصبحت الوزارة تعتمد على ثقة البرلمان وليس الملك لكي تستمر في السلطة.

الا انه يجب التاكيد هنا ان مركز الملك بالرغم من ذلك كله لم يضعف بشكل فاضح في هذه المرحلة او حتى في المراحل اللاحقة، ولو ان ذلك يعتمد على قوة شخصية الملك وقدرته ورغبته بان يكون له دور اكبر[١]،فضلا عن طبيعة الظروف الداخلية والاوربية والدولية التي تمثل تحديا يتطلب تدخل من الملك باعتباره رمزا للامبراطورية البريطانية وهو الرابط للاتحاد البريطاني والشعوب المكونة له.

كانت لاراء الملك وعلاقته مع وزرائه أهمية كبيرة في ادارة الدولة[٢]كما ان الملك في زيارته الخارجية يصحب معه وزراءه لاسيما الخارجية والمالية.على ان اسلوب تشكيل الوزارة ومسؤوليتها لم تحدد بقانون ثابت وانما أستندت الى التقاليد والعرف الدستوري غير المكتوب والذي سارت

---

[١] على سبيل المثال الملكة فيكتوريا التي عرف عن تدخلها الكبير في السياسة البريطانية الداخلية والخارجية كما يمر بنا.

[٢] يقتضي التنوية هنا الى انه تم تحديد مركز الملك وصلاحياته بشكل دقيق وذلك على شكل قانون استند الى التراكم التاريخي لسلطة الملوك على وفق اتفاقية وسمنستر (عام ١٩٣١) والذي اشار الى ان الملك هو رمز الاتحاد بين اجزاء الامبراطورية وان أي تغير في لقب الملك او تعديل نظام الوراثة يستلزم موافقة البرلمانات المحلية للشعوب المكونة للاتحاد.

عليه الدولة من ايام حكم والبول حتى الوقت الحاضر.لذا يشير المؤرخون الى فضل والبول في وضع اسلوب الوزارة من تشكيلها الى ادارتها ومسؤولياتها ،فكان ذلك الاسلوب هو الاساس الذي رسخه والبول وجعله تقليدا وعرفا بمساندة من الملك جورج الاول وجورج الثاني.لقد اصبح من اهم شروط استقلالية الوزارة هو عدم حضور الملك اجتماعاتها ،وذلك انطلاقا من ان وجوده قد يكون له تاثير باتجاه معين على مناقشاتها وقراراتها ،فضلا عن محاولة ابعاد الملك عن مسؤولية القرارات التي تتخذها الوزارة باعتبار الملك مصون غير مسؤول . كان عدد الوزراء قبل الثورة الجليلة لا يتعدى ستة اشخاص باعتبارهم مستشارين او معاونين للملك، الا انها عددهم زاد تدريجيا حتى اصبح ما يقارب العشرون وزير.

في عام١٧٤٢م وبسبب المعارضة الواسعة لوزارة والبول وسياسته الخارجية تجاه المشاكل الاوربية لاسيما علاقة بريطانيا مع اسبانيا التي عمل والبول على اتباع سياسية التهدئة معها بالرغم من قيامها باعمال عدائية ضد السفن والرعايا البريطانيين ومصالحهم التجارية، مما تعرض بسببها لانتقادات شديدة واتهامه بالتخاذل في نصرة رعاياه ،الامر الذي سيؤدي في النتيجة الى استقالته.

تبرز هذه المرحلة شخصية مهمة اخرى ساهمت في ترسيخ القيم الديمقراطية في بريطانيا لاسيما ارتباط الحكومة بالبرلمان واستقلالهما عن سلطة الملك وهي شخصية(وليم بت الاب) والملقب(ايرل شاتام) الذي قاد المعارضة ضد والبول ومن ثم اسقاطة.يوصف الاب بانه رجل عصامي لم يات من الطبقة الارستقراطية او من طبقة التجار،بل بدا حياتة بوظيفة بسيطة في الجيش البريطاني.الا ان مصاهرته لاحد قادة الجيش ساعدته على دخول الطبقة السياسية ،اذ انتخب عضوا في مجلس العموم عام

١٧٣٥. وتولى وزارة الحربية عام ١٧٥٦ ،وكلفه الملك برئاسة الوزارء عام ١٧٦٦ ، امتلك بت اعتدادا كبيرا بالنفس اذ وصف نفسه بانه(واثق انني استطيع انقاذ بلادي ولا احد غيري يستطيع ذلك).

لقد حقق بت عدد من المكاسب الداخلية لاسيما في ما يتعلق بترسيخ سلطة البرلمان والوزارة على حساب سلطة الملك.وفي السياسية الخارجية تمكن من ايجاد التفوق والقوة في اوربا والعالم على حساب القوة الفرنسية لاسيما بعد انتصار بريطانيا خلال حرب السنوات السبع(١٧٥٦- ١٧٦٣) على فرنسا والتي كان ميدانها اوربا وامريكا واسيا.

جاء تعيين بت بعد وفاة الملك جورج الثاني ووصل جورج الثالث الى العرش وهو حفيد جورج الثاني(اذ توفي والده فردريك بن جورج الثاني عام ١٧٥١)[١]. يعتبر الملك الجديد مختلفا عن اجداده كونه ولد في انكلترا وثقافته وولائه انكليزيا(على عكس اجداه جورج الاول والثاني) الا انه وصف في احد المصادر البريطانية بانه(كان شابا عنيدا يحاول تعزيز صلاحيات الملك وسلطاته)[٢].

وقد بدا جورج الثالث بالعمل على تقويض سلطة حزب الويك(الاحرار) وتقريب منافسه التوري(المحافظين). كانت علاقة الملك بوليم بت سلبيه

---

[١] هو ابن فريدريك امير ويلز ولد في لندن عام ١٧٣٨،يوصف انه كان خجولا ومنعزلا في طفولته تعلم اللغتين الالمانية والانكليزية ودرس الفيزياء والفلك والرياضيات والتاريخ وكان موضوع اهتمام جده جورج الثاني وعندما توفي والده فردريك عام ١٧٥١ بعد عملية جراحية في الرئة اصبح جورج وليا للعهد واميرا على ويلز.

[٢] من ابرز مظاهر استبدادالملك قضية جون ويلكيس الذي اضطهد وسجن بالرغم من عضويته في البرلمان وذلك لانتقادة الملك،وقد حظي ويلكيس بتاييد شعبي كبير لمقاومته استبداد الملك الا انه طرد من البرلمان ولم يسمح له بدخوله بالرغم من فوزه بالانتخابات لثلاث دورات.

كـون بـت كـان معـارض لاعطـاء الملـك دورا كـبيرا ويـدعو الى اسـتمرار الملكية المقيدة، قدم بت استقالته عـام ١٧٦٨ لاسـباب صـحية كمـا اعلـن حينها،الا انه بقي على قيد الحياة حتى عام ١٧٧٨ وهو عام وفاته عن عمـر ناهز السبعين[١].

[١] تشير المصادر التاريخية الى ان بت اجبر على الاستقالة وهناك راي اخر بانه بدا يعاني من اضطراب عقلي بعد خروجه من الوزارة حتى وفاته الا ان ذلك لم تؤكده مصادر اخرى.

نظرة تقيمية لاوضاع بريطانيا في النصف الثاني من القرن السابع عشر:

١.**الواقــع الاقتصــادي**: أبـرز معـالم الـتغير الاقتصـادي كـان واضـحا علـى القطاع الزراعي والذي اطلق عليه(الانقلاب الزراعـي) وذلـك لـتغير اسـاليب الزراعة وتنظيمها لتصبح اكثر قدرة على النمو والعطاء.

فقـد تم اكتشـاف الـة لبـذر الحبـوب علـى الارض الزراعيـة،كمـا ادخلـت محاصـيل جديـدة وتحسـين نوعيـة محاصـيل اخـرى.واصـبح الفـلاح يعتمـد الدورة الزراعية بالاستفادة من الارض طوال فصـول السـنة مـن خـلال تنويـع زراعة المحاصيل في كل فصـل بمـا يحـافظ علـى صـلاحية الارض وقـدرتها على الانبات.

انعكس التحسن في المحاصيل الزراعية على زيادة عدد المواشـي الـذي نمـا من خلال زيادة المراعي الخاصة بتغذيتها واسـتخدمت طـرق جديـدة للرعـي وتربيـة المواشـي لاسـيما اسـتخدام الاغذيـة الصـناعية المركـزة كـاعلاف للماشية.

ظهـرت في هــذه المرحلــة حركــة زراعيــة سميــت(حركــة التحويطــات الزراعيـة) وهـي عبـارة عـن نظـام يقـوم علـى ضـم الحقـول الصـغيرة لبعضـها لتكـون حقـول كبيرة،كمــا تم دمــج الاراضــي الغــير مزروعــة (البــور) للاستفادة منها في الرعي.

لقــد ســاهمت هــذه التطــورات الزراعيــة كادخــال المحاصــيل الجديــدة الضرورية،واسـتخدام الأسـاليب الجديـدة في الزراعـة وتربيـة المواشـي، في جعل بريطانيا مـن الـدول الـتي تتمتـع بالاكتفـاء الـذاتي في هـذا المجـال مـع تصدير الفائض الى خارج الجزيرة كمـا كـان لهذه التطـورات اثـرا واضـحا في ثـراء الطبقـة الارسـتقراطية الـتي بـدت متنعمـة ومترفـة ،ولـيس أدل علـى

ذلك تلك القصور الفارهة التي بنيت في الريف والتي تفنن البناة في بناءها بشكل جميل وفاره من حيث أساليب البناء المعمارية المستحدثة او الزخارف والأثاث فضلا عن التفنن في أنشاء الحدائق المحيطة بتلك القصور التي عدت مثالا للفن والذوق الرفيع.

اما في الجانب التجاري فقد نشط النظام التجاري البريطاني والذي يقوم على الاستقادة من التفوق البحري ومن السيطرة على عدد من المستعمرات والتي اصبحت اسواق لتصريف الفائض من الأنتاج الزراعي ومصدراً للمواد الاولية الضرورية التي تحتاجها بريطانيا ، الامر الذي جعل الدولة البريطانية تفرض عدد من الضرائب وفرض القيود على التجارة وأي نشاط اقتصادي في المستعمرات وكان ذلك من بين اهم الاسباب التي ادت الى اندلاع الثورة الامريكية عام ,١٧٧٤

٢. **الواقع السياسي**: مثل النصف الثاني من القرن الثامن عشر ترسيخ القيم البرلمانية والحكومية من خلال تحديد صلاحيات الملك بشكل كبير جدا ، وازدياد نفوذ البرلمان وصلاحياته لاسيما فيما يتعلق باشرافه على السلطة التنفيذية ،اذ اصبحت الوزارة ممثلة للبرلمان وليس تابعة للملك،وكما مربنا. فقد استحدث منصب رئيس الوزراء الذي عادة ما يشغله زعيم الاغلبية البرلمانية ويكون مسؤولا امام البرلمان وليس امام الملك الذي تراجع دوره في فرض سياسته على الحكومة شيئا فشيئا حتى اصبح لا يتدخل تماما في قرارات الحكومة وحتى لا يحضر اجتماعاتها.

الا ان ذلك لا يلغي حقيقة ان الملك هو رئيس الدولة والحاكم الاعلى للامبراطورية ، وان القوانين والمعاهدات وتعيين كبار الموظفين بداً من رئيس الوزراء تكون باسمه حتى وان كان اقتراح التعيين يكون وفق

الاعراف والتقاليد والموافقات البرلمانية كما ان الملك هو رئيس الكنيسة الانكليزية وبذلك فهو يجمع السلطة المدنية والدينية العليا في بريطانيا.

لقد ترسخ خلال هذه المرحلة وانطلاقاً الى المراحل اللاحقة مبدأ(ان الملك يملك ولا يحكم) حتى انه لايستطيع فرض الضرائب او سن القوانين وتعطيلها فلا يملك حق النقض للقوانين، حتى وان كان ذلك مكفول له نظريا وفق الاعراف السابقة.

اما ما يخص الحياة البرلمانية فقد اصبح البرلمان بمجلسية العموم واللوردات الحاكم الحقيقي للدولة وان القوانين تسن بموافقة المجلسين . مجلس اللوردات يتكون من ممثلي رجال الدين واللوردات المدنيين المعينين من قبل الملك(بعد منحهم لقب لورد)[1] وهم من النبلاء الذين ورثوا مكانتهم الاجتماعية فضلا عن الاقطاعيين وكبار التجار. اما مجلس العموم فهو نظريا ممثل لطبقات الشعب البريطاني لانه ينتخب من قبلهم، الا ان الواقع ان مجلس العموم يتكون من عدد من الاقطاعيين والتجار الذين ينتخبون عن المناطق التي لهم فيها نفوذ ،اذ ان سيطرة هؤلاء في بعض المدن تؤدي الى تمثيلهم في البرلمان بشكل محسوم بل احيانا يفوزون بالتزكية(دون انتخاب) وان وصولهم للبرلمان يكون بشتى الوسائل كالرشوة او الامتيازات او حتى التهديد احياناً فغالبا ما كان المرشح يشتري اصوات الناخبين مع اقامة الولائم والحفلات في منطقة المرشح عنها.

[1] يكون ترتيب الالقاب في المجتمع البريطاني خلال هذه المرحلة:دوق –ماركيز - ايرل - فايكاونت - بارون - لورد. ولكل من هذه الالقاب مكانة سياسية واجتماعية معينة فضلا عن الازياء الخاصة بكل منها.

كما ان هذه التقاليد الموروثة جعلت مدن وقصبات غير مهمة من حيث الأهمية الأقتصادية أو السكانية لها تمثيل كبير في البرلمان مع وجود مدن ازدهرت مؤخرا لم يكن لها تمثيل .
كان عدد اعضاء مجلس العموم البريطاني ٦٥٨ عضوا منهم ١٨٦ عضو يمثلون الاقاليم الريفية و٤٦٧ يمثلون المدن وخمسة اعضاء يمثلون جامعتي اكسفورد وكمبردج.
كان حق الانتخاب قاصرا على طبقة قليلة من سكان بريطانيا ممن يملكون الثروة. فقد كان عدد سكان بريطانيا في هذه المرحلة(٢٠) مليون وكان فقط مليون واحد له حق الانتخاب والتمثيل في البرلمان بينما حرم الاخرون بسبب عدم امتلاكهم الثروة.
كما ان هناك مدن تراجع عدد سكانها بشكل كبير جدا وقلت اهميتها ولا يستحق ان يكون لها ممثلين في البرلمان الا انها احتفظت بعدد ممثليها بموجب قوانين قديمة تعود الى حكم(شارل الثاني) بل ان مدن قد اختفت مثل سارم ودانتون ومع ذلك بقي ممثليها في البرلمان وهم لايمثلون أي شخص من الشعب البريطاني، في الوقت التي ظهرت مدن جديدة صناعية وتجارية مثل مانشستر برمنغنهام، ليدز لايمثلها احد في البرلمان. وغيرها من المدن الصناعية التي نمت وتطورت خلال هذه المرحلة الامر الذي دعا عدد من السياسيين للمطالبة بالاصلاح ومن ابرزهم وليم بت(الابن)[1] الذي اشار في البرلمان عندما كان عضوا في مجلس العموم(ان مقاطعات ليس لها وجود فعلي لامن حيث الثروة او عدد السكان او النشاط التجاري او في الحجم تلجأ الى بيع الاصوات لمن هو قادر على

[1] ولد في مدينة كنت ١٧٥٩ درس في جامعة اكسفورد بعمر ١٤ سنة وبعد تخرجه درس القانون عام ١٧٨٠ وعمل في المحاماة قبل ان يتركها ويعمل بالسياسة وهو ابن وليم بت تيشا نام.

الشراء وليس لمن هو اصلح لخدمة البلاد...وان هذه المقاطعات هي مصدر الفساد).

يضاف الى ذلك ان حق المشاركة في الانتخابات ليس مكفول لكل الاشخاص بل انه مشروط بامتلاك الشخص لدخل سنوي محدد، كما ان التصويت كان غير سري مما جعل التاثير على الناخب ممكنا الامر الذين جعل المؤرخون يتفقون على ان البرلمان البريطاني في نهاية القرن الثامن عشر كان لا يمثل كل الشعب بشكل حقيقي وبصفونه بانه حكم القلة (الاوليغارشي).

ومع اتفاقنا مع ما ذهب اليه المؤرخون بانه صحيحا الا ان الباحث يرى ان هذه الحالة كانت سببا مهما في التطور الديمقراطي التدريجي في بريطانيا، والذي نضج عبر مراحل عدة حتى وصل الى مرحلة النظام الديمقراطي المتكامل، لان تركيز السلطة بيد الفئة المستحدثة(الطبقة الوسطى) والمتمكنة والثرية ماديا ادى الى ادارة السلطة بشكل عقلاني بعيد عن حالة عدم الاستقرار، يمكن ان تكون تلك الطبقة الحاكمة تدير الدولة وفقا لمصالحها ولكن في ذات الوقت فهي لم تضر بالمصالح البريطانية والتي ترتبط بمصالحها الاقتصادية والتجارية الامر الذي ساهم في انتعاش ونمو الاقتصاد البريطاني بشكل متصاعد.

ان توسيع حق المشاركة السياسية للابناء الشعب البريطاني حصل بشكل تدريجي متوافقا مع نمو المجتمع اقتصاديا وتطور الوعي السياسي وازدياد الثروة والرفاهية لاكبر عدد من السكان والتي استفادت من حالة الأستقرار السياسي الذي ساد بريطانيا انطلاقا من هذه المرحلة.

ويرى الباحث انه لو ان السلطة منحت بشكل عشوائي وغير منظم لكل السكان لاسيما ممن لا يحملون قدرا من الوعي والتعليم والثقافة

واللاهثين وراء السلطة ليس على اساس مهني وانما لاعتبارات شخصية لما حققت بريطانيا تطورها الديمقراطي بهدوء ودون صدمات عنيفة كما حصل في فرنسا على سبيل المثال اذ ادى الظلم السياسي والاقتصادي لأبناء المجتمع للقيام بثورة أدت الى صعود أشخاص مندفعين بدوافع الثورة والانتقام واستخدام السلطة لاغراض مختلفة، الأمر الذي ادى الى دوامة من العنف الدموي استمر لسنوات طويلة عانت منه فرنسا وأمتد تاثيره السلبي الى خارجها وذلك عندما تحول المد الثوري الى دكتاتورية نابليون الذي شن حروبا مدمرة في أوربا.

لذا يعتبر الباحث ان التجربة البريطانية ابتداء من هذه المرحلة صعودا مثلت نموذجا متطورا(بالرغم من سلبياتها) في منح جرعات توسيع التمثيل الديمقراطي للشعب بشكل تدريجي ومنظم بما يؤدي الى نضوج التجربة بالتزامن مع نضوج المجتمع، وهذا كان مدعاة للاستقرار السياسي وترسيخ الأعراف والقيم الديمقراطية بشكل أدى لان تكون التجربة البريطانية مثالا يتحذى به.

٣. **<u>الواقـع الجغـرافي</u>**: شهدت هذه المرحلة أيضا وحدة الدولة البريطانية بشكل واضح، بدأ بالإتحاد الرسمي بين اسكتلندا وأنكلترا عام ١٧٠٧م آذ أصبح يطلق اسم بريطانيا على الدولة بدلا من انكلترا. أما ايرلندا فالبرغم من عدم قدرة الانكليز فرض المذهب الانكليزي على الشعب الايرلندي واستمرار فاعلية الكنيسة الكاثوليكية بمساعدة خارجية من فرنسا واسبانيا،قد عملت السلطة في انكلترا على إخضاع ايرلندا

بمختلف الأساليب من بينها التغير الديمغرافي(السكاني) او عن طريق التجارة وغيرها[1]

ألا أن عام ١٧٨٢ شهد تطورا في العلاقة بين بريطانيا وأيرلندا وذلك نتيجة تخوف الحكومة البريطانية من تداعيات الثورة الأمريكية واحتمال تكرر الحالة في ايرلندا. فقد بعث نائب الملك في ايرلندا(الدوق رونلاند) بتقرير عن الواقع السياسي والاقتصادي الى وليم بت الذي كان يشغل منصب رئيسا الوزراء في هذه الفترة(١٧٨٤م) وضح فيه الواقع السلبي والغير مستقر الذي تعاني منه ايرلندا، الأمر الذي جعل الحكومة البريطانية تعمل على تخفيف القيود التي تعود لعقود سابقة، اذ كان الاقتصاد الايرلندي بكافة مفاصلة تحت سيطرة بريطانيا ذا فرضت عدد من القيود التجارية والصناعية والزراعية على الاقتصاد الايرلندي وقد وصف وليم بت الابن تلك القيود بانها(نظام من التقيد الوحشي والبغيض).

مع اندلاع احداث الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ ازداد النشاط الثوري في ايرلندا وعملت الحكومة البريطانية بزعامة(بت الابن) على طرح مشروع قانون لاعطاء الحقوق للكاثوليك،وبالرغم ان ذلك اصطدم بمعارضة الملك جورج الثالث فقد جاء القانون لامتصاص تنامي الحركات الثورية المدعومه من قبل فرنسا ونابليون على وجه الخصوص. تم تعيين شخصية معتدلة كحاكم في ايرلندا هو اللورد كورنواليس وذلك لتهدئة الاوضاع.

---

[1] نذكر ماورد في ما سبق أن هنري الثاني(١١٥٤-١١٨٩) غزا الجزيرة عسكريا وجعلها لوردية أي تحكم من قبل شخصية انكليزية تحمل لقب لورد وعززت السيطرة الانكليزية على ايرلندا، في عهد الملكة اليزابيث الاولى(١٥٥٨-١٦٠٣) وجدير بالذكر ان ايرلندا تعني (الجزيرة الخضراء) وتقع غرب الجزيرة البريطانية من جهة المحيط الاطلسي.

وفي ١٥ شباط/١٧٩٩ طرح مشروع الاندماج الكامل بين بريطانيا وايرلندا من خلال دمج البرلمان الايرلندي مع البرلمان البريطاني بمنح ايرلندا(١٠٠) مقعد في مجلس العموم.اما مجلس اللوردات فقد اقترح تعين ٤ لوردات من رجال الدين و٢٨ لورد ينتخبون مدى الحياة من النبلاء وملاكي الارض، وقد عمل بت بكل ما يستطيع من قوة ومن اغراء مادي او منح المناصب والمقامات والرشاوي لتمرير القانون في البرلمان الايرلندي. في ٥ شباط عام ١٨٠٠ وافق البرلمان الايرلندي على الاتحاد ثم وافق مجلس العموم في تموز عام ١٨٠٠ وكذلك اللوردات في حزيران من نفس العام، واصبح الاتحاد قانون نافذ المفعول بعد مصادقة الملك عليه في ١٨٠١/١/١ وسميت الدولة عندها(المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وأيرلندا).

٤. **الشخصيات البارزة**: تميزت هذه المرحلة ببروز شخصيات فذه في قيادة الدولة البريطانية ساهمت بشكل كبير في ترسيخ التراث السياسي البريطاني والذي اصبح بشكل متواصل بمثابة العرف والتقليد الذي سارت عليه ادارة الدولة حتى الوقت الحاضر.

من ابرزهم روبرت والبول(١٧٢١- ١٧٤٢) الذي تم الحديث عنه والذي يعتبر اول شخصية منحت لقب رئيس الوزراء وعمل على ترسيخ تقاليد ادارة الوزارة ومسؤوليتها التضامنية امام البرلمان ويبرز ايضا في هذه المرحلة وليم بت الاب الزعيم الراديكالي العصامي والذي قاد انكلترا الى انتصارات مهمة على الصعيد الاوربي وعمل على ترسيخ عدد من القيم الديمقراطية في بريطانيا كونه كان من دعاة الملكية المقيدة وترسيخ سلطة البرلمان باعتباره ممثلا للشعب.

في الجزء الاخير من القرن الثامن عشر تبرز وبشكل مميز شخصية فاعلة في التاريخ البريطاني هو وليم بت(الابن) فقد كان بت أصغر شخصية تتقلد منصب رئاسة الوزارة اذ تم تكليفه عام ١٧٨٣م وعمره ٢٤ عاماًبعد ان تقلد منصب وزارة المالية قبل ذلك بعام واحد وبت هو الابن الثاني لوليم بت الاب(رئيس الوزارء للفترة من ١٧٦٦- ١٧٦٨).

واعتبر بت الابن رجلا يمتلك البلاغة في خطاباته وحواراته ،اصبح نائبا في البرلمان عن حزب الويك (الاحرار).ونال حزبه الأغلبية في عام ١٧٨٤ في كلا المجلسين (العموم واللوردات)، وكان لاندفاعه في الدفاع عن الحريات والاصلاح والقضاء على الفساد زاد من أحترام الناس له فضلا عن احترام البرلمان والملك له ،الامر الذي ادى الى تكليفة برأسة الوزارة على الرغم من صغر سنة، واستمر فيها ما يقرب ٢٢ سنة. كان من ابرز أعماله دعوته الى ايجاد اصلاحات برلمانية من خلال توسيع رقعة المناطق الانتخابية لتشمل اكبر قدر ممكن من السكان بالالغاء المناطق الأنتخابية القديمة التي ضعفت أهميتها او تقلصت واستحداث مقاعد للمناطق المتنامية والتي زادت اهميتها من ناحية عدد السكان او من حيث الاهمية الاقتصادية.

وخلال فترته أيضا أصيب الملك جورج الثالث بمرض عقلي عام ١٧٨٨[١] جعل العرش البريطاني يعاني من فراغ ،وقد عمل على معالجة الامر بحكمة من خلال محاولته منع الوصي على العرش من ممارسة سلطاته بدلا من الملك حتى شفاء الملك وعودته لممارسة مسؤولياته والذي حصل في

[١] اصيب جورج الثالث بنوابات عدة من الجنون وقد اثبتت التحليلات الحديثة التي اجراها العلماء البريطانيون على شعر الملك انه كان يتناول جرعات من الزرنيخ السام يضاف له مع الدواء المعطي له من قبل الاطباء مما ادى الى استمرار تدهور صحته حتى انه اصيب بالعمى والصم العته قبل وفاتة.

شباط عام ١٧٨٩ عندما ارسل الملك الى بت يعلمه بانه قد استعاد سلطاته.وتبرز هنا ايضا دعوت بت لالغاء تجارة الرقيق من خلال طرح مشروع قاون تحريم تلك التجارة الا ان هذه الدعوة لم نرى النور الا عام ١٨٠٧.

لقد شهدت فترة حكم بت الأبن قيام الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ وتداعياتها الاوربية وكذلك داخل المملكة البريطانية، وقد كانت سياسة نابليون العنيفة القاسية المعادية لبريطانيا اكبر اختبار لصلابة بت وحنكته السياسية والتي مكنته من الصمود بوجه هذه التحديات وتحقيق الانتصار على فرنسا النابليونية لاسيما عام ١٧٩٨ في المعركة البحرية(ابي قير) عام ١٨٠٥ وفي معركة الطرف الاغر. وكما مر بنا فقد عالج المشكلة الأيرلندية التي تاثرت بتطورات الثورة الفرنسية بحكمة اذ انتهت بتوحيدها مع المملكة البريطانية عام ١٨٠١.

قدم بت استقالته الى الملك عام ١٨٠١ لمعارضة الملك اقتراحاته حول المسالة الأيرلندية ،الا ان تأزم الاوضاع مع فرنسا ادى الى تكليفة برآسه الوزراة مرة اخرى عام ١٨٠٤ الا ان صعوبة الظروف وقسوة التحديات أدت الى وفاته وهو في سن(٤٦) سنة وتشير المصادر الى اخر كلمة نطق بها قبل وفاته(بلادي اني اتركك في حال نعج بها الصعاب والاخطار) مما يدل على وطنيتة وحرصه على وطنه حتى في لحظات الموت.

٥. شهدت بريطانيا في اواخر القرن الثامن عشر ونتيجة الأوضاع المضطربة في أوربا بسبب تداعيات الثورة الفرنسية والحروب الناتجة عنها ظهور عدد من الحركات الدينية منها الحركة النظامية(Methodist movement) والتي تزعمها جون وزلي

والـتي مـن اهـم ملامحهـا الـروح المحافظـة سياسـيا واجتماعيـا و الدعوة للتعايش والسلام بين طبقات الشعب البريطـاني، وقـد دعـت الحـركـة الى تطويع الذات لمواجهة الاوضاع السياسية المضـطربة في اوربـا لاسيما بعـد الثـورة الفرنسية وقـد سـاهمت هـذه الحـركـة في ترسـيخ الاطـر الديمقراطيـة والـوعي السياسـي لـدى الشـعب البريطـاني كمـا ظهـرت في نفـس الفـترة(الحركـة الأنجيليةEvangelical movement) وهـي تشبه في طروحاتها الحركـة النظامية ومن ابرز دعواتها الغـاء تجـارة الرقيـق ،وبـالرغم مـن ان هـذه الـدعوة كـان لهـا اثارهـا السـلبية علـى الاقتصـاد البريطـاني الا ان اهميـة الـدعوة وإنسـانيتها ادت الى صـدور قـرار بتحريم تجارة الرقيق عام ١٨٠٧ ومن ثم الغائها عـام ١٨٣٣ بشـكل كامل وتعويض تجاره الرقيق وماليكيهم بمبالغ من المال.

الاوضاع السياسية حتى عام ١٨٣٢

كان للثورة الفرنسية عـام ١٧٨٩ وتـداعياتها الاوربيـة لاسـيما بعـد وصـول نـابليون الى السـلطة ومـا نـتج عـن سياسـته التوسـعية مـن آثـار كـبيرة علـى الواقـع الـداخلي البريطاني، انطلاقـا مـن ان الدولـة البريطانيـة ركـزت جهودها على امرين اساسيين:

الاول:منـع وصـول التـاثير الثـوري لافكـار الثـورة الفرنسـية الى الطبقـات الشعبية البريطانيـة لما لـه مـن تـداعيات خطيرة علـى الاسـتقرار الاجتمـاعي والسياسـي البريطـاني.علـى الـرغم مـن ان المجتمـع البريطـاني تميـز في هـذه المرحلة(على وجه الخصوص) بتماسـكة وتنامي الوعي السياسي فيه نتيجة

لتطورات تاريخية خلال حقب مختلفة ومروره بعدد من التجارب والثورات التي افضت الى مستوى متميز عن باقي الدول الاوربية في موضوع الديمقراطية والفصل بين السلطات لاسيما ما يتعلق بتقييد سلطة الملك بدأ من(لمكنا كارتا) مرورا بالثورة ضد الملكية في عهد كرومل وليس انتهاء بالثورة الجليلة عام ١٦٨٨. الامر الذي حصل خلالها الشعب البريطاني على مكاسب تتناسب والواقع الاجتماعي والسياسي والديني في ذلك العصر.

الا انه بالرغم من ذلك كله فان تداعيات الثورة في فرنسا وصل تاثيرها الى المجتمع البريطاني من خلال الحماس الثوري الذي ساد المجتمعات الاوربية فضلا عن تفشي الافكار التحررية والثورية التي طرحها عدد من المفكرين امثال مونتسكيو وروسو وغيرهم والتي اخذت طريقها الى افكار عدد من المثقفين والناشطين في اوساط الشعب البريطاني لا سيما الوسط الفلاحي والعمالي والطبقة الوسطى(من صغار التجار والموظفين والمثقفين) الامر الذي ساعد على ظهور عدد من الجمعيات الراديكالية التي تبنت افكار الثورة الفرنسية بل وأجرت اتصالات مع قوى سياسية في فرنسا ، من بين هذه الجمعيات الناشطة (جمعية الايرلنديين المتحدين) وهي حركة سرية استعانت بالثوار في فرنسا للحصول على الدعم والتأييد المادي والمعنوي، وكان لها اهداف عدة من اهمها تتعلق بالحقوق الايرلندية واستقلال ايرلندا وتأسست جمعية في اسكتلندا ولندن منها (جمعيات المراسلة) والتي انتشرت في مدن بريطانية عدة من بينها العاصمة لندن، وخرجت افكارها المطالبة بحقوق الطبقة المسحوقة من اصحاب الحرف وابناء الطبقات الدنيا ، وكانت بذلك تتناغم مع اهداف الثورة الفرنسية التي كان من اهم محركاتها الطبقات الدنيا المسحوقة.

اعتمدت هذه الجميعات وغيرها على وسائل غير عنفية في التعبير عن آرائها ومواقفها وهذا يتناسب ومستوى الوعي في المجتمع البريطاني الذي يعد اكثر تطورا من المجتمعات الاوربية الاخرى.ومن اهم تلك الوسائل اصدار المنشورات المحرضة على العصيان والتمرد وحث الناس على المطالبة بحقوقهم والتوعية بها فضلا عن عقد الاجتماعات والمؤتمرات التي تتناول طرح الافكار الراديكالية للمطالبة بالتغير والاصلاح السياسي وقد تاسست في لندن واسكتلندا عام ١٧٩٢ و بسبب نشاطتها التحريضي اعتقل زعماء الجمعية وصودرت جميع منشوراتها .

اما الموقف الحكومي البريطاني من ذلك كله اظهر بعدم الاهتمام الكافي بما يحصل في فرنسا واعتبر(وليم بت) رئيس الوزراء ان ما يحدث هناك هو شان داخلي، بل ان بت تمنى ان تؤدي الاحداث في فرنسا الى(ان تتمخض عن حرية مفهومة بشكل صحيح، حرية ناتجة عن نظام جيد وحكومة جيدة)وفقت الحكومة البريطانية من الثورة والحروب التي نشبت بعدها مباشرة موقف الحياد كون فلسفة وليم بت هو دعم السلام وأبعاد بيرطانيا عن دوامة الحروب، الا ان الواقع الجديد فرض نفسه على بريطانيا وحكومتها لاتخاذ اجراءات اشد وضوحا وحسما لمواجهة تداعيات الثورة الفرنسية لاسيما بعد ظهور عدد من الجمعيات الراديكالية في بريطانيا واعلان فرنسا انها ستساعد كل الشعوب الاوربية للتحرر من انظمتها الملكية وقامت بالفعل باحتلال عدد من الدول الاوربية مثل بلجيكا وهولندا وغيرها[١]

[١] فقد اشار رئيس الوزراء وليم بت الى انه(يجب ان ياخذ البرلمان بالاعتبار الخطر الذي نواجهه الان وهو أشد شرا مما ترغب في اصلاحه)

فيمـا يتعلـق بالـداخل البريطـاني فقـد تصـدت الحكومـة البريطانيـة الى النشـاط الراديكـالي بشـدة وقسـوة اذا اصـدرت اوامرهـا يمنـع اصـدار المنشورات الداعية للعنف والتمرد ،ومنحت قوات الشرطة صلاحيات واسعة لقمع اي اضطراب او تمرد ، واصدرت مجموعة من القوانين الهادفة الى الحد من نشاط الراديكاليين ومعاقبتهم منها(قانون الاجانب) والذي نظم وجود الاجانب وخاصة الفرنسيين الفاربين من الاحداث في فرنسا وتحديد نشاطاتهم السياسية والفكرية في بريطانيا.وعلق العمل بقانون الميول او الاشعار[1] القضائي والذي يمنع اعتقال الاشخاص بدون اذن قانوني الامر ادى الى فسح المجال واسعا لاعتقال أي شخص يعتقد انه يعرض الاستقرار للخطر في عام ١٧٩٥ اصدر البرلمان ما سمي(بمراسيم التقييد) وما للدعم لوائح بت المفيدة ومن بينها مرسوم الخيانة وتم خلاله توسيع الممارسات التي يتهم اصحابها بالخيانة وكذلك منها المراسلة مع ممارسة العدو او أي تشاط حتى لو كان تجارا مع فرنسا دون ترخيص حكومي ومرسوم (الاجتماعات التحريضية)[2]. والذي تم من خلاله منع عقد الاجتماعات العلنية المحرضة على العنف والثورة ما ادى الى اضمحلال عدد من الجمعيات وتحول بعضها الى العمل السري.كما تم التشديد على الصحافة ومراقبة ما ينشر فيها ومعاقبة المنشورات المحرضة على الثورة.

---

[1] اطلق عليها لوائح بت المقيدة فتهمت الخيانة كان يشمل المراسلة مع العدوو اصبح يشمل أي نشاط حتى التجاري مع فرنسا يجب ان يكون بترخيص حكومي.

[2] يطلق عليه قانون(هيس كورس) والذي صدر عام ١٦٧٩ في عهد شارل الثاني ويتضمن عدم اعتقال الى شخص الا بمذكرة قانونية وهو ضمانة لحماية الحرية الشخصية في بريطانيا الا انه الغي في ٥ اذار عام ١٧٩٤م.

لقد ادت الاجراءات الحكومية الحازمة وتخوف الشعب بشكل عام من مروره بحالة عدم الاستقرار والفوضى الى كبح جماح الحركات الثورية والتي كانت تسعى لامتداد الثورة في فرنسا الى بريطانيا ، مما ادى الى ضعفها وانعدام تاثير الثورة الذي عم اوربا داخل بريطانيا.

ثانيا : تعزيز القدرات العسكرية البريطانية والأستعداد لمقاومة التوجهات التوسعية الفرنسية في اوربا ومحاولتها اخضاع بريطانيا واذلالها والتاثير عليها سياسيا واقتصاديا ، وقد اثبتت القوة البحرية البريطانية تفوقها من خلال معركتي(ابي قير) و(الطرف الاخر)المشار اليهما
في عام ١٨٠٦ اعلن في برلين ما اطلق عليه (بالحصار القاري) وذلك بتحريم كافة انواع التجارة مع بريطانيا ،اذ لم يسمح بموجبة بالتعامل مع السفن البريطانية التي هددتْ بالمصادرة اذا دخلت الشواطئ الفرنسية او أي دولة حليفة لفرنسا وقد ردت بريطانيا على ذلك بمراسيم عدة لمقاومة هذا الحصار، وعلى الرغم من ان هذا الحصار قد اسهم بمعاناة قاسية للشعب البريطاني اذ ساءت التجارة وتفشت البطالة وتعددت حالات الافلاس للشركات البحرية الا ان ذلك لم يمنع بريطانيا من مقاومة تلك الاجراءات لاسيما استغلال اسواق العالم(غير الاوربية) التي كانت مفتوحه بشكل كامل امام التجارة البريطانية كالمستعمرات في مختلف المجالات وتمكنت من خلالها استيراد المواد الضرورية كالقمح وغيره وتصدير الفائض من انتاجها.
كما ان بريطانيا استثمرت هذه الحالة بشكل جيد للعمل على تطوير امكانياتها الذاتية ،فقد كان الحصار حافزا لها لتطوير زراعتها وصناعتها بما يحقق الاكتفاء الذاتي،فضلا عن ذلك فان اوربا كانت

بحاجة ماسه للتعامل التجاري مع بريطانيا مما شجع زيادة حالات التهريب والتجارة غير الشرعية، كل هذه العوامل وغيرها اسهمت بشكل فاعل ليس فقط بفشل سياسة نابليون ضد بريطانيا بل انها اسهمت بشكل كبير في تفويض قوة فرنسا وبالتالي التسريع بسقوطها بعد فشل حملتها على روسيا عام ١٨١٢ اذ تحالفت الدول الاوربية كلها بقوة للاطاحة بنابليون ونجحت في ذلك عام ١٨١٥.

لقد اسهمت الاحداث الأوربية والسياسة الفرنسية تجاه بريطانية والمخاوف من تداعياتها على الداخل البريطانية الى تقوية القوى المحافظة المتمثلة بحرب(التوري) والتي تمكنت من السيطرة على البرلمان في تلك المرحلة وتسير وفق سياسيتها المتشددة فقد مثل هذا الحزب مصالح الطبقة الارستقراطية وكبار التجار الحريصيين المحافظة على تلك المصالح ومنع أي تهديد داخلي او خارجي لها، فكان الاعتماد على(حزب التوري) في مسك زمام السلطة في هذه المرحلة الصعبة من تاريخ بريطانيا أمرا مهما لمنع تأثير بريطانيا بالحركات الراديكالية في اوربا والتي قد تؤدي الى تقويض الاستقرار وأشاعة الفوضى وتهديد مصالح الطبقات المتنفذة.

حتى بعد أنتهاء الحروب النابليونية استمرت بريطانيا تعاني من آثار تلك المرحلة على مختلف الاصعده من أهمها الصعيد الاقتصادي، فقد ارتفعت اثمان المواد الغذائية بشكل كبير جدا.وأصدر البرلمان ذات الاغلبية المحافظة (قانون الغلال) والذي فرض بموجبة ضرائب ورسوم عالية على المواد المستورده من المواد الزراعية بهدف حماية مستوى الاسعار للمنتجات البريطانية الامر مما الى استحواذ كبار ملاكيين الارض على تجارة المحاصيل الزراعية وأسعارها.

كان وجود حزب التوري في هذه المرحلة متناغما مع الأجواء المحافظة السائدة في اوربا والتي مثلت رد فعل على الحركات الثورية المطالبة بالحرية والتحولات الديمقراطية والتي سادت أوربا خلال وعقب مرحلة الثورة الفرنسية(١٧٨٩- ١٨١٥).وقد برز من بين المحافظين البريطانيين وزير الخارجية البريطاني كاسرلي[١] الذي وحد نفسه منسجما ومتماشيا مع التوجه الرجعي للزعيم النمساوي (مترتيخ) والمستند الى المحافظة(الرجعية) المتشددة كوسيلة لمواجهة ومقاومة عودة الروح الثورية التي زرعتها الثورة الفرنسية ومبادئها لدى الشعوب الاوربية الا انه كاسرلي لم يستطيع الاستمرار في سياسية الأمر الذي أدى الى انتحاره عام ١٨٢٢.

في هذه المرحلة ايضا كان لوجود (جورج الرابع)[٢] الذي أستلم العرش بعد وفاة جورج الثالث عام ١٨٢٠ اثرا مهما في تعزيز الأتجاه المحافظ في السياسة البريطانية، اذ عد من ابرز الداعمين لهذا الاتجاة وداعما لوزيره كاسرلي.

لم تلغي اجراءات الحكومة وسيطرة المحافظين على البرلمان والوزارة من مطالبة عامة الناس والمتضررين من تلك الاجراءات بحقوقهم فقد عقدت سلسلة من الاجتماعات الشعبية للمطالبة بالاصلاح والحريات وعدالة

---

[١] روبرت ستيوراد كاسر لي: من اصل ايرلندي ولد في ١٧٦٩ في دبلن في ايرلندا، عين وزيرا في ايرلندا وساهم في القضاء في الثورة فيها عام ١٧٩٨ تولى وزارة الحرب(١٨٠٥-١٨٠٧ -١٨٠١) وكان له دور عسكري كبير خلال الحرب ضد نابليون اصبح وزيرا للخارجية(١٨١٢ -١٨٢٢) ساهم في ترسيخ النظام الاوربي الرجعي(المحافظ) بعد عام ١٨١٥ انتحر عام١٩٢٢ بعد الانتقادات الحادة التي وجهت اليه

[٢] جورج الرابع:ولد في لندن عام ١٧٦٢ تولى الوصاية اثناء اضطراب والده عرف عنه البذخ واهتمامه بالفنون ويشير المؤرخون الى انه ترك انطباعا سيئا لدى ابناء الشعب

التمثيل البرلماني والقضاء على الفساد والسماح لافراد الطبقات الاخرى باستلام مناصب أدارية بعد ان كانت حكرا على فئات محددة الا ان الحكومة المدعومة من الطبقات العليا المتنفذه لم تكن متماشية مع هذه المطالب بل ان توجهاتها كانت متوافقة مع التوجهات العامة في أوربا المعادية للحركات الثورية الداعمة للتوجهات المحافظة فقد تصدت الحكومة الى هذه الاجتماعات بالقوة لمنع اتساعها الامر الذي ادى الى حصول مواجهات من بينها المواجهات التي جرت في مدينة مانشستر عام ١٨١٩ والتي ادت الى مقتل عدد من الاشخاص(من ستة الى احد عشر شخصا باختلاف المصادر) وجرح عدد اخر من بينهم نساء وأطفال مما كان له تاثير سلبي في اوساط الشعب البريطاني واصبح الغضب ضد جماعة التوري،فضلا عن ذلك فقد نشط عدد من المفكرين الداعين للاصلاح والديمقراطية من ابرزهم جرمي نبثام[1] وغيره اذ شاعت افكارهم بين العمال والطبقات البسيطة والتي تدعو الى مزيد من الحريات والأصلاح في النظام السياسي البريطاني لاسيما النظام البرلماني.

وانسجاما مع هذه الحركات الأصلاحية ظهر الكاثوليك كأبرز من دعا للاصلاح واعادة حقوقهم المدنية والسياسية التي حرموا منها، وكذلك البروتستانت الذين لاينتمون الى الكنيسة الانكليزية وكل هؤلاء كانوا ضحية للتعصب والاضطهاد،وكانوا قد حاولوا التعبير عن غضبهم ومطالبهم بعدد من الاضطرابات المصحوبة بالعنف كما حصل عام ١٨١١

---

[1] بنثام:من مواليد ١٧٤٨م وهو محامي درس القانون في جامعة اكسفورد الف العديد من الكتب التي دعت الى الاصلاح من اهمها(مبدا التشريع الاخلاقي) كان الافكاره الاثر الكبير في نشر الفكر الاصلاحي في بريطانيا والحركات التي دعت للاصلاح السياسي توفي عام ١٨٣٢م.

وعام ١٨١٦ وقد قمعت حركاتهم بقسوة كما برزت الطبقة الوسطى التي مثلها صغار التجار والصناعيين والموظفين الحكوميين فضلا عن عدد من المتفقين من مفكرين وفنانين وادباء والذي كانوا من دعاة الاصلاح لاسباب ايديولوجية او لضمان مصالحهم ومشاركتهم السياسية في واقع سياسي كانت الطبقة العليا تتحكم في ادارته.

كان من اخطر ما قامت به الجهات المعارضة المختلفة محاولة اغتيال الوصي على العرش عام ١٨١٧ ،وكذلك محاولة اغتيال اعضاء الوزارة اثناء مرورهم بشارع(كيتو) وسط لندن لحضور دعوة من البلاط الملكي عام ١٨٢٠ وقد ادت هذه الحادثة الاخيرة الى محاكمة مدبريها والحكم على خمسة منهم بالاعدام.

لم تستجب الحكومة البريطانية لهذه الدعوات الأصلاحية ولم تنتبه الى خطورة الاعمال الناتجة عنها على الصعيد الشعبي وأصر حزب التوري على المضي قدما بالاجراءات التعسفية ومقاومة دعوات الأصلاح بالقمع وذلك أنسجاما مع الطابع المحافظ السائد في اوربا والمتخوف بل الرافض لدعوات الاصلاح والافكار الثورية.

وبدلا من معالجة الاوضاع والمطالب باسلوب سلمي وأحتواء كافة المطالبين بالاصلاح فقد ازدادت الاجراءات الرادعة للحركات العمالية والاحتجاجية الاخرى بدعوى منع ومكافحة الاعمال الثورية المؤدية الى حالة عدم الاستقرار والفوضى.ففي عام ١٨١٩م اصدر البرلمان سلسلة من القوانين أطلق عليها(القوانين الستة) والتي كانت ترجمة عملية للاصرار على السياسة المحافظة التي تبناها حزب التوري لايقاف المد الاصلاحي،وتتمحور هذه القوانين على نقطتين اساسيتين:

١. العمل على منع أي عمل مسلح خارج نطاق الدولة بحظر تكوين قوات غير نظامية(مليشيات) وحظر أي تدريبات عسكرية خارج نطاق الدولة ،فضلا عن حظر أمتلاك الاسلحة وتخويل المحاكم اصدار وثائق تفتيش المنازل للبحث عن الأسلحة ومصادرتها.

٢. تحديد الحريات السياسية والاعلامية من خلال التضيق على حق عقد الاجتماعات العامة ،وفرض ضرائب اضافية على الصحف بهدف زيادة اسعارها وتقليل الأقبال عليها.كما اشارت تلك القوانين الى حق مصادرة النشرات المعادية للحكومة والمعارضة لسياساتها او فيها دعوات قد تعد راديكالية ومعاقبة كتاب هذه النشرات او المقالات.

بعد وفاة المحافظ المتشدد كاسرلي بانتحاره عام ١٨٢٢ ومجيء وزراء اقل تشددا ازاء الافكار الاصلاحية ومنح الحريات (من ابرزهم جورج كاننك)[1]، انصب أهتمامهم على ايجاد حالة من التوافق الداخلي بين التوري والويك في محاولة لتجاوز الصعوبات الاجتماعية والسياسية والأقتصادية التي تمر بها بريطانيا لذا تركز الجهد في هذه المرحلة على تطوير التجارة والاهتمام بالزراعة وبالصناعة الناشئة.

اتجهت الحكومة البريطانية الى مزيدا من الاجراءات لمعالجة الواقع الداخلي من بينها تخفيض التعرفة الكمركية على البضائع الأساسية كالقمح وذلك عام ١٨٢٣ واصدارت مجموعة من القوانين من ابرزها

---

[1] كانتك:مولود عام.١٧٧٠، اصبح وزيرا للخارجية خلال(١٨٠٧- ١٨٠٩) و(١٨٢٢-١٩٢٧) واصبح رئيسا للوزراء عام ١٨٤٧ كانت لارائه ومواقفه الأثر في محاولة استيعاب الافكار الاصلاحية لاسيما بعد عام ١٨٢٢ من خلال التأي ببريطانيا عن الحلف الاوربي الرجعي اللذي قاده مترنيخ.

أعطاء الحقوق السياسية للمنشقين البروتستانت عام ١٨٢٨ ،وقاونون اعادة الحقوق المدنية والسياسية للكاثوليك عام ١٨٢٩ لاسيما ما يخص تمثليهم البرلماني.

لقد اسهمت هذه الاجراءات وغيرها على أستيعاب الجماعات المعارضة وكبح جماح المؤثرات الراديكالية الناشطة القادمة الى اوربا لاسيما فرنسا ،التي اشتعلت فيها عام ١٨٣٠ ثورة شعبية كبرى أدت الى الاطاحة بالنظام الملكي المتطرف في رجعيته والذي يعود الى اسرة ال بوربون التي مثلها الملك شارك العاشر، اذ قام الاخير بعدد من الاجراءات القمعية في محاولة منه لانهاء أفكار ومبادئ الثورة الفرنسية الا ان هذه الافكار لم يعد بالامكان انهائها لانها اصبحت ضمن التكوين الفكري والنفسي للشعب الفرنسي، كان من ابرز تلك الثورة الشعبية الكبرى تنحية شارل العاشر عن عرش فرنسا فرض ملكية مقيدة بالأتفاق مع لويس فيليب والذي يعد من المعتدليين من ال بوربون وكان قد ساهم في احداث الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ لصالح الطبقات الشعبية، هذه الثورة والثورات التي اعقبتها في دول اوربية أخرى أشعرت الحكومة البريطانية بضرورة تواصل الجهود الاصلاحية والتي تعمل على تهدئة الشعب البريطاني واقناعه بامكانية تحقيق الاصلاح ونمو الديمقراطية دون اللجوء الى العنف او الثورة وان النظام البريطاني يتميز بالقدرة على التطور والتجدد على خلاف باقي الانظمة الاوربية.

في هذه المرحلة توفي الملك جورج الرابع(٢٦ حزيران عام ١٨٣٠) واستلم العرش بدل عنه اخوه وليم الرابع(المولود في لندن عام ١٧٦٥) والذي يعد من المستقبلين لفكرة الاصلاح ومتفهما لها، قد لايكون ذلك لاسباب

مبدئية وانما على الاقل لتخوفه على عرشه من ان يؤول الى ما آلت اليه عروش فرنسا وبلجيكا وهولندا وغيرها.

الا ان توجهات الملك هذه لم يكن لها اثر مع وجود المحافظين في الوزارة والبرلمان لاسيما ان الوزارة براسها المحافظ المتشدد الدوق ولنكتون الذي شغل منصب سفير بريطانيا في فرنسا عام ١٨١٤ ودعم التوجهات المحافظة فيها،وقد شغل منصب رئيس الوزراء للفترة من عام(١٨٢٨- ١٨٣٠) وقاوم أي اجراءات جذرية للاصلاح بالرغم من موافقة على بعض الاجراءات السابقة الذكر.

وبسبب حالة الهياج الشعبي في بريطانيا وتنامي مطالب الاصلاح التي رفضها قدم(ولنكتون) استقالته الى الملك الامر الذي ساعد على وصول وزارة الى السلطة وصفت بانها متفهمة للاصلاح ومتقبلة له، وقد قدمت هذه الوزارة لائحة الى البرلمان(ذي الاغلبية المحافظة) لاجراء اصلاحات واسعة في النظام البرلماني الا ان مجلس العموم رفض هذه اللائحة.

صاحب ذلك تاسيس جمعيات عديدة مطالبة بالاصلاح مثل جمعية لندن للاصلاح وجمعية اتحاد برمنغنهام،وكان لهذه الجمعيات الاثر في نشر الوعي الاجتماعي بالحقوق التي يجب ان يتمتع بها الشعب البريطاني ودعتهم للمطالبة بتلك الحقوق.

لقد ادى نشاط تلك الجمعيات الى تصاعد الحماس الشعبي بين طبقات الفلاحين والعمال في المدن الصناعية، بالرغم من اجراءات الحكومة في قمع المتظاهرين ومحاكمة اعداد منهم ونفي عدد اخر. الا ان هذه الاجراءات ضد المحتجين لاسيما اصحاب الفكر الاصلاحي من مثقفين واصلاحيين لم تمنع من تاجج التظاهرات التي اجتاجت معظم المدن البريطانية حتى ان حزب التوري نفسه قد صار عدد من اعضائه يؤيدون

فكـرة أجـراء الاصـلاحات السياسـية ـِفي الـبلاد تسـتجيب لـبعض المطالـب الجماهيرية.

لقد تزعم حركـة الاحتجـاج ودعمهـا ماديـا ومعنويـا ابنـاء الطبقـة الوسـطى لاسـيما هـؤلاء الملاكـين والتجـار الجـدد الـذين بـدأوا يسـأمون مـن سـلطة الطبقـة الارسـتقراطية التقليديـة وطـالبوا باصـلاح الواقـع البرلمـاني وضـمان حقـوق الآخـرين ـِفي المشــاركة السياسـية الامــر الــذي ادى الى التفــاف الطبقــات الشــعبية الــدنيا حــولهم واعتــبرتهم ممــثلين عــنهم ـِفي المطالبــة بالحقوق.

ازدادت النقاشات حول لائحة الاصلاح ـِفي البرمان وخرجت هـذه المناقشـات مـن مقاعـد البرلمـان الى الجمعيـات والصـحافة والشـارع البريطـاني بشـكل عام، وبذلك اصبحت مناقشتها وأتخاذ قرار بشأنها أمراً مفروضاً منـه مـن قبل الحكومـة البريطانيـة لاسيما ان الشـخص الـذي اسـتلم رئاسـة الـوزارة بعد ولنكن هو اللورد غراي[1].

وصـف غـراي بانـه مـن المؤيـدين للاصـلاح ومسـاند لمطالـب مختلـف فئـات الشـعب البريطـاني لاسـيما الـكاثوليـك والغـاء كـل مظـاهر والظلـم فضـلاً عن دعوته للعدالـة ـِفي التمثيـل البرلمـاني للمـدن مـن خـلال وقـف تمثيـل المـدن القديمة التي لم يعد لها وجود.

ان اللائحة التي قدمها غراي ـِفي اذار عام ١٨٣١ تتضمن نـزع حـق التصـويت من بعض المدن وتحديد عدد ممثلـي المـدن ـِفي البرلمـان وفـق اعـداد نفوسـها، مـثلا المدينـة الـتي نفوسـها(٢٠٠٠- ٤٠٠٠) يمثلـها عضـوا واحـدا ،واحتـوت اللائحة بنودا اخرى حول تمثيل المدن ـِفي البرلمان.

---

[1] غراي: ولد في(١٧٦٤) اصبح وزيرا للخارجية(١٨٠٦ -١٨٠٧) ورئيسا للوزراء(١٨٣٠-١٩٣٤). منح لقب بارون، توفي عام ١٨٤٥.

وبالنظر لعدم تجاوب مجلس العموم مع تلك الافتراحات طالب غراي بحل المجلس، وفعلا حل المجلس وجرت انتخابات في عام ١٨٣١ استطاع فيها الاحرار(من حزب الويك) الحصول على اغلبية مريحة في المجلس وكلف غراي بتشكيل الوزارة وأول عمل قام به هو تقديم لائحة معدله الى البرلمان الجديد للاصلاح والتي تمت الموافقة عليها، الا ان مجلس اللوردات ذي الاغلبية المحافظة تقضي اللائحة .طالب غراي الملك بزيادة اعضاء مجلس اللوردات من خلال تعيين عدد من اللوردات الاحرار لكي تمرر اللائحة الا ان الملك رفض هذا الطلب. لذا قدم غراي استقالتة وكلف ولنكتن مجددا بتشكيل الوزارة من المحافظين في محالة لقمع الاحتجاجات وكل المطالبين بالاصلاح الا انه لم يتمكن من الحصول على اغلبية في البرلمان الامر الذي ادى الى اعادة تكليف غراي مع اضطرار الملك وليم الرابع مسايرة الاحداث واعطاء وعد لغراي بانه سوف يزيد عدد اعضاء مجلس اللوردات من الاحرار لضمان تمرير لائحة الاصلاح.

الا ان مجلس اللوردات المحافظ خضع أخيرا للامر الواقع ووافق على اللائحة دون الحاجة لتعيين لوردات جدد في المجلس ووقعها الملك في حزيران من عام ١٨٣٢.

السؤال هنا: ماهي لائحة الاصلاح وفق قانون عام ١٨٣٢ وما هي اهميته التاريخية؟ تضم لائحة الاصلاح على محوريين اساسين وهما المناطق الانتخابية وشروط التصويت. فيما يتعلق بالمحور الاول الغيت الاصوات للمدن او المناطق التي يقل عدد سكانها عن الفي شخص والتي اطلق عليها(الدوائر الانتخابية البالية) وسبق ان اشار اليها وليم بت عندما كان رئيس للوزراء واعتبر هذه الدوائر منفذا للفساد وتسلط فئات معينة على

البرلمان الا انه فشل في ألغائها ،لذا فان دعوات بت واقترحاته قد تحققت بعد وفاته بثمان سنوات.واعطي حق معقد واحد للمناطق التي سكانها ما بين الفين الى اربعة الاف فرد وأعطيت مقاعد الى مناطق ريفية وصناعية لم يكن لها مقاعد في السابق ووفق هذا القانون نزعت أصوات ما يقارب(٦٠) بلده ممن لايتجاوز عدد سكانها الالفين شخص،ونزع مقعد واحد من اصل مقعدين للمدن التي نفوسها ٤ الاف فرد بذلك أستردت منها ما يقارب (١٦٨) مقعد منحت لمدن جديدة مثل منجستر وبرمنغهام وبوركشاير. المحور الاخر هو حق التصويت للسكان والذي جعلته مبسطة وموحدة وخفضت الشروط المالية للمشاركة في التوصيت.اذ اصبح حق التصويت في الريف لكل من يملك قدرا مبسطا من الارض، اما في المدن فان الحق يعطى لكل شخص يملك او يشغل منزلا او يستاجره بقمة لا تتعدى من(١١- ٥٠) جنيها أي ان كل شخص قادر على دفع ضريبية للدولة يكون قادر على التصويت ضمن شروط اللياقة الأخرى كبلوغة سن الرشد ولا يعاني من عجز قانوني.

اما اهميتها فانها مثلت تطورا مهما وتاريخياً في مسيرة الديمقراطية البريطانية وعززت الحقوق السياسية لافراد المجتمع كما رسخت هذه القوانين حقيقه مهمة في الحياة السياسية البريطانية بشكل خاص والفكر السياسي بشكل عام، وهي ان العنف والثورة وتغيير الانظمة السياسية بالقوة ليس هو الحل الوحيد للحصول على الحقوق والمكاسب السياسية للشعب، بل ان الاصلاح ياتي بشكل تدريجي من خلال النضال السياسي الأيجابي القائم على أجبار القوى المتنفذه على اتخاذ الخطوات المناسبة للاصلاح،وقد يكون ذلك صالحا في التطور البرلماني واليدمقراطي البريطاني كون القوى المتنفذه تنصاع لمطالب الجماهير من

خلال مؤسسات معينة تمثل جماعات ضغط كالاحزاب والجمعيات التي نقود عملية المطالبة ،فضلا عن اثر التطورات الاوربية التي اتسمت بالعنف لاسيما في فرنسا التي اثارت مخاوف الطبقة الحاكمة والملك على مستقبل امتيازاتهم فيما لو تصلبوا امام مطالب الشعب.

كما ان التجارب السابقة في التاريخ البريطاني بدا من الماكنا كارتا وصولا الى لائحة عام١٨٣٢ ساهمت في انضاج الوعي الأجتماعي والسياسي الذي ترسخ بشكل كبير مع تطورات اقتصادية وفكرية وعمرانية اصبح معها موضوع الاصلاح امرا واجبا ولايمكن تجاهله، لاسيما مع ظهور مدن كبيرة أتسمت بأهميتها الصناعية والسكانية. كما ان التغيرات الاجتماعية وظهور طبقات جديدة كالعمال الذين مثلوا الاغلبية المسحوقة في هذه المدن الجديدة كانوا أحدأهم عوامل الضغط على الواقع السياسي البريطاني فضلا عن الطبقة الوسطى وتأثيرها.

لقد اشر القانون عدد من المكاسب المهمة والتي قد لاتكون متكاملة الا انها مثلت تطورا مهما في الحياة الديمقراطية البريطانية فقد جعل التمثيل السكاني في البرلمان اكثر عدالة من السابقة، اذ نزعت مقاعد من مدن لاقيمة من الناحية الفعلية لها اذ كان فلاح واحد او اثنين ينتخبون عدد من الاعضاء في تلك المدن التي اطلق عليها (المدن الميتة) فكان هؤلاء الاعضاء يحاربون من اجل البقاء على امتيازاتهم، وقد منحت هذه المقاعد لمدن اكثر أهمية من الناحية السكانية.كما ان العدالة في هذا القانون تاتي من اتساع عدد المواطنين الذي يحق لهم الانتخاب الذي كان مقتصرا على عدد قليل من السكان لأسباب تتعلق بالملكية او غيرها الامر الذي ادى الى أتساع عدد الناخبين بنسبه تفوق٥٠٪ عن الانتخابات السابقة مما اعتبر اتساع رقعه القاعدة الشعبية التي يمثلها البرلمان والذي تنبثق منه

الحكومة وقد تعززت هذه السمات بتقلص ايام الاقتراع من(١٥) يوم الى يومين فقط وذلك لأهيمة ذلك في تقليص حالات التأثير والتلاعب في الاصوات لاسيما ان الأقتراع كان غير سري وقد ادى ذلك ايضا الى اضعاف أبرز الاموال التي تدفع كرشوة لشراء الأصوات.

كما ان القانون حدد مرتبات مالية لاعضاء البرلمان الذين كانوا في السابق يعتمدون على امكانياتهم الذاتية او الرشاوى لتغطية نفقاتهم المعيشيه.

عد القانون انتصارا لجماعة الويك(الاحرار) كما انها مثلت تقليصا للاحتكار السياسي للطبقة الاستقراطية المتنفذه والتقليدية من كبار ملاكي الارض، اذ دخل معترك الحياة السياسية طبقات جديدة من الملاكين الجدد والتجار واصحاب المصانع التي بدات اهميتها تاخذ بالازدياد فضلا عن ابناء الطبقة الوسطى الذي اخذ دورهم بالتصاعد في الحياة الفكرية والسياسية البريطانية.

كان لهذه الاصلاحات الاثر والاهمية الكبيره في أستيعاب مطالب الشعب وبالتالي امتصاص أي دعوة او فكر راديكالي يدعو الى الثورة، الامر الذي انعكس ايجابيا على الواقع الأجتماعي والسياسي والاقتصادي والذي شهد تطورا هائلا سيجعل بريطانيا السياقة في ما اطلق عليه الثورة الصناعية في اوربا والعالم فقد كان للاستقرار السياسي العامل المهم لانطلاق الثورة الصناعية فيها.

أعتبر قانون عام ١٨٣٢ مناسبة مهمة لطبقات المجتمع كافة لمواصلة الضغط والمطالبة بمزيدها الاصلاحات كما مثل بداية لمجموعة من القوانين من أهمها قانون تحرير الرق ١٨٣٣ والذي دعها اليه (وليم بت) اواخر القرن الماضي وصدر قانون الاصلاح القضائي عام ١٨٣٤ ذات

الاهمية الكبيرة كونه يسهم في حسن سير العملية السياسية والاجتماعية في البلاد. وصدر عام ١٨٣٥ قانون البلديات والذي حدد آلية انتخاب اعضاء المجالس البلدية في المقاطعات والمدن اذ كان المواطنين محرومين من تحديد او انتخاب أعضاء تلك المجالس فقد حدد القانون آليه التصويت ومن لهم الحق فيه الامر الذي جعل تلك المجلس تمثل بشكل اكبر سكان المدن.

الفصل الثالث عشر
الثورة الصناعية في بريطانيا الاجتماعية والسياسية واثارها

- **التعريف بالمفاهيم:**

يعرف العديد من الباحثين الثورة الصناعية: بانها جملة التغيرات التي شهدتها انكلترا اولا ومن بعدها أوربا والعالم في الواقع الانتاجي للصناعة والزراعة، وذلك من خلال عدد من الاختراعات والاكتشافات قام بها افراد عدة ،ادت الى استبدال الاساليب القديمة في الأنتاج والتي تعتمد القوة العضلية وقوة الريح وغيرها الى اساليب مستحدثة باستخدام المكائن والالات الميكانيكية في الصناعة والزراعة فضلا عن التجارة التي توسعت مع توسع حركة النقل وازدياد سرعتها بتطوير السفن واخترع القاطرة.وقد أدت هذه التغيرات الى مجموعة من التحولات على جميع الصعد الاقتصادية المتمثلة بزيادة الانتاج وازدياد الحاجة للمواد الاولية وزيادة التبادل التجاري، والاجتماعية المتمثلة بزيادة السكان وتغيير العلاقات الاجتماعية لاسيما بعد اضمحلال الصناعات اليدوية وبروز ظاهرة المعامل الكبيرة ونمو طبقات اجتماعية جديدة وضعف اخرى فضلا عن النتائج الصحية والفكرية وغيرها.

وصفت هذه التغيرات(بالثورة) وذلك باستعارة هذا المصطلح من العلوم السياسية، اذ يذهب الذهن عند ذكر مصطلح الثورة الى الهيجان الجماهيري او الشعبي(المنظم او غير المنظم) ضد نظام سياسي معين بهدف

تغـيره، تـؤدي احـداث هـذا الفعـل الشـعبي الى تغـيرات حذريـة في البنيـة السياسـية ويكـون لها تـداعيات على شـكل تغيرات جذريـة علـى الواقـع الاجتماعي والاقتصـادي. تكـون الثـورة بهـذا المفهـوم فعل آنـي في زمنـه أي محدد بوقت وقوع الثورة التي تؤدي الى الاسـتيلاء علـى السـلطة. الاان ذلـك يكون له تاثيرات بعيدة المدى، ويمكـن ان نورد مثال بارز علـى ذلـك(الثـورة الفرنسـية) والـتي حـدثت في ١٤ تمـوز عـام ١٧٨٩، فقـد كانـت انتفاضـة جماهيريـة واسـعة قامـت بهـا الجمـاهير المسـحوقة والـتي تمثـل الأغلبيـة وحطمـت خلالهـا النظـام السياسـي القـائم في فرنسـا والمسـتند الى مبـدأ (الملكيـة المطلقـة) علـى اسـاس الحـق الالهـي.وقـد ادت هـذه الثـورة الى اسـتبدال الاطـر السـابقة الاجتماعيـة والسياسـية والاقتصـادية اسـتبدالا جذريا شمل الفكـر والمعتقد، الامر الـذي لم تستطع معـه جميـع محـاولات السياسيين بعد عام ١٨١٥ اعادة(القديم الى قدمه) كون تاثير الثورة كان عميقا ليس في فرنسا فحسب بل في كل اوربا.

الا ان هـذه الاسـتعارة لمصـطلح(الثـورة) في الـتغيرات الصـناعية العميقـة والواسـعة لاتعني بـاي حـال مـن الاحـوال انهـا كـانت آنيـة او مفاجئـة وانمـا أحتاجت، لكـي تفعـل فعلـها وتحقيـق اهدافها، لعشـرات السـنين. كمـا ان أدواتهـا لـيس الجمـاهير المسـحوقة والـتي عـادة مـا تسـتخدم العنـف لاحـداث الـتغيرات الثوريـة، وانمـا كـانـت الثـورة الصـناعية بفعـل عقـول نخبـة مـن المخترعين والعلماء من مختلف الطبقات وعلى امتداد سنوات طويلة، كمـا انها نفُذت وتطورت بفعل أموال المستثمرين من ابناء الطبقـة الارسـتقراطية. واحيانا كانت الثورة الصناعية لها نتائج سلبيه على ابنـاء الطبقـات الـدنيا مـن عمـال وفلاحـين بسـبب المظـالم الـتي حصـلت خـلال مرحلـة البنـاء الصناعي الذي تطلب وقتا وتضحيات.

كما ان المقارنة هنا تأتي ايضا من ان الثورة الصناعية لم تكن نتيجة لظلم اجتماعي او حالة عدم استقرار سياسي، بل على العكس كانت نتيجة للاستقرار السياسي والاجتماعي الذي شهدته بريطانيا على امتداد عشرات السنين والتي ساعدت على نمو السكان وبالتالي الحاجة الى التطور، الامر الذي ادى الى نمو الفكر والاختراع اذ ان(الحاجة ام الأختراع)، لذا فكان التطور يتناسب طرديا مع الاستقرار السياسي.

الا ان أستخدام مصلح الثورة على التطور الصناعي جاء مناسباً جدا نظراً للتأثيرات العميقة التي احدثتها جملة التغيرات في اساليب الانتاج ونوعية الصناعات وأنعكاسها على الحياة العامة للسكان وعلى نشوء المدن وتطورها، الامر الذي ادى مع نضوج الثورة ونتائجها الى احداث انقلاب كامل وجذري في الواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي وحتى العسكري. اذ نشطت حركة الاستعمار الخارجي والتنافس على المناطق الاستراتيجية من الناحية الجغرافية او الاقتصادية وذلك ما سنتبينه خلال عرضنا للثورة الصناعية وبداياتها في بريطانيا وتاثيراتها الفكرية والسياسية.

اسباب ظهورها في بريطانيا اولا:

يرتبط تاريخ الثورة الصناعية بالتاريخ البريطاني كون الجزيرة البريطانية كانت مهدا لهذه الثورة ونموها ومن ثم انطلاقها باتجاه اوربا والعالم.قد يفسر البعض هذا الموضوع(أي السبق البريطاني بالاختراع) تفسيرا عرقيا حول قدرة العقل البريطاني على الابداع والاختراع والتطور،يمكن ان يكون هذا الراي صحيحا الا ان المهم في الامر ليس العقول وقدرتها على الاختراع والاكتشاف والتخطيط، بل ان الاهم من

ذلك هو القدرة على استثمار ذلك كله وتوظيفة بشكل خلاق لخدمة المجتمع،وهذا الامر يعتمد على قدرة المجتمع نفسه والنظام السياسي وفلسفته على احتضان المخترعات والابداعات وتنفيذها بما يحقق مصلحة الفرد المخترع والمجتمع المستفيد. فكثير من المجتمعات تملك القدرة البشرية على الابداع من خلال عقول فذه الا ان هذه المجتمعات تفتقر للواقع السياسي والاجتماعي الذي يستثمر هذه العقول ويحتضنها.

وتجاوزا لهذا الامر فانا سنحاول البحث عن عوامل واقعية ملموسة ساعدت على انطلاق العقل والراسمال البريطاني للاتحاد معا في احداث نقله عميقة في الواقع الصناعي.

لكل ثورة سياسية كانت ام اقتصادية اساساً فكرياً،اذ ان فلسفة المجتمع والنظام السياسي لها تاثير عميق على احداث أي تغير ، فالثورة الفرنسية كانت جذورها في الطروحات الفكرية التي قادها فلاسفة عديدون اكدوا على ان مصدر السلطة هو الشعب وليس الحاكم او الألة كما كانت تصورها نظريات الحكم المطلق والحق الالهي وغيرها ، وان الشعب له حقوق طبيعية كالحرية في مختلف جوانب الحياة ومنها الحرية السياسية التي تتيح للشعب تغيير الحاكم او حتى محاسبته. ومن ابرز فلاسفة ما قبل الثورة الفرنسية والذي اطلق عليهم فلاسفة (العقد الاجتماعي) جان جاك روسو ومونتسكيو وهوبز وغيرهم.

في الثورة الصناعية أيضا كان لها اساس فكري تمثل بالدعوة الى الحرية الاقتصادية والحرية التجارية وما اطلق عليه بالنفعية والفردية أي اطلاق مبدأ التنافس الحر بين الافراد لتحقيق اعلى نسبة ممكنة من المنفعة الفردية والتي ستؤدي بالنتيجة الى منفعة المجتمع بشكل عام وتطوره.

وقد بدأت هذه الطروحات الفكرية في القرن الثامن عشر تأخذ حيزا مهما في الفكر السياسي والاجتماعي في بريطانيا ، واستمر تاثيرها الى قرون لاحقة وامتد ليشمل اوربا والعالم.وهنا لايمكن لاي باحث في الثورة الصناعية البريطانية ان يتغافل عن طروحات(آدم سمث) (١٧٢٣- ١٧٩٠) الاسكتلندي الاصل، اذ اعتبر مؤسساً لعلم الاقتصاد الحديث ويمثل كتابه(ثروة الامم) مادة هذا العلم، ويشير سمث الى وجود انسجام بين سعي الافراد وراء مصالحهم المادية وبين مصلحة المجتمع التي تمكن من انتاج اقصى ما يمكن انتاجه من السلع دون تدخل الدولة ، لان ذلك له مردودات اقتصادية مهمة أهمها تراكم راس المال الذي هو اساس التطور الاقتصادي، وانتفاع المجتمع من زيادة الانتاج الذي سينعكس على رفاهيته وكفايته الاقتصادية. واعتبر سمث ان اساس الابداع يتمثل في زيادة الانتاج فضلا عن عدم تدخل الدولة وترك معايير العرض والطلب هي التي تحدد قدرة الفرد على الانتاج، كما انه اشار ايضا الى اهمية تقسيم العمل والذي سيؤدي الى زيادة الانتاج والابداع واستثمار اكبر للايدي العاملة والطاقات الاخرى بشكل أمثل.وكان مبدا تقسيم العمل هذا قد اصبح فيما بعد اساسا لمبدأ الحرية التجارية كون سمث اشار الى تقسيم العمل ليس للافراد فحسب وانما للدول التي عليها ان تتخصص بانتاج معين يتوافق مع واقعها الجغرافي والقدرات المتوفرة لديها ودعا الى التبادل الحر بين الدول كمايعتبر سمث اول من اشار الى (العمل) كقيمة تخضع للمقاييس الاقتصادية كالعرض والطلب.

كانت نظريات آدم سمث وطروحاته بداية واساس لطروحات اخرى اضافها كتاب اخرون اثرت بشكل كبير في التوجهات الاقتصادية لبريطانيا. ويبرز هنا الاستاذ الجامعي ورجل الدين في الكنيسة

الأنكليزية (توماس مالثوس)(١٧٦٦- ١٨٣٤) والذي طرح مجموعة من الافكار والنظريات حول السكان والمجتمع والنمو الاقتصادي احتواها كتابة المعروف(رسالة عن السكان) عام ١٧٩٨ وكتابة (مبادئ علم الاقتصاد السياسي عام ١٨٢٠)، وفيها أوضح ان هناك توازن بين عدد السكان والنمو الاقتصادي وأشار الى ان هذا التوزان يجب ان يحصل اما بشكل أجباري نتيجة الكوارث والحروب او اختياري بالأمتناع عن الزواج او تاخيره وتحديد النسل. وأعتبر انه اذا لم يلتزم العمال بالأعتدال في نفقاتهم وفي انجاب الاطفال فان حاجتهم لايمكن ان تضمنها أي حكومة او قانون وعندها فان العمال سوف لايلوموا الا انفسهم عن فقرهم ، لذا فانه ربط بين الفقر والنمو المتزايد غير المحسوب للسكان. تعززت الافكار واخذت ابعادا اكثر عمقا مع طروحات دايفيد ريكاردو[1](١٧٧٢- ١٨٢٨) والمولود في لندن وهو ذا اصول ايطالية، اذ يمثل احد اهم اقطاب مبدأ الحرية الاقتصادية ومبدا التجارة الحرة والتنافس الحر،وقد وضع طروحاته تلك في كتابة(مبادئ الاقتصاد السياسي) عام ١٨١٧ اشار فية الى مجموعة من المبادئ بنيت عليها الاوضاع الاقتصادية في بريطانيا من اهمها:

(التركيز على تراكم راس المال كونه مفتاح أي نمو اقتصادي) كما اشار في احد القوانين التي طرحها(القانون الحديدي للاجور) الى ان العمال يجب(ان لايتوقعوا الحصول على شيء اكثر مما يسد رمقهم) لذا فانه اقترح في كتابه مجموعة من القوانين التي تقيد واردات الأفراد

---

[1] هو من عائلة يهودية ميسورة، ،اعتنق المسيحية الانكليكانيه بعد زواجه، انفصل عن والده واشتغل في بورصة لندن وحقق أرباح طائلة، أصبح عضوا في البرلمان في سن ٢١ سنة حتى عام ١٨١٩.

واجورهم وأرباحهم طبقا لآليات المجتمع الذي تسود فيه حالة التنافس التام، وجعل حب الذات الدافع الاساسي في سلوك الانسان وفق آلية المنافسة،وأكد على فصل التنافس الاقتصادي عن المنظومة الدينية والأخلاقية، وان الإنسان الاقتصادي لايبحث الا عن مصلحته والتي ستكون بالنتيجة لمصلحة المجتمع لان التنافس الحر سيؤدي الى الابداع وزيادة الانتاج وتحسين نوعيته وان ذلك سيصب في محصلة الفرد والمجتمع. هذه الطروحات ذهب اليها ايضا الاقتصادي البريطاني جيمس مل، ١٧٧٣- ١٨٣٦ وناسو سبنسر، ١٧٩٣- ١٨٦٤،وجرمي بنثام ١٧٤٨- ١٨٣٢، والذي ذهب الى ان الهدف الأسمى للأخلاق الاجتماعية هو تحقيق الخير لغالبية السكان وذلك بعدم تعارض مصلحة الفرد مع مصلحة الجماعة،اذ ان الفرد في سعيه نحو سعادته فانه يسعى بالمحصلة نحو سعادة المجتمع وقد ابدى ميلا كبيرا الى اصحاب راس مال.

لقد اصبحت هذه الافكار سنداً قويا للطبقة الأرستقراطية وكبار الملاكين في عملية استثمار رؤوس اموالهم بعيدا عن تأثير الدولة او تدخلها بهدف تحقيق الربح الفردي الذي سيؤدي الى تراكم راس المال ،كما استند هؤلاء الى نظرية العرض والطلب كاساس للعمل في التعاقد والانتاج وحتى في تحديد قيمة العمل. لذا فأنهم ركزوا على تلك الحرية(ونقصد الحرية التجارية) لتامين المواد الأولية بأرخص الأثمان وبتوفير عمال باقل الاسعار بهدف تحقيق الربح وتراكم رأس المال.

كما ان هذه الاراء قد شجعت على تفضيل الجانب الصناعي والتجاري على الزراعة حتى ان ريكارود اشار الى ان(المصالح الزراعية تتعارض مع المصالح الصناعية والتجارية وان ارباح الزراعة تقلل من ارباح الصناعة، وتحد من قدراتها فضلا عن ان المستقبل يكون للمصالح الصناعية، لذا

يجب تفضيلها على المصالح الزراعية). لقد ساهمت هذه الطروحات في اشاعة افكار الحرية الاقتصادية في المجتمع البريطاني واصبحت جزءا اساسيا من ثقافته حتى انها اصبحت عنصرا اساسيا في التعليم الجامعي وحتى الأولي . فقد انتشرت مجلدات من القصص الشعبية التي خصصت للأطفال والتي وضّحت أهمية مبدأ الحرية التجارية والاقتصادية ومبدأ التنافس كأساس للنمو، وقد أشارت تلك القصص بأسلوب مبسط الى الأحوال الصعبة للعمال واطفالهم، وان الخلاص من هذا البؤس يكون بالبحث على العمل والتنافس وفي النمو الذي يحصل في المستقبل عندما يقوم الافراد بتطوير قدراتهم وراسمالهم.

ساهمت هذه الافكار في تثقيف ابناء الطبقات كافة وأصبح لديهم الوعي الكامل بان بمقدورهم مضاعفة الارباح مستفيدين من ظروف مجتمعهم المتقبل لافكار الحرية وحتى القبول بالاستغلال للعامل كونه مقتنع بالقيمة التي يمثلها. فضلا عن ذلك فقد تبنى هذه الافكار عدد من الملاكين واصحاب رؤوس الاموال الذي اصبحت لهم مكانة سياسية بانضامهم للاحزاب انطلاقاً من انه يجب ان تصل الطبقة المالكة للحكم من اجل تنظيم القوانين والتشريعات بشكل يتلائم مع مبادئ الحرية الاقتصادية الامر الذي ساعد على تحقيق طفرات صناعية كبيرة.

الجانب الجغرافي والسكاني[1]: تعتبر بريطانيا من الدول المهمة والتي تنشا على جزيرة منفصلة عن أقليم يضم عدد من الدول(وهذه الحالة تشبه حالة اليابان) وكان لهذا الواقع الجغرافي ميزات عدة تمتعت بها بريطانيا دونا عن الدول الاوربية الاخرى منها تمتعها بالحماية الطبيعية من الغزوات

---

[1] راجع الفصل الاول حول الواقع الجغرافي البريطاني وأهميته.

الخارجية، اذ ظلت الاراضي البريطانية بمنائ عن الغزو الأجنبي لاسيما في التاريخ الحديث وظلت احداثها تنطلق وتنتهي في الداخل البريطاني حتى وان حصل دعم خارجي فان الواقع الداخلي هو الذي يفرض نفسه على الواقع السياسي والاجتماعي، الامر الذي ادى الى جعل الاحداث الاوربية والصراعات فيها بعيدة نسبيا عن بريطانيا لاسيما خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر مما انعكس على استقرار الحياة بشكل عام فيها، اذ ان الاستقرار الداخلي اهم عوامل النبوغ والابداع والاختراع.

كما ان الانعزال الجغرافي، كما يذهب العديد من الباحثين، يؤدي الى شعور سكان تلك الدولة بالتمييز عن الأقاليم الاخرى، ويكون النمو الثقافي والفكري فيها نموا حرا بعيد نسبيا عن التأثيرات الخارجية كما انه يعمل على خلق حالة من الانسجام اذ تعطي صفة الانعزال الجغرافي الشعور القوي لدى السكان بالاختلاف عن الاخرين والشعور بالتميز والتفوق فضلا عن الرغبة بالاعتماد على الذات ومحاولة الاكتفاء الذاتي اقتصاديا مما يكون دافعاً للابداع لاسيما ان بريطانيا شهدت زيادة كبير في السكان خلال القرن الثامن عشر مما ولد الحاجة الى زيادة الانتاج وتنوعه ضمن مبدا(الحاجة ام الاختراع).

اما المناخ فكان له تاثير ايجابي كبير اذ يتميز المناخ البريطاني بالملائمة للزراعة المتنوعة والرعي، كما ساعد على نمو الغابات التي كانت اهم مصادر الطاقة، وبعد اكتشاف المناجم فانها تميزت بقربها من مصب الانهار وقرب مناجم الحديد الذي سهل كثيرا عملية الاستخراج والتصنيع.

الواقع السياسي: مجمل الدراسات الاقتصاديةوالسياسية تشيرالى العلاقة الطردية بين الاستقرار السياسي والتطور والنمو الاقتصادي.وخلال دراستنا للتطورات السياسية في بريطانيا خلال القرون السابقة نجد ان التطور السياسي على صعيد الحقوق السياسية او طبيعة الظام السياسي لاسيما ما يتعلق بالملك وصلاحياته المقيدة والبرلمان ودوره في التعبير الحقيقي عن مصالح الطبقات الاجتماعية فضلا عن نمو الاحزاب السياسية والتنافس فيما بينها لتحقيق اكبر المكاسب الديمقراطية الممكنة، كما ان الوعي الشعبي الكبير للواقع السياسي، كل ذلك كان من بين العوامل التي ساعدت الى نمو حالة الاستقرار السياسي خلال القرن الثامن عشر والتي كان لها تاثيرا محوريا في الابداع والتطور. لم تأت حالة الأستقرار السياسي من فراغ بل أن المجتمع البريطاني شهد عدد من الحروب الخارجية والثورات الداخلية الا ان هذه الحروب ساهمت في تماسك الشعب البريطاني وفي نضوجه السياسي. فمنذ عام ١٣١٥ والتي اجبر فيها الملك على توقيع(المكناكارتا) تطورت الاوضاع في بريطانيا باتجاه تحديد تدريجي لسطات الملك المطلقة(كما كان سائدا في اوربا) ،وقد وصلت قمة الاحداث في بريطانيا خلال عهد الثورة ومجيء كرومل للسلطة والتي كانت مرحلة مهمة في تاريخ الشعب البريطاني لانها كانت كفيلة بتعميق الوعي لدى المجتمع البريطاني حول اسلوب المطالبة بالحقوق، فقد كانت ثورة كرومل اشبه بالتطعيم ضد اسلوب العنف للحصول على الحقوق، وكانت بداية لنضوج العمل الديمقراطي. وجاءت ثورة عام ١٦٨٨ والتي اعطت الاساس الفكري للتغيير السياسي وتضع النهج الجديد في الادارة السياسية الأمر الذي ساعد مع مرور السنين في تعايش الشعب البريطاني مع المطالبة السلمية للحقوق والتي كانت تاتي

بثمارها في كل مرحلة من مراحل التاريخ البريطاني. وبالمقارنة مع فرنسا مثلا فقد عانى الشعب الفرنسي خلال حكم لويس الرابع عشر من حالة الفقر والفوضى بسبب طبيعة النظام السياسي المطلقة وانشغاله في الحروب الخارجية لتحقيق حلم الامبراطورية الفرنسية على اوربا والعالم.

الحروب الخارجية:خاضت بريطانيا عدد من الحرب الخارجية والتي كان لها اثر كبير على النشاط التجاري والصناعي فيها.وكانت حرب الارمادا عام ١٥٨٨ اهم تلك الحروب اذ انها حسمت الصراع حول السيطرة البحرية .فبعد ان كات اسبانيا سيدة البحار أصبحت بعد هذه المعركة السيادة البحرية بريطانية بشكل كامل تقريبا مما فتح الباب امام اساطيلها لتجوب البحار لاغراض تجارية او استعمارية للسيطرة على مناطق مهمة في العالم والتي كانت مصدرا مهما في دعم اقتصادها. ثم تات حرب السنوات السبع(١٧٦٠- ١٧٦٣) والانتصار الذي حققة على فرنسا والتي اضافت قدرات جديدة للنفوذ البريطاني وزياد مستعمراتها وبالتالي زيادة حركتها التجارية عبر العالم والتي كانت من اهم اسباب تراكم راس المال في الداخل البريطاني.

حتى الحروب النابليونية والحصار القاري عليها بالرغم من الصعوبات التي عانت منها بريطانيا بسبب ذلك،الا انه في ذات الوقت كان عاملا مساعدا للبريطانيين للبحث عن البدائل الكفيلة بالنصر في هذه المواجهة وذلك من خلال تطوير الواقع الزراعي والصناعي فضلا عن البحث عن مصادر جديدة في المستعمرات البريطانية للحصول على الاحتياجات اللازمة، الامر الذي جعل هذا الظرف عاملا مساعدا للتحقيق النمو والقفزة الصناعية والحافز لعملية الاختراع والاكتشاف كون ان هذا

الامر اصبح ليس فقط عملا اقتصاديا وانما مساهمة وطنية في الدفاع عن مصالح بريطانيا.

التجارة: كانت التجارة الخارجية من عوامل المهمة في النمو الاقتصادي البريطاني، اذ أكد الاقتصاديون على ان تراكم راس المال ياتي من زيادة المدخولات من العملات والمعادن النفسية والتي كانت التجارة ابرز مصادرها.

لقد حرصت الحكومات البريطانية خلال مختلف العهود على تطوير الأسطول البحري البريطاني وتوسيعه وذلك من خلال عدد من الإجراءات أهمها إصدار القوانين الخاصة بالملاحة. فمنذ عهد كرومل صعودا صدرت قوانين عدة للملاحة التي نصت على ان المحاصيل الزراعية والمنتجات الصناعية والتي تنقل الى بريطانيا او أحدى مستعمراتها لايجوز نقلها ألا بسفن بريطانية، وحتى تلك المحاصيل او المنتوجات التي تنقل من أوربا يجب ان تكون بسفن بريطانية، كما صدرت قوانين تجبر كل من يعمل بالتجارة على امتلاك سفن تجارية.هذه القوانين وغيرها ساهمت في اتساع وتطوير الأسطول البريطاني، اذ تشير الإحصاءات الى ان في عام ١٧٠٠م كان الأسطول التجاري البريطاني يحتوي على(٣٣٠٠) سفينة زاد في النصف الثاني من نفس القرن الى(٨١٠٠) سفينة،ومع بداية القرن التاسع عشر كان عدد السفن قد تضاعف الى خمس أضعاف ذلك الرقم.وقد كانت مهمات هذه السفن تزويد بريطانيا بالمواد الاولية ونقل الفائض الى الأسواق العالمية مستفيدة من ان بريطانيا جزيرة ومفتوحة على جميع بحار العالم. لقد ساعد ذلك على توفير الاموال الكبيرة للمشتغلين بالتجارة فقد حققت الشركات التجارية ارباحاً طائلة في التجارة مع اوربا وافريقيا وامريكا واسيا، والذي انعكس على استثمار تلك الاموال في

الداخل البريطاني. فضلا عن ان هذه الشركات كان لها دور عسكري في خدمة الدولة كما هو الحال مع شركة الهند الشرقية. ومما عزز قوة الاسطول البريطاني اصدار الحكومة لقوانين التأمين ضد المخاطر التي تتعرض لها السفن، واصبحت لندن في نهاية القرن التاسع عشر مركزاً لمنظومة التأمين البحري لاوربا بشكل عام كونها كانت موضع ثقة التجار الاوربين. كما أن نظام الشركات اعطى دفعا للحركة التجارية كونه ساهم في توسيع تلك الشركات وتقليل الخسائر كونها تتالف من اكثر من فرد لذا فان الخسائر تتنوزع على افراد الشركة.

النظام المصرفي:كان للنظام المصرفي والنقدي الدور الفعال في الطفرة الصناعية البريطانية ،من خلال قيامه بتركيز وتراكم راس المال وزيادته في بريطانيا ومن ثم والتخطيط لأستثماره . فقد مر بنا تاسيس بنك انكلترا عام ١٦٩٤ في وقت مبكر بالمقارنة مع الدول الاوربية الاخرى.وكان دوره كبيرا في تطوير النظام المالي والمصرفي في بريطانيا لاسيما عندما بدا البنك بعملية الاقراض العام لاصحاب المشاريع الزراعية والتجارية والصناعية. كما تم تاسيس سوق الاوراق المالية(البورصة) وذلك عام ١٦٩٨(كانت هولندا اول الدول الاوربية التي ابتكرت هذا النظام المالي) وقد لعبت هذه السوق دورا كبيرا في أستثمار الاموال التنمية التجارة والصناعة في المراحل اللاحقة حتى اصبحت لندن وسوقها المالي اهم مركز للاستثمار ليس على الصعيد البريطاني فحسب بل جذب رؤوس الاموال الاجنبية بهدف استثمارها مما كان له الاثر في استقطاب اموال كبيرة الى بريطانيا ساهمت في الطفرة الاقتصادية(اصبحت لندن بعد عام ١٨١٥ المكان الذي تحدد فيه اطار النظام المالي العالمي) وقد اصبح العمل المالي (أي تداول الاسهم) عملا رائجا ومربحا في بريطانيا

اشـتراك فيـه لـيس التجـار والصـناعيون فحسـب وانمـا شـرائح اخـرى مـن المجتمـع كـالرجـال القـانون والموظفـون وغيرهـم. وقـد عمـد(بنـك انكـلترا) لاصـدار الاوراق النقديـة ذات التـداول المحلـي فضـلا عـن الاوراق الماليـة (السـندات) ذات القيمـة المضـمونة . وخـلال الفـترة ن ١٧٥٠- ١٧٦٥ تم تاسيس حوالي(٣٠) بنك اهلي (خاص) ارتفع العدد عام ١٨٠٠ الى ٧٠ بنك خاص، ساهمت هـذه البنوك باعمـال عدة اهمها دعم المشـاريع الصناعية وتطـوير المشـاريع الزراعيـة ودعم،وتاسـيس الشـركات التجاريـة الكـبرى ومن ابرز هذه البنوك (بنك باركلي وبنك لويد).

وعملت الحكومة البريطانية على تنظيم الامور المالية بشـكل يخدم النمو الاقتصـادي مـن خـلال تاسـيس(البنـك المركـزي) وذلـك عـام ١٧٥٧م ممـا كان له الاثر في التخطيط السليم للاستثمار والتداول المالي.

ان العمل المالي والمصرفي في بريطانيا كان قد سبق باقي الدول الاوربية في الولادة والتنظيم، فانعكس ذلك على لواقع الاقتصادي بشـكل عـام لاسيما الصناعة من خلال أمكانية الاستثمار في المشاريع الصناعية التي احتضنت مجموعة المخترعات لتطوير انتاجها ،وان هذه الاستثمار كان اذ مخـاطر محـدودة نتجيـة لنظـام الاسـهم الـتي قامـت عليهـا الشـركات والمشاريع.

ذكرنـا فيمـا سـبق أن نمـو التجـارة وتزايـد النشـاط المصـرفي ادى الى تـراكم راس المـال وهـو العامـل الاسـاس في أي نمـو اقتصـادي في بريطانيـا. فتشير التخمينات الى ان قيمة راس المال الانكليزي عام ١٧٥٠ بلغ(٥٠٠) مليـون بـاون اسـترليني امـا عـام ١٨٣٠ فقـد اشـارت الاحصـاءات الى انـه بلـغ(مليـارين ونصـف) بـاون اسـترليني ،أي ان دخـل الفـرد البريطـاني تجاوز(١٧٠) باون سنويا ، على الرغم من ان ذلك لايعني التساوي في توزيع

الدخل، فقد نمت طبقة راسمالية تركزت لديها الاموال من ملاكين وصيارفه وتجار واصحاب مصانع عملوا على أستثمارها بشكل اقتصادي من خلال توسيع وتطوير الواقع الصناعي والزراعي والتجاري، أي ان هؤلاء استفادوا من النظريات النفعية والفردية التي امن بها المجتمع البريطاني وعملوا على تطوير وتنمية قدراتهم المالية من خلال الاستثمار الامثل لراس المال حتى ان التجار البريطانيين بدأوا باستثمار اموالهم في الخارج لتنميتها والعودة بالأرباح الى بلدهم الامر الذي ساهم في تدفق الاموال والمعادن الثمينة الى بريطانيا.

ان اهم صفة من صفات راس المال البريطاني انه كان ليس حكوميا أي انه ليس تحت يد وسلطة الحكومة البريطانية تستخدمه في بناء مؤسساتها وتمويل حروبها او ما شابه ذلك، وانما كان راس المال فرديا بيد أبناء الطبقات على مختلف مستوياتهم أي ان تركيز الثروات كان بيد الملاكين الافراد وليس الدولة وكان استثماره في وجوه خدمت هؤلاء الملاكين وادت بالنتيجة الى التطور الاقتصادي حتى ان هؤلاء الافراد غالبا ما كانوا مصدرا لتمويل المشاريع الحكومية ان كانت حربية او اقتصادية وذلك من خلال الضرائب التي يقدموها او من خلال القروض التي تنظيمها المصارف الاهلي والبورصات.

وهناك مقولة ماثورة يرددها(الانكليز) منذ عهد الملكة اليزابيث الاولى(١٥٥٨- ١٦٠٣) (بينما كان كنزها الاعظم مخبأ في قلوب رعاياها فقد أرتات ان تكون أموالها في جيوب الناس بدلا من الخزينة).

ويمكن ان نفهم أهمية ذلك في التطور البريطاني من خلال المقارنة مع الواقع الفرنسي، فقد كان الأفلاس والنقص في المدخولات وزيادة الضرائب والنفقات على الجيش والأسطول البحري التي انهكته الحروب

الخارجية من بين أهم اسباب الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م. فقد كانت الطبقات العليا كسوله مستهلكه فيما كان ابناء الطبقة العامة وهم الاغلبية يعانون من اعمال السخره وفرض الضرائب. وقد اشارت احدى الدراسات الى انه في عام الثورة كان عدد رجال البلاط الملكي الفرنسي(١٨) الف شخص لهم رواتب ضخمة دون ان يكون لهم أي عمل .ووصف احد مستشاري الملك الواقع الفرنسي(أصبح الكثير من الناس بلا ماوى وملئت المستشفيات بالمرضى، وفقرت البلاد) في الوقت الذي كان البرلمان البريطاني يراقب ويحدد نفقات البلاط الملكي وان رواتب الملك وكبار مستشارية تحدد بقوانين .

الثورة الزراعية: من العوامل المهمة الاخرى والتي ساعدت بريطانيا على التغير والنمو الصناعي ما اطلق عليها(بالثورة الزراعية) والتي كان من ابرز سماتها تطور اساليب الزراعة وصدور مجموعة من القوانين التي ساعدت على النمو الزراعي، اذ ان كبار الملاكين وهم انفسهم يملكون نفوذاً سياسيا ،(فقد كان اصحاب الاقطاعات الكبيرة ينتخبون بشكل مستمر عن الدوائر الانتخابية وأحيانا كثيرة يفوزون بالتزكية لعدم وجود منافس لهم) فقد كانوا يعملون من خلال البرلمان لاصدار القوانين التي تؤدي لانتعاش الزراعة.

حتى القرن الثامن عشر كانت الاراضي الزراعية على نوعين الاراضي الزراعية التي يمتلكها النبلاء (كبار الملاكين) وارآضي صغيرة يملكها صغار المزارعين الا انه مع بداية القرن الثامن عشر اصدر البرلمان قانون(تقرير ملكية الاراضي الزراعية) وذلك من خلال منح حق ملكية الارض لكل من يبرز سندات او وثائق تثبت ملكيته للاراضي ،وبذلك تمكن كبار الملاكين من الاستحواذ على معظم الاراضي التي عجز

صغار الملاكين من أثبات ملكياتهم لها مما اظهروا اما للعمل كمزارعين لدى هؤلاء او الهجرة الى المدن مما مثل احد عوامل النهضة الصناعية كونها وفرت الايدي العاملة الرخيصة في الصناعة.

فضلا عن ذلك فقد اصدر البرلمان عدد من (قوانين التسييج) والتي حصلت لاسباب شتى منها تتعلق بتحديد مناطق خاصة بالرعي بهدف زيادة انتاج الاصواف ومنها لتحديد الملكية اذ سورت معظم الاراضي الزراعية أما التي تقع ضمن ملكية كبار الملاكين او تسوير الاراضي الصغيرة لاغراض الرعي وما شابه، ومع ان هناك نتائج سلبية لهذه العملية الا ان من نتائجها الأيجابية انها كانت عاملا مهما في تقدم وتطور الزراعة،اذ اهتم كبار الملاكين بتطوير مزارعهم وتطوير الاساليب المستخدمة في الزراعة كالالات الحديثة والاسمدة ونظام الدورات الزراعية وذلك بهدف زيادة الأنتاج وتحقيق أعلى نسبة ربح ممكنة.وعملوا على تحسين انواع الحيوانات وزيادة انتاجها بالاستفادة من المخترعات التي دعم اصحابها ماديا والذي ساعد بدوره على تنشيط عملية الاكتشاف والاختراع والابداع فيها اطلق عليه(الزراعة العلمية). لقد ساهمت مجموعة من القوانين لحماية الزراعة ومنتجاتها لاسيما تقليل الاعتماد على الخارج لسد الاحتياجات من خلال في فرض الرسوم والضرائب على السلع الخارجية كما ان التطور الزراعي وزيادة الانتاج أسهم بشكل فاعل في تراكم ونمو راس المال لعدد كبير من ابناء الطبقة الاستقراطية الى عملت على استثمارة في الميادين.

دور الجامعات: مثلت الجامعات البريطانية رافدا مهما للعلوم النظرية والتطبيقية اذ ساعدت على تنشيط حركة الاختراعات وتطويرها ومن ابرزها جامعة كلاسكو وادنبره واكسفورد وكامبردج.

لقد اصدرت الدولة مجموعة من القوانين لحماية حقوق المخترع وحق استخدام او بيع اختراعه لمدة ١٤ عام،الامر الذي ساهم في تشجيع عملية الاختراع وضمان حقوق الافراد المبدعين.

كل هذه العوامل ساهمت وبشكل كبير في ان تعيش بريطانيا مرحلة تاريخية في التطور الصناعي ولتكون مهدا لثورة صناعية عمت اوربا والعالم وغيرت وجه الحياة برمتها وبكل جونبها حتى السياسية منها ، وهنا يلخص المؤرخ فيشر عوامل النهضة الصناعية في بريطانيا في كتابة (تاريخ اوربا في العصر الحديث) قول للفيلسوف الالماني هيغل (ان حياة الانكليز المادية تقوم على التجارة والصناعة،وقد اخذ الانكليز على عاتقهم عبء نقل الحضارة الى العالم.وان روحهم التجارية تحفزهم على الطواف في كل بحر والتنقل في كل مكان وانشاء صلات وروابط مع الشعوب المتبربرة وخلق الحاجات وانعاش دولاب الاعمال، وتهيئة الأحوال الضرورية فيما بينهم وهذه الاحوال هي نبذ حياة العنف غير المشروع ،واحترام الملكية واتباع اداب اللياقة في السلوك مع الغرباء)

الفصل الرابع عشر

التجربة الاشتراكية في بريطانيا

ظهر مفهوم الاشتراكية[1] في طروحات عدة وفي مناطق وأزمان مختلفة وتطور مفهومه من مرحلة الى أخرى،ألا انه بالإمكان وضع مفهوم عام للفظة الاشتراكية هو(تحقيق العدالة).اذ عرف المفهوم هذا في بريطانيا قبل الثورة الصناعية كدعوة لتحقيق العدالة في توزيع الثروات بين ابناء المجتمع والقضاء على الفوارق الحادة بين الطبقات،فهي وفق هذا المفهوم أعادة تنظيم الحياة الاجتماعية(بشكل سلمي) وفق موازيين العدالة والتي من ابرز سماتها مراعاة حقوق الانسان والغاء الاستغلال[2].فلم يكن القصد من الفكر الاشتراكي(التعاوني) الثورة والعنف بقدر ما كانت دعوة للعمل وفق التخطيط والتنظيم السلمي للانماء الاقتصادي

---

[1] على الرغم من عدم ذكر لفظة اشتراكي اشتراكية في تلك الفترة،اذ كانت تذكر(عدالة اجتماعية) او مشاركة او تعاون او ما شابها من المصطلحات والتي وحدت فيما بعد مفهوم واحد هو الاشتراكية،قد ظهر لفظة اشتراكي لاول مرة في احدى الصحف الايطالية عام ١٨٠٣،ثم ذكرته(لمجلة التعاونية) في بريطانيا عام ١٨٢٧م عندما ذكرت(اشتراكيSocialist) لوصف مذهب روبرت اوون وكانت تقابل لفظة فردي(individual) التي كان يتبناها دعاة الفردية.في عام ١٨٣٢ ظهر في مجلة فرنسية كلمة الاشتراكيةSocialisme كمبدا للعدالة الاجتماعية التي تدعو الى الغاء الفوارق الطبقية.

[2] مثلت هذه الافكار احد اهم عوامل قيام الثورة الفرنسية وما تلاها من اصلاحات اقتصادية فعلى الرغم من ان التغيير السياسي كان بالعنف والثورة الا ان النظام الجديد لم يقر الغاء الملكية الخاصة وانما عمل على حمايتها ولكنه قضى على الملكيات الكبيرة وخلق ملكيات صغيرة لاوسع شريحة في المجتمع في السعي من اجل تحقيق مبدا العدالة في توزيع الثروات وانهاء التفاوت الطبقي الذي كان قائما قبل الثورة.

وتعزيز خير المجتمع ورفاهيته والذي اعتبر اهم اسس قيام لمجتمعات المستقرة ،كون ان نشر العدالة سيؤدي الى الاستقرار السياسي والاجتماعي.وقد اشارت تلك الافكار في هذه المرحلة(قبل الثورة الصناعية) على خلق مجتمعات تعاونية غير تنافسية من خلال تربية المجتمع وتوعيته باهمية السلوك التعاوني ، من هنا فان الاشتراكية البريطانية انطلقت من هذا الاساس قبل الثورة الصناعية واستمرت عليه بعدها ،اذ ركزت على مواجهة مفهوم الفردية الذي نشط في القرن الثامن عشر(والذي تحدثنا عنه في الصفحات السابقة) والعمل السلمي لتحقيق العدالة الاجتماعية من خلال نشر الوعي وايجاد تطبيقات عملية لمبدأ التعاون من خلال مبادرات لعدد من المفكرين والمهتمين.

ولابد لنا لمعرفة جذور الفكر الاشتراكي البريطاني العودة الى القس توماس مور(١٤٧٨- ١٥٣٥) الذي رسم صورة خيالية للمجتمع المثالي الذي دعا اليه وتمنى قيامه واطلق عليه(يتيوبيا)[١] وعلى الرغم مما في هذه الطروحات وغيرها من خيال واسع وصف(بالطوباوبة)، الا انها اشرت الى بداية التفكير(في تاريخ بريطانيا الحديث) في معالجة سلبيات المجتمع والذي من ابرز سماته التفاوت الحاد في مستوى المعيشة بين الافراد والغاء الحقوق السياسية لابناء المجتمع وضعف الاستقرار في المراحل اللاحقة. اندمج الفكر الاشتراكي في بريطانيا مع المطالب السياسية والتي أدت الى حالة من الصراعات والحروب الأهلية ،اذ كانت المطالب السياسية في منح الحقوق لأبناء المجتمع وموضوع الضرائب ابرز سمات تلك الحقب التاريخية.فلم يكن موضوع النظام الاجتماعي القائم او أصلاحه هو

[١] يمكن الاطلاع على افكاره في هذا الكتاب عند عرض المرحلة التي عاش بها.

أساس المطالب او الصراعات في بريطانيا ،الا انه ظهرت حركات ذات أهمية محدودة في التاريخ البريطاني دعت الى المفاهيم الاشتراكية(كجمعية لندن التراسلية)والتي تزعمها توماس سبينس(١٧٥٠- ١٨١٤) والذي قارب توماس مور في طروحاته حول أقامة مجالس محلية(كومونات) لتدير شؤون الاراضي الزراعية بما يحقق العدالة بين العاملين فيها.وأشار سبينس الى اقامة نظام اجتماعي من هذه المجالس التي ترتبط مع بعضها وفق قوانين يحدد فيها التوازن بين الحاجة والقدرة على العمل،وقد نشر سبينس ارائه في كتاب في نيوكاسل عام ١٧٧٥.

نشأت بموجب هذه الطروحات جمعيات عدة تبنت أفكاره سبينس وعملت على نشرها بل ودعت الى تطبيقها ،منها(جميعه محبي البشر السبينسيين) والتي تأسست عام ١٨١٢ ،الا ان هذه الأفكار لم تتمكن من ايجاد التأثير الواضح او الكبير على المجتمع البريطاني وذلك نتيجة لما لقيه من معارضة واسعة من قبل الطبقات المتنفذه لاسيما التي له سلطات سياسة في البرلمان والحكومة.

ادت الحرية الاقتصادية التي رافقت الثورة الصناعية الى ان يتبنى الرأسماليون مبدا عام لوضع او تشريع قوانين تخص العمال وحقوقهم وفق مبدا عدم تدخل الدولة في العمل طبقا لمبدا الفردية التي سادت في تلك المرحلة.ونتيجة لتردي حالة العمال مع عدم وجود قوانين لحمايتهم ظهرت مجموعة من الاصوات المنادية بضرورة معالجة الواقع الاجتماعي الجديد بشكل انساني،وقد تم تصنيف المطالبين بالاصلاح الى ارستقراطيين كانوا يهدفون الى الحد من نفوذ الطبقة الصناعية الصاعدة فتبنوا مصالح العمال لتحقيق اكثر من غاية في ان واحد.ورجال الدين الذين

انتقدوا الفردية التي سادت في المجتمع البريطاني ووجودها انها تدعو للانانية وحب الذات وهو ما يتناقض مع المبادئ المسيحية، فضلا عن هؤلاء فهناك افراد من الطبقة البرجوازية الصناعية الذين تبنوا الدعوة لاصلاح واقع العمال لاهداف شتى، كما ظهر عدد من زعماء العمال الذين قادوا عملية المطالبة بالاصلاح والتي وصلت الى حد اتهام اصحابها بحياكة المؤمرات ذات الطابع العنفي كما حصل في مؤامرة شارع كاتو عام ١٨٢٠م.

على الرغم من محدودية تاثر اراء سبينس فقد أعتبر احد منابع الفكر الاشتراكي في بريطانيا. اكمل مسيرته مفكر بارز اخر هو وليم غودين(١٧٥٦- ١٨٣٦) والذي أصدر كتابا بعنوان(تحقيق العدالة السياسية) عام ١٧٩٣، دعا فيه الى اقامة مجتمع تكون علاقاته مبنية على التعاون وحسن النية والعدالة انطلاقا من التركيز على ان العقل البشري الذي هو بالفطرة يتبنى هذه القيم(فقد امن بان للعقل البشري دليلا لايخطئ الى الحق والاصلاح وهو مغروس في الناس جميعا).

كانت طروحات غودين مفرطة في الثقة في الانسان وعقله متغافلاً غرائزه ورغباته والتي هي ايضا تدخل في الطبيعية الانسانية والتي تحتاج الى ضابط ذا سلطة يخضع لها الافراد.ومن هنا عدت افكاره غارقة في الخيال بل اتهم بانها دعوة للفوضوية فقد بلغ في ثقته بامكانية تبني العقل الانساني للعدالة على اعتبار انه(عقلا اخلاقيا قادر على قيادة الناس الى العمل بعدل وانصاف.وان العقل بطبيعته تعاوني ناصحا معصوما من الخطا)واعتقد بامكانية تخلي افراد المجتمع طوعيا عن انانيتهم ومصالحهم لصالح المجموع.

انتقد غودين الفوارق الطبيعية الموجودة في بريطانيا وشجب احتفاظ كبار الملاكين الاغنياء بفائض الأموال كون هذا الفائض هو يساوي حاجة اشخاص اخرين هم بأمس الحاجة له.أعتبرت افكار غودين على انها متاثره بشكل كبير بنوعين من الاراء الاولى تاثيرات داخلية وهي في اغلبها دينية لاسيما في التركيز على(ضمير الفرد والتي كانت مستندة الى افكار واراء جماعة البيوريتان(المطهرين) والتي كما اوضحنا كان لها دورا سياسيا واجتماعيا واسعا في الجزيرة البريطانية على مدى قرون، الامر الذي جعل تلك الاراء اساسا لطروحات فكرية عديدة منها اراء غودين، فقد استعار منها حماسه الكبير للتقشف والعيش المقتصد على اعتبار(ان الترف مفسدة للحياة الصالحة).ان الاساس الاخر لفكره كانت الفلسفة الفرنسية التي تبناها عدد من المفكرين امثال هوبز وروسو وغيرهم والتي ركزت على اعتبار العقل هو الاساس في التغيير الاجتماعي. وكان لمرحلة بروزه على الساحة الفكرية المتزامنة مع احداث وافكار الثورة الفرنسية الاثر الكبير في تبنية اراء فلاسفة الثورة.

لقد عول غودين كثيرا ودعا بشكل كبير الى حسن النية والتصرف السليم ورفض الاعتقاد ان القوانين كفيلة بحل تعقيدات المشكلات الاجتماعية ،بل اصر على ان القوانين السليمة هي قوانين العقل التي لاتوجد سلطة تفرضها وهي كفيلة بحل مشاكل الافراد.

لذا يمكن فهم معتقد غودين على انه عقلي- أخلاقي غير عنفياذ انه دعا الى اعتبار العقل كسلاح بدلا من القوة لان الاخيرة عاجزة عن تغيير عقول الناس،وان الثورة يجب ان تكون ثورة في عقول الناس، لذا فقد أعتبرا التنوير العقلي هو اساس العدالة.وعلى الرغم من ارائه السلمية تلك

فقد دعا الى مقاومة السلطة الشريرة حتى لو تطلب الامر الموت في مواجهة تلك السلطة.

اما وسائلة فتكمن في الحرية في التعبيروالتربية والابتعاد عن القوة والقسر حتى في التعليم والتنوير، واكد على التعاون الحر والودي المستنير بين الافراد المجتمعين في مشتركات او تعاونيات صغيرة. اعتبرت افكار غودين ومن عاصره من المفكرين امثال(توم بين ١٧٣٧- ١٨٠٩) وغيره ماهي الا محاولات فكرية ذات طابع خيالي كتعبير عن رفض حالة الاستغلال الموجدة في الريف البريطاني، فضلا عن رفض حالة التفاوت الكبير بين طبقات المجتمع.وهدفت ايضا الى ايجاد الارضية الشعبية للمطالب بالاصلاحات السياسية من خلال منح الحقوق السياسية لاوسع شريحة من الشعب كون ان ذلك يؤدي الى امتلاك الشعب للقدرة على خلق مجتمع عادل. وعلى الرغم من ان الافكار والمطالبات قد رافقت احداث الثورة الفرنسية ذات الطابع العنيف الا انها رفضت استخدام العنف والثورة كوسيلة للتغير، وانما ركزت على تنمية الفكر والوعي واعتماد العقل والضمير وتحفيزه لفعل الخير وتحقيق العدالة.الا انه وبرغم رفض المفكرين الاشتراكيين لمبدا العنف والثورة الا ان الفكر الاشتراكي البريطاني شهد سكوتا خلال مرحة الثورة الفرنسية وما تلاها من تراجع الحقوق السياسية في في اوربا بشكل عام وبريطانيا على وجه الخصوص نتيجة للمخاوف التي سادت الاجواء السياسية الشعبية البريطانية من امكانية تكرار التجربة الفرنسية(لاسيما حالة العنف التي رافقت الثورة وما تلاها من الحروب النابليونية) داخل بريطانيا، الامر الذي جعل الحكومة البريطانية تتخذ سلسلة من الاجراءات التي حدت فيها من أي محاولة فكرية كانت او عنفية وحتى التجمعات والتظاهرات مهما كان

حجمها خوفا من تطورها الى حالة من الثورة وعدم الاستقرار، بل ان لتلك الاجراءات نالت تائيدا شعبيا في بريطانيا حرصا من المجتمع على حالة الاستقرار السياسي والاجتماعي وحتى الاقتصادي الذي تتمتع به بريطانيا.لاسيما انها تملك اسطولا بحريا تجاريا وحربيا كبيرا ادى الى زيادة القدرات التجارة من خلال اتساع رقعة المستعمرات التي تسيطر عليها بريطانيا او شركاتها التجارية، الامر الذي اعتبره المؤرخون ان هذه المرحلة مثلت فجوة في تاريخ الفكر الاشتراكي البريطاني بين جيل غودين وجيل روبرت اوون الذي سيكون له تاثيرا فكريا وعمليا في تجربة الاشتراكية البريطانية.

روبرت اووين

ارتبط الفكر الاشتراكي البريطاني الحديث بشكل عميق ومميز بفكر وتجربة روبرت اووين الاشتراكية بل يعتقد المؤرخون ان معظم الحركات والاحزاب التي تبنت الفكر الاشتراكي في بريطانيا جعلت من فكر اووين اساسا لها، لذا فقد اعتبر اووين(مؤسس الاشتراكية البريطانية) وذلك من منطلقات عدة:

١. ان افكاره جاءت بعد فترة من الركود الفكري الاشتراكي الذي ساد بعيد الثورة الفرنسية وحروبها مما جعلها تملا فراغا فكريا في مرحلة مهمة في التاريخ البريطاني السياسي والاقتصادي.

٢. ان اووين لم يكن من الطبقة العمالية المستقلة او من مفكري الطبقة الوسطى وانما هو من اصحاب راس المال وهو رب عمل الامر الذي جعل فكره وارائه تلقى تاييدا في مختلف الاوساط.

٣. ظهـرت افكــار اوويــن في ذروة النهضــة الصــناعية وارهاصــاتها وتداعيتها على الصعيد الاجتماعي والسياسـي والانسـاني بشـكل عـام لهـا ممـا كـان لـه تـاثير كـبير باعتبـار تلـك الافكـار مثلـت معالجات عملية للمشكلات الناتجة عن تلك النهضة.

٤. ان افكار اووين لم تكن نظرية فقط او مجرد دعوات للاصلاح والعدالة وانما قورنت بالعمل والتطبيق العملي من خلال قدرة اووين المالية على تنفيذ برامجه على ارض الواقع من اجل الوصول الى ما يصـبوا اليــه فكــره مــن تحقيــق العدالــة الاجتماعيــة والسـعادة الانسانية ومنع الاستغلال.

ولد اووين في ويلز في مقاطعة مونتجري عام ١٧٧١ وعاش عمرا مديدا بلغ ٨٩ عاما كانت مليئة بالنشاط والحيوية حتى ايامه الاخيرة فقد توفي عام ١٨٥٨م.

لقد اسهب المؤرخون بشخصية اووين المتميزة، اذ كان يمتلك ثقة كبيرة بنفسه وبقدرته الشخصية على تحقيق اهدافه وتنفيذ افكاره فقد امتلك طاقة كبيرة لم تجعله يشعر بالياس او الملل بالرغم من ضخامة التحديات ،ويوصف بانه عنيد لا يقبل بالحلول الوسطى او(التسوية) في تنفيذ قراراته او ارائه، لم يتصور نفسه مخطأ ابدا ويعتبر أي اخفاق يصادفة او عدم قدرته على اقناع الاخرين بافكاره انما مردة الى عدم ايمان المجتمع بقوة العقل او يعزو العلة الى (سخف العالم) مما وصف بانه استبدادي في مواقفة يصف المعارضين له بانهم حمقى.

- كـان رجـلا عصـاميا تميـز ببنـاء ذاتـه بطاقـة كـبيرة الامـر الـذي انعكس على صفاته الشخصية التي تميزت بالبساطة والسهولة والابتعـاد عـن حـب الـذات او تفضـيل مصـلحته الشخصـية علـى

المصالح الاخرى كما انه نظر الى المال الذي يملكة كوسيلة لتنفيذ القضايا التي اعتقد وامن بها.

- آمن بان انماط سلوك الافراد وقيمتهم انما تعود للبيئة وللواقع الاجتماعي والسياسي الذي يعيشونه، اذ ان انماط السلوك والقيم الرفيعة او السيئة ، المستنيرة او الجاهلة يمكن ان تكون نتيجة للأساليب والقوانين التي تصدر من قبل السلطة.وان طبيعة النظام الاجتماعي والسياسي تنعكس سلبا او ايجابيا على تلك القيم وانماط السلوك، فالسلوك السيئ انما هو نتاج البيئة السيئة والعكس صحيح.

- ابدى انزعاجه واشمئزازه من آثار الثورة الصناعية والتكالب بين ارباب العمل للاثراء السريع والتي عزاها الى قساوة القلوب، فان (بالامكان انتاج السلع بفعالية دون الحاجة الى سحق وجوه الفقراء) ،وانتقد الذين حمْلوا الأغنياء للفقراء مسؤولية فقرهم كما ذهب الى ذلك دعاة الفردية ومن ابرزهم ريكاردو.كما اشار الى الثروة(يمكن ان تُخلق بقدر من الغزارة يساعد على اشباع رغبات الجميع، وان السيطرة على الثروة والشرور الناشئة عن الرغبة في اكتساب الاموال وتراكمها هي الان على وشك الانقضاء) وهذا يشير ليس فقط الى انتقاده للواقع وانما ثقته العالية بقدرته على تغيره.

- انتقد نظام المصانع بوصفة احد مناشئ القيم السيئة لما فيها من كفاح تنافسي والتعبير عن الجشع البشري الذي يذهب ضحيته العمال الذين يعيشون في ضله منذ صغرهم باوضاع سيئة لاسيما الاحياء العمالية القذرة والعادات السيئة التي اجبروا عليها.

- ركز في طروحاته في المرحلة الاولى من حياته على التربية والتنشئة السليمة كأداة لتحويل طبيعة الواقع البشري وتعزيز العنصر الاخلاقي.اذ ان التربية الصحيحة ابرز العوامل لايجاد الواقع والبيئة المناسبة للعدالة والاصلاح والاخلاق الصحيحة*.
- كانت المرحلة الاولى من حياته تتميز بالطروحات النظرية الاقناعية من خلال دعوة اصحاب المصانع والحكومات ورجال السياسية للسيطرة على الواقع الصناعي والزراعي وتحسين اوضاع العمال في المصانع.
- الا انه بدا في تنفيذ افكاره بنفسه عندما اعترف بما اطلق عليه (حق العمل) وفيه اكد على ان عماله في المصانع التي يمتلكها في مانجستر(مؤسسة نيو لانارك) لهم حق المشاركة في المؤسسة الى جانب مديريها ،فضلا عن دفعه للاجور العادلة لهم اذ انه عمل على تنظيم النشاط الرأسمالي بان يضفي عليه صفة انسانية.
- قام بالتبشير بافكاره ومعتقداته بزيارات متكررة الى الدول الاوربية ومحاولة اقناعهم بامكانية حكوماتهم على تطبيق تلك الافكار وذلك من خلال مجموعة من الرسائل التي عمل على ايصالها الى تلك الحكومات عام١٨١٧ عبر الصحف للتاكيد بان قيم الناس وسلوكهم انما هو ثمرة البيئة الاجتماعية والسياسية التي يعيشون فيها وان النظام التنافسي كان السبب الرئيسي في الشقاء البشري.

---

* وهذا ماورد في كتابة الصادر عام ١٨١٣(مقالات في تكوين الخلق) اذ حمل فيه من يحكمون الشعوب مسؤولية تكوين القيم والسلوك الاجتماعي.

كما ابرز في تلك الرسائل مقته للأديان بشكل عام باعتبارها أحد عوامل التبعية البشرية الامر الذي فسر على انه كان يهاجم الكنيسة الانكليزية مما اثار ذلك عدد من الانتقادات ضده[1].

اذا كانت المرحلة الاولى في تطور منهج اووين الاشتراكي يقوم على أساس نشر فكرة التكافل التعاوني والانساني لانهاء أي حالة استغلال او فوارق طبقية وذلك عن طريق المقالات او الرسائل التي ينشرها ويدعو فيها الى ان يقوم من يمتلكون السلطة والقوة المادية بالمبادرة لتحقيق السعادة الانسانية من خلال تطبيق منهجيته في(العدالة الاجتماعية).فقد تضمنت هذه المرحلة ايضا قيامه بتبني المنهج الاشتراكي الذي دعا اليه وتطبيقة في المصانع التي يديرها(نيو لانارك) ليثبت صحة هذا النهج واهميته في تحقيق مجموعه من الغايات اهمها منح العمال حقوقهم التي يستحقونها وفق نظرية(حق العمل) وتاثير ذلك على زيادة الانتاج والأرباح.

في المرحلة الثانية دعا الى انشاء قرى تعاونية تتمتع بالاكتفاء الذاتي تتبادل فيما بينها فائض الانتاج مما يحقق للمجتمع استقراره وتسود فيه القناعة والرضا والتعاون والتي هي اساس السعادة الانسانية،وأشار الى ان تلك القرى تقوم على مبدا(العمل هو معيار للقيمة) اذ يشير الى ان القيمة الطبيعية للاشياء التي يصنعها الانسان تتوقف على مقدار العمل المنفق فيها واوضح ان العمل يقاس بوحدة قياسية سماها(زمن العمل) والتي دعا ان تكون كمعياراً لقيمة السلع بدلا من المال.

وعندما لم تجد دعوته أي صدى للتطبيق قرر المبادرة لتطبيقها بشكل عملي مباشر لاثبات صحة نظريته في أهمية اقامة القرى التعاونية التي

---

[1] وسنرى تاثير كارل ماركس بهذا الطرح في موقفه من الدين الذي اعتبره معوقا لتطبيق الاشتراكية واساسا من اسس الاستغلال.

تستوعب العاطلين عن العمل الذين يمثلون عبئا على المجتمع،وتتمتع تلك القرى بالاكتفاء الذاتي.

ففي عام ١٨٢٤ غادر بريطانيا تاركا مصالحة الصناعية مشيرا الى انه(يبتعد عن العالم اللااخلاقي) كون ان القيم في بريطانيا قد أفسدتها الاخطاء الصناعية التنافسية بما يتعذر قيام ما يبشر به(العالم الأخلاقي الجديد) وقرر ان تكون وجهته الولايات المتحدة الامريكية والتي اعتقد انها لم تفسد بيأتها بعد وانها ارض صالحة لتنفيذ مشروعه في القرية التعاونية.

عند وصوله الولايات المتحدة اشترى مستعمره(نيو هارموني) في ولاية انديانا وأنشا فيها اول تعاونية(مشتركة) لخلق نظام اجتماعي جديد يقوم على اساس العدالة والمساواة وتكون(قيمة العمل) هي القيمة المتداولة بدلا من قيمة المال.ساعد اووين على اقامة مشروعة هذا ان قيام مثل هذه القرى كان امرا مألوفا في الولايات المتحدة اذ كانت هذه الارض مهدا لعدد من القرى التعاونية انشأها الحالمين والاشتراكين او الملتزمين دينيا والذين يقيمون في قرى ضمن تعاليم وطقوس معينة فيما يشبه(المدن الفاضلة) التي تحدث عنها عدد من الفلاسفة كافلاطون ومور وغيرهم ،وان اقدم هذا النوع من القرى يعود لعام ١٦٨٠ وعام ١٧٣٢.لذا فقد وجد اووين تجربته سيكون لها اساس ومريدين ممن يحلمون بواقع انساني تسود فيه العدالة والسعادة،بالرغم من اختلاف الاهداف بين التجارب السابقة وتجربة اووين نفسه اذ كان اغلب التعاونيات السابقة تضم مجموعة من الناس قرورا أنقاذ انفسهم من شرور العالم اللاخلاقي الجديد واخرين كانوا ينتظرون عودة المسيح، اما تعاونية اوون فانها كانت بعيدة جدا عن الدين وانما

اساسها اقتصادي اجتماعي تقوم على قاعدة تربوية للتعليم واسلوب جديد للحياة بعيدا عن الخبث والاستغلال البشري.

ضمت تعاونية اووين مجموعة غير مختارة من الافراد الذين لم يكونوا ذا خبرة او كفاءة معينة ولم يربطهم أي رابط محدد(كما كان الحال في التعاونيات الدينية) الامر الذي ادى الى نشوء ازمات عدة ناتجة عن الاختلاف حول ادارة التعاونية هل تكون جماعية ام يديرها اووين نفسه باعتباره المالك لها وصاحب الفكرة التي حاول اختبارها في هذه التعاونية.

لم يستمر اووين على اندفاعه في ادارة هذه التعاونية(نيو هارموني) اذ حل الياس في قلبه من هذه التجربة لما شهده من نزاع وعدم توافق بين افراد التعاونية، ونرى هذه الامر طبيعي كونه يتوافق مع الطبيعية البشرية التي لم يلتفت لها اووين، ومن ابرز سماتها التنافس وغريزة السلطة وغيرها، وركز على العقل فقط والجوانب الايجابية المفترضة في الانسان. لذا ترك هذه التعاونية ليديرها الساكنين فيها، وقد استمرت بعده كتجربة تربوية يديرها بعض الاشخاص الذين استغلوا ابنيتها وخدماتها.الا انها فقدت اهميتها كتجربة اوويونية ،وقفل راجعا الى بريطانيا ليفكر بانشاء تعاونية جديدة دون كلل او ملل بالرغم مما شهده من فشل تجربته الاولى في الولايات المتحدة.

عند عودته عام ١٨٢٩ لم تبقى الامور السياسية والاقتصادية في بريطانيا كما تركها اذ تزايد نشاط حزب الاحرار والذي سيتصل الى الى السلطة بعد عام من عودته لينتهي فترة طويلة من حكم المحافظين.

كما ان افكاره الاشتراكية بدات تاخذ مدا اوسع في الوسط العمالي البريطاني اذ أنشىء عدد من المؤمنين بمبادئه التعاونية مشاريع تعاونية تقوم على شراء البضائع بالجملة وتوزيعها باسلوب تعاوني بالتجزئة على

العمـال دون تحميلـها أي اربـاح. كمـا نشـأت جمعيـات اخـرى ممـن وصـفوا(المـؤمنين بالانجيـل الاجتمـاعي الجديـد) اذ انشـاوا(الجمعيـة البريطانيـة لنشـر المعرفـة التعاونيـة) في لنـدن عـام ١٨٢٩ وصـدرت(المجلـة التعاونية) والتي استخدمت كلمة(اشتراكي) لوصف مبدأ التعاون،كما صدرت صحيفه بنفس النهج اطلق عليها(التعاوني).

عنـد عـودة اويـن كانـت النقابـات العماليـة اكثـر نشـاطا ،اذ كانـت قـد حظر عملها حتى عام ١٨٢٤ ،الى ان اعيدت للعمل بعد صدور قانون(حرية تشـكيل النقابـات) والـذي صـدر عـام ١٨٢٥ نتيجـة الحركـات العماليـة المتكـررة للمطالبـة بـالحقوق .الا ان ذلـك لم يمنـع مـن قيـام النقابـات الـتي كـان مـن ابـرز اسسـها الفكـرية منهج اويـن التعـاوني.فكانـت تـرد علـى اجـراءات اربـاب العمـل بتغلـق المصـانع او تخفـيض الاجـور مـن خـلال الاضطرابات او التظاهرات او اجراءات اخرى للحد مـن التـاثيرات السـلبية لتصرفات اصحاب المصانع.

- اراد تاسيس مصارف تتداول فيها(بطاقـات العمـل) بـدلا مـن العملـة ومنها (مصرف التبادل العادل) عام ١٨٣٢الذي الغي عام ١٨٣٤.
- في عام ١٨٣٣ تاسس(اتحاد العمال العام) في مؤتمر اشـتركت فيـه مختلـف النقابـات ودعـي اليـه اويـن كـابرز داعمـي مبـدأ التعـاون ونصرة العمال وقدم اوين خلال المؤتمر خطته لايجاد اتحـاد(قـومي أخلاقي) للطبقات العمالية المنتجة والذي اطلق عليه(اتحـاد العمـال العام).

في تقيمنـا لافكـار اويـن نـرى انـه كـان صـاحب فكـر مثـالي،فبقـدر مـا كـان فكـراً اخلاقيـا أنسـانيا الا انـه أعتـبر خياليا ،وذلـك كونـه أعتقـد بامكانيـة أقنـاع اربـاب العمـل للتخلـي عـن جـزء مـن أربـاحهم لاقامـة نظـام

أجتماعي عادل من خلال انهاء النظام التنافسي والاعتراف(بحق العمل) للعمال الذين لهم حقوق في الادارة والارباح. وقد اعتقد اووين بشكل مثير انه المخلص لهذا العالم ،وان فجر العالم الاخلاقي الجديد قد اقترب انبثاقة ويقوم على اساس الرضا والاتفاق بين الصالحين. الا انه بطروحاته تلك دعا الى نسف اساس النظام الراسمالي الذي يقوم اساسا على التنافس وامكانية الفرد بالتطور اقتصاديا وفق قاعدة(دعة يعمل دعة يمر) على اعتبار ان التنافس هو الدافع للتطور والابداع .لذلك عدت افكاره غير صالحة للاجواء السياسية والاقتصادية البريطانية الامر الذي ادى الى اضمحلالها واختفاءوها وراء افكار ومعتقدات جديدة ظهرت في المرحلة اللاحقة.

الا ان الذي يحسب لاووين انه كان يرفض اسلوب العنف او من اطلق عليه حرب الطبقات وركز على الاقناع والتربية او الارادة الطيبة والحسنة لدى ارباب العمل.وشجب اية دعوة للعنف او اثارة البغضاء بين الطبقات او الى شن حرب بين طبقة ضد اخرى.فهو يرفض مبدا الثورة كاساس للتغير الاجتماعي لان اووين اعتقد ان الاصلاح الاجتماعي لايحتاج للعمل السياسي او الى الاستيلاء على السلطة لذا فانه يقلل من أهمية العمل السياسي في تطبيقه.

نظر اووين لنفسه على ان نبيا ومخلْصا اجتماعيا اذا اعلن في اكثر من مناسبة مجيء عصر الفضيلة والسعادة ويكرر عبارة ان(الازمنة اقتربت) اذا كانت دعوة اووين تكافلية تعاونية رافضة للعنف وكانت علمانية أي انها تقوم على القيم المدنية بعيدا عن الاديان.

الماركسية تولد في بريطانيا:

بالرغم من ان الماركسية تنسب الى الفيلسوف الالماني الاصل كارل ماركس[1] الا ان مفهومها وتفاصيلها تتعدى ماركس نفسه، اذ هي مجموعة من الاراء والافكار والنظريات التي حاولت معالجة(الاقتصاد السياسي) ،والتي وضعت في مراحل مختلفة من التاريخ الحديث قبل وخلال القرن التاسع عشر والعشرين، وفي مناطق مختلفة كالمانيا وفرنسا وبريطانيا. ساهمت فيها اكثر من شخصية ومفكر من حيث المنطلقات او من حيث التكوين والتطوير والنشر والتطبيق.فقد جاءت النظرية الماركسية بافكار نقدية وتحليلية للافكار السابقة لها كطروحات هيجل و فيورباخ وبرودون واووين وغيرهم، وتم تطويرها على يد ماركس وانجلز واضاف اليها مفكرون اخرون في مراحل مختلفة.

السؤال الذي سنجيب عنه هنا عن اهمية الفكر الاشتراكي البريطاني و الحياة الاقتصادية والاجتماعية في بريطانيا في تكوين الفكر الماركسي؟؟واثر هذا الفكر على الواقع البريطاني وذلك انطلاقا مع حقائق عدة:

---

[1] كارل ماركس:ولد في تيير في المانيا عام ١٨١٨ من عائلة يهودية.عاش طفولته في اجواء عائلية حميمة ومستقرة كان ابوه محاميا،تخرج ماركس من كلية في مسقط راسه عام ١٨٣٥ ثم درس الحقوق في جامعة بون الا انه تركها والتحق بجامعة برلين عام ١٨٣٦،يحصل على دكتوراه في الفلسفة عام ١٨٤١ ومارس الصحافة،اطلع على آراء عدد من الفلاسفة ثم بدا بوضع منهجة الخاص من خلال النقد والتحليل.عام ١٨٤٣ تزوج من(جيني) وانتقل معها الى باريس للعمل في مجلة تسمى(دوينشر فرانزو بارشر) اصدر مع صديقة الحميم(انجليز) البيان الشيوعي عام ١٨٤٧.عاش بعد ذلك حياة التشرد والعوز وسحبت منه الجنسية الالمانية ليصبح(مواطنا عالميا). في عام ١٨٤٩ وصل الى لندن وبقي فيها حتى وفاته عام ١٨٨٣م.

أ- ان كارل ماركس قد قضى معظم حياته وأهمها فكريا في بريطانيا من عام ١٨٤٩ حتى وفاته عام ١٨٨٣م.

ب- ان ماركس درس افكار الفلاسفة والمفكرين البريطانيين امثال ادم سميث وريكاردو واووين وغيرهم اذ مزج بين أفكار هؤلاء مع اراء افكار مفكرين آخرين المان وفرنسيين ليخرج بطروحات جديدة.

ج- كانت الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في بريطانيا لاسيما تطورات الحركة الجارتية(الميثاقية) من اهم الاسس العملية التي مثلت حقلا للتجارب والطروحات النظرية التي وضعها ماركس واستند عليها في بناء فرضياته وحلوله الاشتراكية.

د- كان لوجود صديقة المخلص(انجليز)[1]، وهو الماني الاصل عاش في بريطانيا كرجل اعمال، اثرا مهما في دعم ماركس فكريا وماديا خلال وجوده في بريطانيا وكان له الاثر الكبير ايضا في نشر الفكر الماركسي بعد وفاة ماركس.

---

[1] فردريك انجلز:ولد في بارمن في المانيا في ٢٨ تشرين ثاني عام ١٨٢٠ من اسرة ارثدوكسية لم يكمل تعليمه الجامعي وانخرط في الحياة العملية مبكرا بعد ان انهى خدمته العسسكرية في المانيا عام ١٨٤٢،اذ سافر الى بريطانيا وعمل في شركة للغزل كان لوالدة اسهما فيها تاثير بالواقع الاجتماعي والاقتصادي البريطاني واطلع على الواقع العمالي لاسيما تلك الاحياء القذرة التي يعيشونها،اصدر عدد من المقالات التي انتقد فيها بؤس العمال ومنها كتاب(حالة الطبقة العاملة في انكلترا) عام ١٨٤٥ كما قام بنشر المجلد الثاني والثالث من كتاب ماركس(راس المال).عاش اعزبا وكانت حياته عكس طروحاته الاشتراكية اذ كان يحيى حياة برجوازية من خلال الاختلاط بالطبقات العليا وهواية الصيد وحضور الحفلات،توفي في لندن في اب ١٨٩٥.

وعلى الرغم م حالة العوز والفقر التي عاشها ماركس في لندن الا ان وجوده فيها كان عصرا ذهبيا للفكر الماركسي لاسيما انجازه لكتاب(راس المال) بثلاث مجلدات، وهو يمثل جوهر النظرية الماركسية، فضلا عن مساهمته في انشاء النقابات او العمل من خلالها. لم تكن حياة ماركس هادئة او مريحة في لندن اذ عانى من الفقر والفاقة والظروف الصعبة.على سبيل المثال كتب ماركس الى صديقه انجلز يصف حالته في ايلول ١٨٥٢(زوجتي مريضة.وابنتي الصغيرة مريضة.لقد عشنا ثمانية او عشرة ايام على الخبز والبطاطا وحدهما اما الان فقد لانستطيع ان نحصل على ذلك.اننا مدينون للخباز وبائع الحليب والبقال وبائع الخضار فكيف بحق الارض أستطع ان أسوي هذا المأزق الشيطاني).

استمر متواصلا في نشاطه الفكري في لندن الى ان اشتدت به وطاة الظروف القاسية اذ عانى المرضى في العقد الاخير من عمره الامر الذي انعكس على اندفاعة في البحث والكتابه، وزاد معاناته وفاة زوجته في ٢ كانون الاول ١٨٨١ ووفاة ابنته في ١١كانون ثاني ١٨٨٣، واشتد به الحزن و توفي بعد شهرين على وفاة ابنته وهو جالس على كرسية في ١٤ اذار ١٨٨٣ ودفن في لندن.

انجز خلال وجودة في لندن كما اشرنا كتاب(راس المال) والذي استغرق العمل به(١٥) سنة تقريبا وكان بثلاث اجزاء كل جزء يتكون من(٧٠٠) صفحة وكان هدف الكتاب تحليل المجتمع الرأسمالي وابراز تناقضاته طبقا للنظريات السابقة ومقارنتها مع ما اطلع عليه في الواقع الصناعي البريطاني، حاول من خلال هذا الكتاب اكتشاف القوانين التي تتحكم

بالتـاريخ الإنسـاني وتطـوره ووضـع الأسـس اللازمـة وفـق تلـك القـوانين لاصلاحه وتحقيق العدالة المنشودة.

لايمكن بالتاكيد ان نلم بكل الفكر الماركسي في وريقات قليلة الا انه يمكـن وضـع الخطـوط العامـة لـذلك الفكـر لان الهـدف هنـا لـيس شـرح الماركسـية وانمـا الهـدف النهـائي هـو توضـيح أثرهـا في الاشـتراكية البريطانيـة وبالامكـان العـودة الى مصـادر الماركسـية الكـثيرة وابرزهـا كتاب الياس فرح(تطور الفكر الماركسي) للالمام بذلك الفكر.

تقسم النظرية الماركسية الى ثلاثة محاور رئيسية وهي:

المفهوم المادي للتاريخ- الحرب الطبقية- تطور الرأسمالية

حاول خلال هذه المحاور تتبع التحولات في المجتمع الانساني خلال مراحل التـاريخ المختلفـة ووجـد، على عكـس النظريـة الهيكيلـة، ان المحـرك الاساسـي للمجتمعـات الانسـانية لايوجـد في عقـل الانسـان ولا في الاطـر السـماوية(الدينيـة) اذ ان الصـراعات والحـروب والهجـرات بسـبب الـدين او الفلسـفة او السـلطة او التجـارة انهـا هـي نتـائج ولـيس العلـة الاساسـية في التاريخ، بـل ان العلـة تكمـن في الاحـوال الماديـة للعـيش وتحديـدا في انتـاج وسـائل العـيش وبالتـالي فـان الاقتصـاد هـو العامـل الاساسـي والحقيقـي في تحريـك الاحـداث التاريخيـة.وعـبر عـن وسـائل العـيش بانهـا(قـوى الانتـاج) وقسـمها الى قـوى جامـدة كـالتربـة والمـاء والخامـات، وقوى متحركـة كـالعمـال والخـبراء والمهندسـين وغيرهـم وقـوى الانتـاج هـذه تعمـل في ضل(ظروف الانتاج) ويقصد بها التنظيمات السياسية والطبقية والعادات والمفاهيم.

لـذا فـان التحـولات الاجتماعيـة والسياسـية انمـا هـي اسـاس تحـولات اقتصـادية، اذ يلخـص التـاريخ البشـري حسـب(الماديـة التاريخيـة) في التحـول

من المشاعية البدائية الى مجتمع العبودية فالاقطاع ثم المجتمع الرأسمالي الذي يتحول بفعل الطبقة العاملة الى الاشتراكية والتي تهيأ الظروف للتحول الى المجتمع الشيوعي(أي مجتمع اللادولة).

ان الانتقال من مرحلة الى مرحلة أخرى يكون تبعا لتطور وسائل الانتاج ومن يملكها ،فبعد اكتشاف الادوات الزراعية(كالمحراث مثلا) تبدأ حالة الاستغلال والاضطهاد والتي تميز مرحلة العبودية المطلقة. المرحلة الاقطاعية فيكون فيها الاجير جزءا من حياة الاقطاعي الذي يوفر له الامن والغذاء في ظل الظروف السياسية والأجتماعية المضطربة ليصبح الفلاح مرتبطا بشكل كامل بسيرة الأقطاعي المالك للأرض ووسائل الانتاج الاخرى.

اما المجتمع الرأسمالي فهو التحول الذي طرأ على اساليب الانتاج وحجمه لاسيما بعد اكتشاف الالة وظهور المصنع الذي انتج طبقة جديد لم تكن معروفة في السابق الاوهي الطبقة العمالية.وقد تاثر كارل ماركس كثيرا في افكاره تلك بالواقع الصناعي البريطاني والفكر الاشتراكي فيها والذي حاول ايجاد المعالجات اللازمة لحالة البؤس والحرمان والاستغلال التي كان يعيشها العمال.الى هنا كان وصف كارل ماركس تاريخيا وتحليليا ونقديا للواقع الذي عاشته المجتمعات الانسانية عبر التاريخ،لينتقل بعد ذلك لايجاد القوانين الحتمية التي وجد انها ستؤدي الى المجتمع الاشتراكي ثم المجتمع الشيوعي.اذ اشار الى ان التطور الطبيعي للمجتمع الرأسمالي سيؤدي الى مجموعة من الازمات الحادة نتيجة تركيز رأس المال لدى طبقة معينة تتمادى في أستغلال وأضطهاد الطبقة العاملة ومن يتحالف معها.وقد ميز ماركس هنا الطبقة العاملة التي يقع على عاتقها عبئ الازمات في المجتمع الراسمالي وكذلك مهمة

التغير المنشودة وقد اطلق عليهم طبقة(البروليتاريا) وهم عمال المصانع تحديدا.ووجد انهم اكثر ثورية وقدرة على الفعل من غيرهم وان هدفهم سيكون (القضاء على الأغتراب والأنحراف في الحياة الأنسانية).

تتحالف مع البروليتارية الفلاحين والعاطلون عن العمل والمثقفون وصغار البرجوازيين الذين فقدوا مصالحهم في ضل حياة التنافس الرأسمالي الذي لم يتمكنوا من مسايرته. لقد وجد ماركس ان الطبقة العاملة(البرولتيارية) العنصر الاساسي للقضاء على المجتمع الرأسمالي وانشاء ما اطلق عليه(ديكتاتورية البرولتيارية) أي ان العمال الذين سيتولون السلطة والسيطرة على وسائل الانتاج سيعملون على محاولة بناء مجتمع اشتراكي تسود فيه العدالة ويكون شعاره(كل حسب حاجته وكل حسب طاقته). واشار في خطاب له في لندن عام ١٨٥٦(ان التاريخ هو الذي سيحكم على النظام الرأسمالي بالموت وان الكادحون هم الذين يتولون تطبيق حكم التاريخ) ان ما يميز هذه المرحلة التاريخية في فكر ماركس هو القضاء على الملكية الخاصة وتحويلها الى ملكية المجتمع لوسائل الانتاج.وفي هذه المرحلة تعمل السلطة البروليتانية وفق الاساليب التي تراها مناسبة(حتى لو بالعنف) لبناء مجتمع جديد يكون مستعدا لفكرة(المشاعية) او المرحلة الشيوعية وفيها تنتفي الحاجة الى السلطة اذ يدير المجتمع نفسه بعد ان امتلك الوعي وقضى على اسباب الصراع الطبقي.

وهنا يشير ماركس الى هذه المرحلة بقولة(فيها تزول التنافرات بين الطبقات،والانتاج يتركز كله بايدي الافراد المتشاركين ،عند اذ تفقد السلطة العامة واجباتها،لان السلطة السياسية هي اداة لطبقة محدودة في

استغلال الطبقات الاخرى وبما ان هذا الاستغلال قد زال فلا حاجة لسلطة الدولة او السلطة السياسية).

يقوم الفكر الماركسي على مجموعة من الاسس التي اصبحت مجالاً واسعا لنقده بل ورفضه او تعديل افكاره لاسيما في بريطانيا بشكل خاص وأوربا بشكل عام.

ان نظريته قامت على اساس ان مصدر الرأسمال ونموه انما يعود الى فائض القيمة وهي مصدر الربح والفائدة للرأسمالي، وان هذا الفائض يمثل جهد العامل اليدوي والذهني وان رب العمل يستثمره في زيادة ثروته من خلال زيادة ساعات العمل او الاستغناء المفاجئ للعمال نتيجة اما للتطورات العلمية او للواقع التنافسي(العرض والطلب).

وقد وجد العديد من دعاة الاشتراكية في بريطانيا تحديدا ان النظام الرأسمالي قد وجد الحلول اللازمة لضمان حقوق العمال وأمتصاص الأزمات الاقتصادية وبالتالي فان عملية استغلال العمال او الازمات التي تنبأ بها ماركس لم تحدث في بريطانيا ،الامر الذي لم تجد فيما بعد الاذان الصاغية لها بل بنيت عليها افكار أخرى اكثر عقلانية من اراء ماركس والذي غفل فيها عن قدرة المجتمع الراسمالي من معالجة ازماتة.فضلا عن الطبيعة الخيالية لفكرة مجتمع اللادولة ،لان عدم وجود التنظيم السياسي معناه الفوضى،كون ان الانسان دائما يسعى لمصالحة الشخصية مهما امتلك من الوعي كونها غريزة انسانية ،لذا فان وجود القوانين والسلطة السياسية لتنظيم المجتمع ومصالحه وحركته امر في غاية الاهمية لتحقيق العدالة والاستقرار.

مما طرحة ماركس واخذ بعدا كبيرا في النقد هو موقفة من الدين اذ تناغم كثيرا مع الاراء الالمانية التي عالجت موضوع الدين لاسيما اراء

فيورباخ الذي كتب عدة كتب عن الدين ووجد ان الدين يعني(فقدان الانسان لجوهرة، فهو يسقط هذا الجوهر في كائن الاهي خارج ذاته.ويُلبس هذا الكائن الالاهي فضائل وامكانات تمثل جوهر الانسانية ذاتها) ودعى الى تحرير البشر من(الوهم الديني) .ردد ماركس هذه الافكار عندما وجد ان ماهية الدين هي علامة ضياع الانسان وانه قيد يجب ان يتحرر منه. ان موقف ماركس من الدين جعله يفتقد عنصرا مهما في تحريك الانسان باتجاه الخير والعدالة التي دعا لها، اذ ان الشعور الديني السليم وغير المتعصب والمتضمن مجموعة من القيم السماوية الفاضلة كانت ستكون وسيلة مهمة من وسائل توجه المجتمع نحو الفكر العادل الاشتراكي، كون ان تلك القيم السماوية تمنع الاسان من ان يكون ظالما او مستغلا كما كان يطالب ماركس نفسه. لذا فقد خسرت الماركسية محركا مهما او اساسيا اذ جعلت الانسان مجرد جسد مادي خالي من الروح التي تحركها المشاعر النبيلة ، وبالتالي جعل القوانين المادية وحدها التي تتحكم في الانسان وتجاوز الضمير الانساني الحي وهو من اقوى القوانين وأكثرها قدرة على التطبيق الارادي وليس القسري كما هو الحال في القوانين الاخرى.

وهذا الامر يتطبق على تجاوز ماركس للشعور القومي الأنساني، اذ ان هذا الشعور مترسخ في الانسان مهما حاولت النظريات ان تلغية او تلغي تاثيره. لقد تاثر ماركس هنا بتشرده وفقدانه للجنسية الالمانية، وحتى وجوده في لندن كان كمواطن أجنبي وقد استغرق وقتاً حتى تعلم الانكليزية وفي هذا المجال اشار ماركس(ان العمال ليس لهم وطن) واضاف الى ان الشعور القومي يؤدي الى النزاعات القومية والتي قد تصب في خدمة اضعاف الرأسمالية الا انها(أي المشاعر القومية) نتاج للفكر

البرجوازي ودعا الى وحدة الطبقة العاملة في العالم(ايها الكادحون في جميع البلدان اتحدوا).

كما ان النقد الذي واجهه ماركس بشدة هو دعوته للعنف والثورة في الوصول الى السلطة وتحطيم الاطر الاجتماعية البرجوازية السائدة، وهنا يتعارض بشكل كبير جدا مع ما ذهبت اليه الاشتراكية البريطانية بالدعوة الى تطبيق العدالة(الاشتراكية) من خلال الوعي والتربية ومن خلال انشاء القرى التعاونية.كما اشارت الاوونية الى مبدأ الابتعاد عن السلطة في دعوته للاشتراكية وركز كما ذكرنا على الاخلاق والضمير والوعي الانساني برفض الاستغلال وأقامة المجتمع العادل. لقد كانت احد اهم عوامل افول الماركسية في أوربا هي دعوتها للقوة والعنف كاسلوب وحيد تقوم به لطبقة العاملة لتطبيق الاشتراكية وتحطيم اسس الدولة الراسمالية وانشاء مجتمع غير متصارع . طبقا لذلك نجد بروز منظمات وجمعيات حاولت ان تصحح هذا الامر(كالجمعية الفابية) التي سنشرحها لاحقا.

وبغض النظر ن تاييد او نقد الفكر الماركسي فان لهذا الفكر تاثير على الواقع الفكري والسياسي في بريطانيا:

أ- في ٢٨ تشرين اول عام ١٨٦٤ عقد أجتماع لنقابات العمال في قاعة سانت مارتن في لندن سادت فيه الافكار الاشتراكية الا ان اراء ماركس وطروحاته كانت لها مكانتها في هذا الاجتماع، اذ تمت الموافقة على خطابه بأجماع الحاضرين، الامر الذي فسر تاثير ماركس على الفكر الاشتراكي البريطاني. وخلال هذا الاجتماع انتقد ماركس الحكومة البريطانية وتصريحات وزير المالية التي أعتبر فيها ان زيادة التجارة الخارجية سيؤدي الى القضاء على

الفقـر والبطالـة، واشـار مـاركس الى انـه بـالرغم مـن ان زيـادة التجارة الخارجية (٣) اضعاف بين عام ١٨٤٣- ١٨٦٤ الا ان ازدياد الثروة اقتصر على الطبقات المالكة والغنية ،ولم تؤدي الى القضاء علـى الفقـر.وخـرج بنتيجـة وهـي الأغنيـاء يـزدادون غنـا والفقـراء يزدادون فقـرا، ووجـد ان التطـور العلمـي والصنـاعي وتطـور وسـائل النقل في ظل النظام الرأسمالي لاتؤدي الى زوال البؤس الـذي تعـاني منـه الطبقـة العاملـة المنتجـة الحقيقـة لـرؤوس الامـوال.واكـد في خطابه على ان الرأسماالية لاتعيش الا على أمتصاص دماء الاخرين لانـه لايقـوم علـى أسـاس العدالـة وانمـا علـى اسـاس قـوانين العـرض والطلـب.وخلـص مـاركس الى ان واجـب الطبقـة العاملـة السـيطرة علـى الحكـم والسـلطة والاسـتفادة مـن جهـاز الدولـة لتـدعيم مصالحها.

ب- لقـد وجـدت دعوتـه في انشـاء اتحـاد دولـي للعمـال لتنسـيق المواقـف وتوحيد الجهود قبولا في بريطانيا ،وعقد أول مؤتمرات هذا الاتحاد في لنـدن عـام ١٨٦٥ وأنظـم لـه عـدد كـبير مـن زعمـاء النقابـات العماليـة البريطانيـة الـذين شـكلوا أغلبيـة المجلـس العـام للاتحـاد الدولي للعمال. الا ان هذا الاتحـاد لم تكـن لـه شعبية في الاوسـاط العمالية البريطانية لما انطوت عليـه دعـوة مـاركس مـن الابتعـاد مـن الاعتزاز القومي الذي يقدسه البريطانيون فضلا عن رفضهم لدعوة العنف والثورة للحصول على الحقوق وهـو الامـر الـذي لاينسـجم مـع الواقـع الاجتمـاعي والفكـري للبريطـانيين الـذين نمـت في تـاريخهم الروح الديمقراطية والوعي السياسـي الرافض للعنف الذي دعا اليـه المـؤتمر الثـاني الـذي عقـد في صيف عـام ١٨٦٦. لهذا فقـد اصـبح

الفـرع البريطـاني للاتحـاد غـير فعـال وأبتعـد بشـكل كـبير عـن الـدعوة للحـرب الطبقيـة ، بـل واصبـح هنـاك ردود أفعـال معاكسـة للافكار الثورية ، اذ وجد عدد من دعاة الاشتراكية الى ان العمال صاروا في بريطانيا في ظروف مادية افضل مما كانوا عليه خلال الاعوام السابقة لاسيما ١٨٤٥م. الامر الذي جعل ماركس نفسه ينتقد هذا التراجع البريطاني عن معتقداته واتهم الزعماء النقابيين بانهم صنائع للحكومة البريطانية التي تدفع لهم الاموال لتغيير مواقفهم، الا ان الواقع يشير الى ان الفهم البريطاني للاشتراكية يختلف في اساسه وجذوره عن التفكير الماركسي.

ج- الا ان ذلك لم يثني النقابات العمالية من التماشي مع الفكرة الماركسية بوجوب الوصول الى السلطة لتحقيق أهدافها الا انها اتجهت الى المطالبة السلمية عن طريق التمثيل البرلماني لها. وبالفعل وصلت عدد من النقابات الى البرلمان كنقابة عمال لندن وجماعة التمثيل البرلماني للعمال، الا ان هذا التمثيل لم يكن بالقوة التي تجعله مؤثرا في الواقع السياسي البريطاني.

د- واخيرا يمكن ان نشير الى ان البريطانيين لم يكونوا متقبلين اصلا لماركس نفسه كونه أجنبيا ولم يكن يتقن اللغة الانكليزية في بداية وجودة في لندن، فقد كان صديقة انجلز يقوم بترجمة مقالاته وكتبه.وحتى اكثر المتاثرين بالماركسية مثل نيرمان عندما كتب كتابة(انكلترا للجميع) عام ١٨٨١ اشار الى اراء ومعتقدات ماركس الا انه لم يذكره بالاسم اذ قال(انني مدين بالكثير من الاراء لكاتب عظيم ومفكر مبتكر عظيم) دون ذكر اسمه.

الحركة الميثاقية الشعبية ١٨٣٦-١٨٤٨

كان من ابرز نتائج الثورة الصناعية ،كما اسلفنا المظاهر الاجتماعية والتي من ملامحها حالة البؤس والفقر والاستغلال التي تعرضت لها الطبقة العاملة من قبل ارباب العمل.ونتيجة لهذه الحالة حاول عدد من المفكرين ايجاد حلول نظرية لمعالجة هذا الواقع كما ما تناوله اووين وغيره من المفكرين. الا ان هذه المحالات الجادة لايجاد حالة من العدالة الاجتماعية بما اطلق عليه(الفكر الاشتراكي) لم تأخذ طابعاً عنيفا او أجباريا لتطبيقها ، بل ان المنظرين الذين تطرقوا للواقع العمالي لم يطلبوا من العمال الصول الى السلطة باي اسلوب كان لتحقيق مطالباتهم وأنما راهنوا على الجانب الاخلاقي والديمقراطي الطوعي لتحقيق مبدا العدالة.

ان الفكر الاشتراكي البريطاني برز بشكل واضح ومؤثر مع ما اطلق عليها بالحركة الجارتية او الميثاقية ،اذا اصبحت الافكار الاشتراكية خارج نطاق الطروحات النظرية او الخطابات او النشرات او المحاولات الطوعية الخجولة لانشاء تعاونيات. فقد ظهرت مجموعة من الزعماء الاشتراكيين من بين العمال قادوا بشكل عملي نقابات العمال للضغط على ارباب العمل والحكومة البريطانية لتحقيق مجموعة من المطالب النقابية او السياسية وفق سلسلة من الاجتماعات والمؤتمرات والتظاهرات والاضرابات التي هدفت الى بيان مدى قوة العمال وقدرتهم على التاثير على الواقع الصناعي والاقتصادي بشكل عام.

من ابرز هؤلاء الزعماء الذي سيرد ذكرهم كثيرا خلال مراحل الحركة وليم لوفيت(١٨٠٠- ١٨٧٧) ويعتبر من أبرز زعماء الحركة الذين وضعوا بنود الميثاق الذي اصبح اساسا لمطالب الحركة ،وكان توفيت عاملا يصنع الحبال في مقاطعة كورنوول،قدم الى لندن عام ١٨٢١

وعمل في صناعة الخزائن وكان ذا كفاءه متميزة في عمله، عزز قدراته الثقافية من خلال انضمامه الى عدد من الجمعيات الفكرية مثل(اتحاد العاصمة السياسي)، وقد تاثر بشكل كبير بافكار اووين الاشتراكية.

تعرض لتوفيت الى السجن في تموز عام ١٨٣٩ لمدة عام لاشتراكه في اضرابات العمال ،وبالرغم من انه كان متاثرا بافكار اووين السلمية الا انه وصف بالراديكالي الذي يسعى بالطرق القانونية والديمقراطية الوصول الى السلطة أي انه بالرغم من دعوته للتظاهر والاضراب فانه كان لايؤمن بالعنف الامر الذي سيجعله يتقاطع مع زعماء الحركة الميثاقية الاخرين.

ومن الزعماء المؤثرين في الحركة بشكل كبير فيرجوس اوكونور وهو ايرلندي من عائلة ثورية اذ حُكم على عمه ارثر اوكونور بالاعدام نتيجة اشتراكه في الثورة الايرلندية ضد الحكومة البريطانية بمساعدة نابليون بونبرات ،الا انه هرب الى فرنسا واصبح جنرالا في الجيش الفرنسي. وقد كان عمه هذا مثله الأعلى في نشاطه في الحركة العمالية اذ ارتبط ارتباطا كبيرا بالحركة الثورية الاشتراكية للعمال البريطانيين كما تميز اوكونور بقوة خطابية كبيرة ذات تاثير كبير على جماهير العمال وحشدهم وتعبئتهم، وعلى عكس لوفيت فان ثقافته الاشتراكية قليلة فهو من اوساط العمال وثقافته تنطلق من معاناتهم ومطالبه تنطلق من هذه المعاناة، لذا فقد كانت كلماته مؤثرة في تحشيد العمال للتظاهر او الاضراب.

لذا مثل دور اوكونور في الحركة دورا محوريا ومستمرا من بدايتها حتى نهايتها التي جاءت بعد أنسحابه من الحركة، وكأن الحركة كانت تسير بوجوده. لقد جاءت الحركة الجارتية نتيجة ليأس العمال من

قيام أي من حزب الاحرار او المحافظين في الدفاع عن مصالحهم وأشارت بيانات النقابات العمالية الى ان(الصراع يدور في داخل البرلمان وخارجه بين الحزبين الكبيرين فقط.اي ان الصراع يدور فقط بين مصالح اصحاب الاراضي الزراعية والحقوق المتوارثة من ناحية وبين رجال المال والتجارة من ناحية اخرى لذا فلا ينتظر العمال من أي الفريقين ان ينتبه الى مصالحهم).لذا ظهرت خطابات ودعوات تطالب بايجاد مكان في هذا الصراع الدائر للدفاع مصالح العمال، اذ جاءت الدعوة للعمال (في ان أرفضوا ان تكونوا اداة لاي حزب لايعطي للعمال اولا وبصفه اساسية حقوقا سياسية واجتماعية متساوية)..

من هنا جاءت فكرة ان يكون للعمال تنظيم سياسي يهدف الى تحقيق مجموعة المطالب التي تصب في أصلاح واقعهم الاجتماعي والسياسي وذلك في كانون ثاني من عام ١٨٣٦ اذ تاسس (تحاد عمال لندن) بزعامة لوفيت وأتسع هذا الاتحاد ليشمل اقاليم اخرى كان اعضاؤه من الطبقة العمالية حصراً.

- اخذت الحركة العمالية بعداً اكبر في تنسيق مواقفها وترتيب مطالبها وذلك عندما عقد في لندن في شباط من عام ١٨٣٧ اجتماعا موسعا لمختلف الاتحادات العمالية في بريطانيا حضره اكثر من ٣ الاف عامل مع عدد من دعاة الفكر الاشتراكي والذين وصفوا بالراديكاليين.

اتسم هذا الأجتماع بالدعوات للاصلاح الجذري وقد طَرح المؤتمر تساؤل دعا للاجابة عليه بالافعال وهو: كيف نحرر أنفسنا من العبودية السياسية؟ لاسيما انه لايمكن بعد الان الاعتماد على احد الحزبين الاحرار الذي وصف بانه(حزب الجبناء) والمحافظين الذي وصف(بالطغاة) وانما يجب الاعتماد على قوة العمال بشكل مباشر، هذه المفاهيم

والطروحات تضمنتها الخطب الحماسية التي القاها عدد من زعماء الطبقة العاملة.

- في هذا الاجتماع انطلقت مطالب الطبقة العاملة والتي حددت بعدد من النقاط التي ستصبح اساسا للحركة الميثاقية وستكون المحرك لكل تحركات الطبقة العالمة للسنوات اللاحقة، وهذه النقاط او(الميثاق) تقرر تقديمه كملتمس للبرلمان بهدف تبنيه وكان هذا القرار محاولة لاتباع الاساليب الديمقراطية للحصول على المطالب بالرغم من الحماس الراديكالي الذي ساد الحركة العمالية مدعومة بواقع اوربي اتسم بالمطالبات السياسية والدستورية لاسيما في فرنسا وغيرها خلال هذه المرحلة.
- هذه المطالب حددت بسته نقاط:

١. ان يكون حق التصويت لجميع الذكور البالغين.
٢. ان تحدد فترة الدورة البرلمانية بعدد محدد من السنين.
٣. ان يكون الاقتراع سرياً.
٤. ان تكون الدوائر الانتخابية متساوية.
٥. ان تستبعد شروط الملكية للمرشحين للبرلمان.
٦. ان تدفع مرتبات لاعضاء البرلمان.

- مع بداية عام ١٨٣٨ بدت الحركة العمالية تنشط في الترويج لمطالبها وتهيئة الأجواء لتقديم الملتمس للبرلمان.اذ نشر في جريدة برمنغهام صيغة الملتمس والمتضمن النقاط الست مع بيان يوضح داوعي ومبررات تقديم الملتمس. وتقرر ان تكون هذه الصيغة هي التي تقدم للبرلمان، وقد ورد في مقدمته:((مقدمي هذا الملتمس

يعيشون في بلاد اشتهرت فيها الارض الطيبة والتربة الغنية ودرجة الحرارة المناسبة وعناصر التجارة متوافرة...الا انه بالرغم من كل عناصر الرخاء الطبيعية الا اننا نجد انفسنا مثقلين بشتى انواع الشقاء..ودققنا البحث لمعرفة سبب هذا البؤس القاسي والذي طال أمده فوجدنا ان السماء ترفقت بشعبنا ولكن حماقة حكامنا افسدت علينا نعم الله)) ثم ذكرت المطالب المذكورة.

- لقد صاحب الاعلان عن الملتمس حملة اعلامية واسعة لدعم الميثاق والذي سمي(ميثاق الشعب) ، كما ان النشاط النقابي عمل على تعبئة العمال في كل بريطانيا ، الامر الذي اصبحت معه المتظاهرات العمالية منتشرة بشكل كبير ومستمر في جميع انحاء بريطانيا حتى وصفت بانها اشبة بلاستعراضات العسكرية لما تمتعت به من تنظيم لاسيما في برمنغهام واسكتلندا وغيرهما. كما ساهم عدد من اصحاب الفكر الاشتراكي من خارج الطبقة العاملة في شرح اهداف العمال وحقوقهم وقدرتهم على التغير، اذ تظمنت خطبهم عبارات مؤثرة وشعارات سبق لمفركين أمثال اووين وغيره قد رددوها الا ان في هذه المرة اخذت ابعادا اكثر حماسا واشد عمقا واكثر اتساعا في قاعدتها الشعبية، الى الحد الذي جعلت دعوات استخدام العنف او الاسلوب الثوري للحصول على الحقوق ترتفع من حين لاخر في تلك الخطب والشعارات .ونورد هنا مثالا لاحد تلك الخطب لاحد زعماء العمال اوضحت الطابع الثوري للمطالب العمالية اذ اشار(اني اقول للاغنياء ان يكتبوا وصاياهم، فالشعب معنا والجيش ليس

ضدنا..ان العامل هو مالك كل الثروات في المملكة فاذا لم يحصل عليها فان له الحق ان ينقض على الاغنياء للحصول عليها))

- وكتعبير عن أستعدادات العمال لتصعيد المواجهة مع الحكومة والبرلمان فقد ازدادت مبيعات الكتب التي توجه نحو الاضراب القومي العام وأسلوب ادارته، فضلا عن كتاب ألفة احد زعماء الحركة الميثاقية ويدعى بينو ويتحدث عن اساليب حرب الشوارع والذي انتشر بشكل واسع جدا مما اشر توجه انصار الميثاق الى الثورة والعنف.
- فضلا عن اجتماع برمنغنهام عقدت اجتماعات في نيوكاسل وشيفلد وليفربول وكلاسكو وغيرها من المدن الصناعية وتصاعدت خلال هذه الاجتماعات نبرة العنف مستغلين تراخي القوات العسكرية في قمع او منع هذه الاجتماعات بل ان عدد من الجنود تعاطف مع هذه الاجتماعات وحضرها.
- نتيجة لهذه الاجواء الملتهبة حدثت حالة تصادم بين الشرطة والعمال في احدى ساحات برمنغهام وتدعى(ساحة بول رنج) وبالرغم من اعلان الاحكام العرفية(العسكرية) في المدينة الا ان العمال قاموا باعمال عنف تمثلت بحرق عدد من المنشات والمنازل.
- الا ان فكرة تصعيد حالة العنف لم تلقى تأتيداً من قبل اغلب اعضاء المؤتمر الوطني فضلا عن أن السلطات قد عملت على التصدي لهذا التوجه، اذ أصدرت بتعليماتها الى القضاة بأن يتخذوا اقصى الاجراءات لمنع حدوث الاضرابات وأعمال العنف، وأعتقال أي شخص يدعو او يشارك في هذه الاعمال الامر الذي

ادى الى حصول حملة أعتقالات لاسيما في آب من عام ١٨٣٩ طالت معظم زعماء الحركة الميثاقية.

- في ذات الوقت كان البرلمان يناقش الملتمس الوطني، وبالرغم من تأييد عدد من النواب مطالب العمال الا ان البرلمان رفض في النهاية الملتمس باغلبية كبيرة(٢٣٥ صوت) مقابل(٤٦) صوت فقط ايد الملتمس.
- أدى رفض البرلمان للملتمس الى تصعيد العمال لاضراباتهم وتظاهراتهم التي ادت الى مقتل عدد من انصار حركة الميثاق.
- مع حلول عام ١٨٤٠م كان عدد كبير من انصار الحركة وقادتها قيد الاعتقال وحوكم عدد منهم بتهمة الخيانة العظمى كان من ابرز المتهمين اوكونور الذي حكم علية(١٨) شهرا وكذلك على بينو الذي دافع عن نفسه كثيرا وشبه نفسه بالمسيح الذي يدان من قبل حزب الاحرار الذي شبههم باليهود.
- كان تاثير هذه الاجراءات الحكومية واضحا على الحركة اذ ادت الى كبح جماح اندفاع الحركة وانصارها باتجاه الاضراب والعنف وأصبحت الجهود في توجيهها للاغراض الأنسانية لاسيما مساعدة اسر الأشخاص الذين حكم عليهم.
- في صيف عام ١٨٤١ اطلق سراح عدد من زعماء الحمكة وابرزهم لوفيت واكونور وغيرهم،وقاموا حال اطلاق سراحهم بالتجول بالمدن الصناعية البريطانية ودعوا خلال عقد الاجتماعات الى مواصلة النضال دون توقف لتحقيق مطالب العمال المحددة في

الميثاق مع التاكيد على الجانب الفكري والسلمي للحركة خشية تكرار حالات الاعتقال والقتل التي حدثت في السنوات السابقة.

- استمر العداء بين انصار الحركة وحزب الاحرار الذي وصف (بالحزب الدنيء الذي لطختة الدماء) بالرغم من محاولات الحزب لكسب تأييد انصار الحركة خلال خوضه لانتخابات عام ١٨٤١. لذا فقدأدى هذا العداء الى هزيمة الاحرار في الانتخابات البرلمانية بعد ان استمر في الحكم لاكثر من(٨) سنوات.
- صاحب احداث الحركة الميثاقية ونشاطها بداية لازمة اقتصادية كبيرة شهدها عام ١٨٤١ بسبب الركود الاقتصادي الذي ادى الى ان تعاني الطبقة العاملة والطبقة الوسطى من اثاره البالغة على واقعهم المعيشي الامر ساعد على تصاعد المطالبة بالاصلاح السياسي والاجتماعي وتحقيق العدالة.
- في نيسان من عام ١٨٤٢ عقد انصار الميثاق اجتماعا في لندن بهدف تقديم ملتمس الحقوق مرة اخرى للبرلمان وقد وقع عليه هذه المرة اكثر من ثلاثة ملايين شخص، ووصَف الملتمس حالة البؤس والفقر للعمال والتفاوت الكبير بين طبقات المجتمع مبينا أمثلة عديدة على هذا التفاوت في الدخول منها المقارنة مع دخل أحد الامراء الذي يتقاضى كل يوم(١٦٤) جنية واسقف كانتبريري الذي يتقاضى اكثر من(٥٠) جنبيها في الوقت الذي يتقاضى فيه الاف العمال ثلاث بنسات يومياً او اقل من ذلك.
- وصل الملتمس الى البرلمان في مايس من عام ١٨٤٢ الا ان الحزبين (الاحرار والمحافظين) عارضوا الملتمس اذ صوت ضده (٢٧٨) صوت مقابل(٤٩) صوت فقط مؤيد المطالب.

- ادى رفض الملتمس للمرة الثانية الى اعادة التفكير بالاضراب العام، وحصلت اجتماعات ومسيرات عدة كما اضرب عدد من العمال في مناطق مختلفة من بريطانيا مثل ويلز و عمال المناجم في اسكتلندا فيما دعم عمال لندن هذه الاضرابات

- ادى ذلك الى توقف الحياة الصناعية في المدن البريطانية بشكل كبير جدا وحصلت مواجهات بين العمال المضربين والجيش أسفرت عن مقتل عدد من العمال.

- الا أن الأنقسام الذي حدثت بين زعماء الحركة واهمها انسحاب ابرز زعمائها وهو اوكونور ادى الا ان يصبح الاضراب أكثر ضعفاً وأقل تاثيرا لاسيما بعد ان تخلى زعماء الاضراب عن مناصرة العمال المضربين الذين زاد الاضراب من معاناتهم وبؤسهم، لذا فقد أعتبر الاضراب فاشلا في تحقيق اهدافه.

- ادى فشل الاضراب الى حملة من الأعتقالات قامت بها الحكومة ضد انصار الحركة وعطلت الصحف الداعمة لها. وقدر عدد المعتقلين ما يقارب(١٥٠٠) شخص بينهم عمال وخطباء وصحفيين حكم على عدد منهم باحكام مختلفة.

- مع بداية عام ١٨٤٣ حتى عام ١٨٤٧ بدا ان حركة الميثاق قد بدات بالضعف والافوال، حتى ان زعيم الحركة اوكونور خطب في انصاره عام ١٨٤٢ قائلا (ان حركة الميثاق نائمة ولكنها لم تمت).

-مع تصاعد الاحداث في اوربا لاسيما ثورات عام ١٨٤٨ حاول انصار الميثاق استثمار هذه الاحداث في بعث الحياة في حركتهم مستغلين الانتخابات البرلمانية، كما حاول هؤلاء استثمار وجود كارل ماركس

في لندن لحضور(مؤتمر الشيوعيين) الذي وضع البيان الشيوعي المعروف. فقد طغنت موجة من الحماس بين العمال وعقدت عدد من الاجتماعات والتظاهرات وجرت اعمال عنف في مناطق عدة.

في نيسان من عام ١٨٤٨ قرر العمال تقديم ملتمس جديد للبرلمان حول حقوقهم السياسية والاجتماعية وادعى مقدمي الملتمس انه تم التوقيع عليه من قبل اكثر من(٥) ملايين شخص.

وقد قُدم المتلمس بطريقة مسرحية اذا كان الموكب المتوجة للبرلمان تتقدمه عربات تجرها الخيول وهي مزدانه بابهى الزينة ،وكان زعماء الحركة في داخل هذه العربات. وبعد التدقيق ظهر انه لم يوقع على الملتمس هذا العدد وانما ظهرت اسماء وهمية ومكررة الامر الذي جعل المتلمسموضع سخرية، انعكس هذا الواقع على معنويات انصار الميثاق الذين تمردوا على زعمائهم كما ان البرلمان لم يهتم لهذا الملتمس فقد رفُض بالاغلبية المطلقة ولم يؤيده سوى(١٧) صوت فقط.

انقسمت الحركة بعد ذلك وبدا انها قد تهاوت الى الابد وشعر انصار الحركة بانها لم تعد موجودة لاسيما بعد وفاة ابرز زعمائها اوكونور عام ١٨٥٥.

وبالرغم من فشل هذه الحركة الا انها مثلت صفحة مهمة في تاريخ الاشتراكية البريطانية التي لم تكن مجرد افكار او مقالات او كتب وانما كانت تجربة عملية حاول العمال من خلالها تطبيق كل الطروحات الاشتراكية التي قدمها مفكرون امثال اووين وغيره.

الا ان الواقع البريطاني السياسي والاجتماعي لم يتقبل المطالبة الثورية للحقوق كون ان التجربة البريطانية كانت على مر تأريخها ترفض العنف وتعتمد في مطالبها على الوسائل السلمية الديمقراطية بعد تجارب

دموية عدة شهدها التاريخ البريطاني، لذا فان الامر مختلف عن الدول الاوربية الاخرى كفرنسا مثلا التي شهدت ثورات عدة لاسيما عام ١٨٣٠- ١٨٤٨ أدت الى تغير الحكم بشكل كامل.

الا ان الذي لايمكن التغاضي عنه ان الحركة الميثاقية مهدت الطريق للمطالبات السياسية السلمية بالاصلاح من قبل احزاب وقادة سياسيين ادت الى تحقيق مكاسب مهمة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وكما سيمر بنا.

الجمعية الفابية:

بعد ظهور الماركسية التي سبق الحديث عنها تأثير المجتمع البريطاني بطروحاتها التي تدعو الى تحقيق الاشتراكية وفق آلية محددة أطلق عليها(المادية التاريخية) والتي تتبنى حركة الية وحتمية للتطور التاريخي للمجتمعات من خلال الأنتقال من مرحلة الى اخرى تنتهي باقامة الدولة الشيوعية ،والتي تتحقق بعد مرحلة انتقالية بين المرحلة الراسمالية والشيوعية اطلق عليها(ديكتاتورية البروليتاريا) وان محور واداة هذا الانتقال يكون من خلال الثورة التي يقودها العمال.

تاثرت الحركة الميثاقية بفكرة الثورة والعمل للوصول الى السلطة كونها الاسلوب الوحيد لتحقيق الاهداف الاشتراكية..ومن هنا ونتيجة لفشل الحركة الميثاقية في نشاطتها الذي اتسم بالعنف والاضطرابات ،برزت اتجاهات عدة تحاول تعديل الطروحات الماركسية بما يتناسب والواقع البريطاني الذي له سمات تميزه عن باقي المجتمعات الاوربية وابرزها تشبع الشعب البريطاني بالقيم الديمقراطية ورفضة للعنف كاسلوب للمطالبة بالحقوق ومن هذه الاتجاهات(الجمعية الفابية).

والجمعية الفابية من ابرز الحركات الاشتراكية التي تبنت مطالب العمال في تحقيق العدالة الاجتماعية والمشاركة السياسية واصبح لها نفوذ وتاييد كبير في بريطانيا لاسيما بعد فشل الحركة الميثاقية التي لم تنجح بالرغم من العنف والاضطرابات من تحقيق أي مكاسب لاصحابها او للشعب البريطاني.

وضعت الجمعية الفابية اسس جديدة للنضال من اجل تحقيق الاشتراكية من اهم ملامحها العمل السلمي الديمقراطي لتحقيق اهدافها والدعوة الى نبذ الفردية والتاكيد على العدالة الاجتماعية وتحرير الفرد

من العزلة والتلكوء .وقد دل اسمها على جوهر طروحاتها ،اذ اشتق اسمها من اسم القائد الروماني(فابيوس فونكتاتور) وهو قائد عسكري روماني عاش في عام(٢٠٠ ق.م) وعرف عنه انه كان يلجا الى الخطط العسكرية التي لاتقوم على المواجهة المباشرة وانما كان يتبع اسلوب المناورة وأستنزاف العدو ومن ثم الاطباق علية.اذ كان المعنى المقصود في تبنى اسم هذا القائد للجمعية هو الأبتعاد عن المواجهة وأتباع وسائل اخرى للضغط على السلطة والطبقات المتنفذة لتحقيق مطالب الجمعية واهدافها.

بدات فكرة تأسيس الجمعية عندما اجتمع عدد من المفكرين من انصار الفكر الاشتراكي والمشتغلين بالعلوم الاخلاقية وعددهم(١٢) لمناقشة الواقع الأجتماعي البريطاني والسلبيات التي يعاني منها لاسيما افتقاد العدالة الاجتماعية بالنسبة للطبقة العاملة ،ودعوا(الى اعادة بناء الحياة البشرية على اساس مبدأ الاخلاقيات السامية) وقد توصل المجتمعون الى ان الاصلاح الاجتماعي يكون اولا عن طريق اصلاح الذات لكل افراد المجتمع من خلال التمسك بالقيم الأخلاقية السامية ومن ثم العمل على ايجاد التشريعات اللازمة التي تضعها الدولة لتحقيق العدالة الاجتماعية باسلوب ديمقراطي.

عام ١٨٨٤ اعلن عن تأسيس الجمعية الفابية في لندن وفق المبادئ التي ناقشها المجتمعون، وخلال شعور قليلة بدات الجمعية باثبات نفسها على الساحة الفكرية والسياسية،اذ بدات تجذب الاهتمام اليها لاسيما من قبل العديد من المثقفين والمفكرين ومن ابرزهم(سدني ويب) الذي كان يعمل كاتبا في وزارة المستعمرات، ويعتبر ويب مع زوجته محورا مهما في وضع الاسس الفكرية للجمعية .كما يبرز اسم جورج برنادشو الذي كان يعمل صحفيا اذ تولى برنادشو شرح نظريات الاقتصاد الاشتراكي

الكلاسيكي، اما كلارك فقد تولى وضع نقاط النقد للاقتصاد الراسمالي وبيان تناقضاته وأزماته فيما عمل او ليفييه على التركيز على نقد القيم والمعايير الاخلاقية للنظام الراسمالي لاسيما مشاكل البطالة والنفاق والوصولية والدعارة وغيرها.

استغرق تبلور الاسس الفكرية للجمعية سنوات عدة بين عام ١٨٨٤ وعام ١٨٨٧ وعمل منظورا الجمعية على الأبحار بالاشتراكية البريطانية بعيدا عن الافكار الاشتراكية التقليدية التي طرحها اووين او ماركس او زعماء الحركة الميثاقية، اذ بداوا بصياغة طروحات جديدة وضعت في كتب عدة منها كتاب ويب(الاشتراكية الفابية) وكتاب(الاسس التاريخية للاشتراكية البريطانية) وغيرها من الكتب والمقالات.

تتضمن مبادئ واهداف الجمعية الفابية:

أ.بعد دراسة الافكار السابقة عملوا على تحليل تلك الافكار وبيان اسباب اخفاقها في الاستمرار او في التطبيق داخل بريطانيا ،ووجدوا صيغا جديدة من بين تلك الافكار تتلائم والواقع البريطاني الاجتماعي والاقتصادي والسياسي.

ب.وجدت الجمعية ضرورة استمرار عملية التطور التاريخي باتجاه تحقيق الاشتراكية ولكن عبر المؤسسات الديمقراطية القائمة على الانتخاب، كون عملية التحول الاشتراكي هي(نمط فكري وليس نتيجة صراع) وان هذا التحول باتجاه الاشتراكية لايعني الثورة والمعاناة الأجتماعية وزيادة شقاء الطبقة العمالية حتى يحصل التطور الاشتراكي(حسب ما ذهب اليه ماركس) وانما يكون بالاسلوب الديمقراطي أي ان موقف

الجمعية هو رفض لاسلوب الثورة والعنف ورفض ما اطلق عليه ماركس بالصراع الطبقي(وديكتاتورية البروليتاريا).

جـ. الاسلوب الذي يعتقده اصحاب الجمعية في السعي نحو بناء المجتمع الاشتراكي يقوم على العمل للتخلص من الاستغلال والظلم الاجتماعي ويكون ذلك من خلال المؤسسات الحكومية والتشريعية وسن القوانين والتشريعات التي تحقق المبادئ الاشتراكية اذ يقوم دعاة الفكر الاشتراكي باجراء البحوث المتخصصة لتنبيه الأجهزة الحكومية عن الخلل في الوقع الاجتماعي واقناعهم بضرورة تطبيق مبادئ العدالة الاجتماعية وذلك دون انتظار قيام ثورة عمالية كما توقعها ماركس.

لذا فانهم يعتقدون ان الاشتراكية تتحقق عندما تصبح الدولة متبنية لافكار الاصلاح الاجتماعي وعندما تقتنع الطبقة الراسمالية بالحقوق الاجتماعية للعمال ويقبلوا بتشريعات الدولة وتدخلها وبمطالب النقابات وآرائها. وهنا اعتقد الفابيون بضرورة توجية زعماء الفكر الاشتراكي للانضمام الى القوى السياسية الفاعلة في المجتمع من الاتحادات والاحزاب وممارسة العمل السياسي النشيط من اجل وضع منهاج الاصلاح موضع التطبيق.

د. اعتقد(ويب) ان مهمة الطبقة العاملة هو تكريس جهودهم لتوحيد اصواتهم الانتخابية لدفع عدد من المصلحين ودعاة الاشتراكية الى البرلمان بشكل كافي لتحقيق أغلبية قادرة على تنفيذ برامج الاصلاح الاجتماعي وترسيخ الاسس الاشتراكية في الدولة.

هـ.كما ركزت دعوات(ويب) على ان تقدم الشعب الفكري والحضاري سيقود بشكل تلقائي الى تحقيق العدالة، لذا دعا العمال الى توسيع ثقافتهم الديمقراطية وتطبيقها بشكل عملي في كل نواحي الحياة

كالمصنع والورشة والمنجم والحقل، فالاشتراكية الفابية تقوم في اهم اسسها على الوعي الاجتماعي للامة بشكل عام بدأ من مؤسسات الدولة مرورا بابناء الشعب لاسيما الطبقة العاملة كونها صاحبة المصلحة الأولى في التطبيق الاشتراكي.

و. اشارت الجمعية الفابية الى المحلية في فكرها ونظريتها الاشتراكية أي ان افكارها تتعلق تحديدا بالدولة البريطانية رافضة مبدا العالمية التي ذهبت اليها الماركسية ،وذلك انطلاقا من ان لكل شعب بناءه الفكري والتاريخي والقيمي الذي يتناسب واسلوب تطبيق الاشتراكية فيه. لقد اعتبرت الافكار الاشتراكية لاووين مثالية كونه دعا الى استبعاد الطبقية العاملة عن السلطة وركز على انشاء تعاونيات بشكل طوعي لانهاء الفوارق الطبقة في المجتمع مما اعتبر دعوات طوباوية تاملية اكثر منها واقعية اما ماركس فقد ذهب بالاتجاه المعاكس تماما اذ دعا العمال الى التصدي للعمل السياسي بقوة وحرضهم على العنف والثورة للاستيلاء على السلطة وتكوين المجتمع الاشتراكي.

اما الفابيون فقد عملوا على دراسة تلك الافكار والخروج بمنهج يتفق مع ما سبق في الجوهر لاسيما في الحاجة للعدالة الاجتماعية والمجتمع الاشتراكي ولكنهم اختلفوا في اسلوب ومراحل التطبيق، اذ عول الفابيون كثيرا على القدرة الأخلاقية والفكرية في جنوح الدولة نحو الاشتراكية ،كون أن زعماء الفابية لاسيما(ويب) كانوا مؤمنين بقوة بالقوانين الديمقراطية في بريطانيا وقدراتها على تحول المجتمع باتجاه العدالة المنشودة وهذا ما ذهب اليه التقرير الرسمي الذي قدمته الجمعية الى(المؤتمر الدولي للاشتراكيين والنقابات العمالية) الذي عقد في لندن عام ١٨٩١ اذ اشار الى ان هدف الجمعية هو حث الامة البريطانية على ان

تجعل دستورها السياسي ديمقراطيا تماما باتجاه الاشتراكية، ومن هنا فقد دعت الجمعية زعامها للعمل السياسي الديمقراطي وكان ذلك أحداهم عوامل مساهمة الجمعية في تاسيس حزب العمال البريطاني الذي تمكن من الوصول الى السلطة في مراحل لاحقه. لقد شمل نشاط الجمعية الفابية الفكري والسياسي المتميز كل بريطانيا، اذ تكونت فروع للجمعية في مختلف الجامعات البريطانية والتي كونت اتحادا فبدراليا للجمعية شمل فروع جامعات اكسفورد وكامبردج وادنبره وكلاسكو ومانجستر وبرمنغهام وليفربول وشيفلد.

كما تاسست عام ١٩٠٨(جماعة النساء) الفابيات والتي كانت تدعو الى تحرير المرأة ومشاركتها في عملية التحول الاشتراكي للمجتمع واعتبر تحرير المراة حلقة مهمة واساسية في ذلك اذ كانوا يرون ان هناك ارتباط وثيق بين تقدم المراة والنمو الاشتراكي.

وقد نشر برنادشو عام ١٨٨٩ مجموعة مقالات ومحاضرات اطلق عليها(الدراسات الفابية) ووصف الفابيون بانهم(مثقفوا الحركة العمالية) ووصف اشتراكيتهم بانها(الأشتراكية الادارية) و(الاشتراكية الدولة) والتي رفعت شعار (مساواة، تامين، ضمانة)، على الرغم من ان التقاليد البريطانية الموروثية تركز على عدم تدخل الدولة الا ان الغابيون وجدوا ان الدولة وتشريعاتها هي الأكثر قدرة على التطبيق السليم والمسالم للاشتراكية بعيد عن العنف والثورة والاضرابات التي قد يلجا اليها العمال لانتزاع العدالة الاجتماعية من الطبقات المستغلة فالدولة ومؤسساتها هي افضل قوة محايدة تعمل على تحويل المجتمع بسلام وبدون خسائر الى التطبيق الاشتراكي.

لابد لنا ان نشير هنا الى اتجاهات اشتراكية اخرى كان لها دور كبير في الحياة الاجتماعية البريطانية من ابرزها ما اطلق عليها(بالاشتراكية المسيحية) التي تبناها(شارل كنكسي- ١٨١٩- ١٨٧٥) وهو صحفي وأديب في ذات الوقت وجل دين اذ كان التنفس الخاص للملكة فكتوريا طالب هذا التيار بتحسين أحوال العمال وأصلاح اوضاعهم المعيشية لاسيما تلك المحلات والصانع غير الصحية التي يسكنها او يعمل بها العمال وبالرغم من انه كان لايدعو الى تدخل حكومي في معالجة هذه الاضاع الا انه حركته ساعدت على تعريف الراي العام البريطاني بالواقع المأساوي للعمال وكسب دعمه لعملية المطالبة السلمية للاصلاح

ساعدت هذه الاتجاهات الى اصدار مجموعة من القوانين لصالح العمال من بينها قانون العمل لعام ١٨٤٤ والذي شدد على رقابة الحكومة على تظيم العمل وحدد ساعات اشتغال النساء ب،(١٢٩) ساعة يوميا ونظم عمل واشتغال الاطفال.وقبله صدر(قانون المناجم) لعام ١٨٤٢ والذي منع استخدام النساء والاولاد دون ست العاشرة في العمل بالمناجم تحت الارض.

وفي عام ١٨٤٧ صدر قانون حدد فيه ساعات العمل في معامل النسيج بـ(١٠) ساعات بدلا من(١٢) ساعة وفي عام ١٨٥٥ الزم اصحاب المناجم باتخاذ الحاجات الضرورية التي نؤمن سلامة العمال.

كما ساعدت هذه التيارات الاشتراكية على تشجيع اقامة النقابات والاتحادات العمالية ونعلم ان العمل النقابي توقف بصيغته القديمة عام ١٨٠٠ عندما حرم على العمال الأنظمام اي نقابة او تجمع وهدد بالحبس كل من يقوم بذلك. الا ان عام ١٨٢٤ صدر قانون اتاح للعمال اقامة نقاباتهم الا انه قيد عام ١٨٢٥ اذ اعتبر ان النقابات وسيلة للمطالبات السليمة وليس التهديد او الاضراب او العنف لانها بذلك ستكون خطرا

على البلاد كما جاء في مقدمة القانون.وبعد فشل الحركة الميثاقية أنشئت النقابات الذي كان نشاطها تعاونيا وهدف الى توحيد جهود العمال ومطالبهم للضغط على اصحاب الصانع لمنح العمال حقوقهم وتعتبر جمعية(اتحاد المهندسين التي تأسست عام ١٨١٥ من النقابات الفعالة التي نشطت خلال العهد الكتوري، اذ انظم اليها اكثر من(١١٩ الف شخص كانوا يدفعون بدل اشتراك اسبوعي قدرة(شلن واحد) واصبح نشاطها وتنظيمها مثالا يجتذى به من قبل نقابات اخرى.ومن لمظاهر العملية الاشتراكية ظهور التعاونيات التي بدأها اووين واستمر نشاطها فيما بعد. في عام ١٨٤٤ تاسست جمعية تعاونية هدفها توفير المستلزمات الحياتية باسعار الجملة أي بدون ارباح وانظم لهذه الجمعية اعداد كبيرة من العمال ثم انتشر هذا النوع من التعاونيات في انكلترا او اسكتلندا وتنوع نشاطها والخدمات التي تقدمها في عام ١٨٦٩ انشا اتحاد عام مركزي يضم كل الجمعيات التعاونية في مختلف انحاء بريطانيا وكان لهذه الجمعيات الدور المهم الكبير في تحسين الواقع المعيشي للعمال واشاعة روح التعاون والاندماج في المجتمع البريطاني ليكون مجتمعا تكامليا مسالماً.

الفصل الخامس عشر

عصر الملكة فكتوريا ونضوج التجربة الديمقراطية

يعد العصر الفكتوري(كما يطلق على عهد الملكة فكتوريا ١٨٣٧- ١٩٠١) مرحلة مهمة واساسية في نضوج التجربة الديمقراطية البريطانية، فقد مضت فترة نشوء الثورة الصناعية وما رافقها من ارهاصات وتناقضات ووصلت خلال هذه المرحلة الى النضوج واتت ثمارها على مختلف الصعد لاسيما الاقتصادية منها والاجتماعية. فخلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر بدات بريطانيا بانتاج واسع لمختلف الصناعات التي كانت اسواقها تنتشر في مختلف انحاء العالم، الامر الذي ادى الى ان تتركز في بريطانيا ثروة هائلة ،اذ عدت بريطانيا اغنى دولة في العالم. وقد كانت المصانع والمناجم تزداد بشكل متصاعد ،وتطورت شبكة المواصلات بشكل بارز لاسيما سكك الحديد وخطوط التلفون فضلا عن الحركة البحرية اذ كانت الموانئ البريطانية تعج بالسفن التي تحمل البضائع البريطانية من فحم وحديد ومكائن واقمشة مختلفة الانواع ومصنوعات عديدة اخرى.وكانت السفن البريطانية اكثر عددا من أي سفن لدول اخرى تجوب بحار العالم وهذا الامر انعكس على ارتفاع التجارة الخارجية بشكل كبير. ففي عام ١٨٦٥ بلغت ٤١٨ مليون باون ووصلت عام ١٨٩٠ الى اكثر من(٦٠٠) مليون باون وبلغت مطلع القرن العشرين اكثر من الف مليون باون، كما ازداد عدد السكان بشكل ملفت فقد تضاعف عدد السكان من ١٦ مليون نسمة عام ١٨٣١ ليصل عام ١٨٧١ الى ٢٦ مليون نسمة .

اذا ما هو العصر الفيكتوري وماهي ابرز انجازاته؟

في عام ١٨٣٠ منح البرلمان البريطاني ولاية العهد للاميرة فكتوريا ابنة اخ الملك وليم الرابع الذي حكم بين عام ١٨٣٠- ١٨٣٧، ذلك كونه لم يكن له او لأخوته ذكور شرعيين(على الرغم من وجود ذكور غير شرعيين الا ان الدستور والاعراف البريطانية قضت بعدم استحقاقهم للعرش البريطاني كونه قيمة وطنية عليا لاتصلح الا للقيم والاخلاق الصحية).

كان عمرها حينها(١٢ سنة) فهي من مواليد عام ١٨١٩، ووضعت تحت وصاية امها ، الا انه عند وفاة الملك وليم الرابع كانت فكتوريا قد تجاوزت السن القانونية(١٨) سنة وأصبحت مؤهلة لاستلام العرش ولم تعد بحاجة لوصاية والدتها.

اتصفت شخصية الملكة فكتوريا بالقوة والنزوع للاستقلالية في قراراتها وآرائها فضلا عن ما تتمتع به من ثقافة وأطلاع وجاذبية جعلتها تتمكن من كسب ود الطبقة الارستقراطية والرأسمالية فضلا عن طبقات الشعب الاخرى.

وبعيدا عن الخوض في تفاصيل حياة الملكة فكتوريا الشخصية والتي فيها من القصص والمشوقات الشيء الكثير الا ان ما يهمنا هنا هو ابراز سمات العصر الفكتوري الذي كان طويلا، اذ بلغ(٦٤) عام وشهد تطورات هائلة في التاريخ البريطاني على الصعيدين الداخلي والخارجي. سنركز على تطور الواقع الديمقراطي في بريطانيا والذي مثل هذا العصر نضوجه وأنطلاقته الحقيقية. اذ شهد نمو دور الطبقات العمالية والشعبية في الحياة السياسية من خلال الاصلاحات التي حصلت.

أ.الاصلاحات البرلمانية

ارتبطت الاصلاحات البرلمانية بعوامل وظروف عدة شهدتها بريطانيا مع بداية(العصر الفكتوري) من ابرزها(كما اسلفنا) زيادة السكان الذي ترافق مع تبدل أنماط الحياة الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع البريطاني. فبعد ان كانت الزراعة وملكية الارض هو النمط السائد والمؤثر في الحياة الاقتصادية والسياسية خلال القرون السابقة، تغير ذلك النمط باضمحلال الزراعة وأثرها في الحياة الاجتماعية بالرغم من نمو وتقدم الاساليب المستخدمة فيها، وذلك نتيجة منافسة المنتجات الامريكية والكندية والاسترالية للمحاصيل البريطانية. اذ غزت تلك المنتجات الاسواق الاوربية وحتى الاسواق داخل بريطانيا لاسباب تتعلق بالاسعار والنوعية، وتقلصت المساحة المزروعة من٨ مليون أيكر(الايكر يعادل ٤ هكتار او ٤ دونم أي تقريبا ٤٠٠٠م٢) عام ١٨٧١ الى ٦ مليون عام ١٩٠١. فضلا عن ذلك فقد ادى انتعاش الصناعة وظهور المدن الصناعية الكبرى الى تحول الكثير من الفلاحين الى العمل الصناعي بعد تدهور الزراعة وتضاعف اعداد العمال قرب المصانع وفي المدن. وتقلصت اعداد الفلاحين(العمال الزراعين) بشكل كبير جدا.حتى ملاك الاراضي الزراعية فقد تحولوا الى العمل التجاري والصناعي والمضاربة بالاموال وتراجع اهتمامهم بالاراضي الزراعية التي عدت في كثير من الاحيان مكان للتنزه والترف للطبقة الارستقراطية.

وفي الوقت الذي كانت فيه الثروة تنمو لدى الطبقات العليا في المجتمع من الارستقراطيين والرأسماليين فان عدد كبير من السكان بقي فقيرا نتيجة عدم التوزيع العادلل للثروة ،واعتماد ادارة المجتمع على مبدا(الفردية والنفعية) التي سبق الحديث عنها. فقد ظلت اجور العمل قليلة

وسـاعات العمـل طويلـة والبطالـة متفشـية، وقـد وصـف احـد السياسـيين البريطـانيين هـذه الحالـة:(ان هنـاك مئـات الالـوف مـن النـاس يعيشـون علـى شـفا حفـرة مـن العـوز والفاقـة في الوقـت الـذي تـنعم فئـة قليلـة بكـل مـا لـذ وطـاب مـن نعـم الحيـاة). ويشـير الطلـب المقـدم الى البرلمـان مـن قبـل انصـار الحركـة الميثاقية في عـام ١٨٤٢ يصـفون الـواقـع الاجتمـاعي:(ان الالـوف في انـكلترا وايرلندا وأسـكتلندا يموتون مـن العـوز الفعلـي٠٠٠ ويجـب الأنتبـاه الى الفارق العظيم بين اجور الملايين المنتجة ورواتب الذين يجـب التشـكيك في نفعهـم للمجتمـع بالقيـاس الى غيرهـم حيـث تنتشـر الثـروة والـترف بـين الحـكام ويسود الفقر والجوع بين المحـكومين).

وفي بيان اخر للحركة تصف فيه الواقع الاجتماعي البريطاني:

(ومع توافر كل عناصر الرخاء الطبيعي وكل استعداد وقدرة للانتفاع بها نجـد انفسـنا رازحـين تحـت الام عامـة وخاصـة.وقـدمت مصـلحة حـزب مـا للتضحية بمصالح الامة وحكمت القلة لمصلحة القلة بينما أهملت مصـالح الـكثرة وديست بوقاحة واستبداد).

لقـد كانـت اوضـاع الفقـراء وأحـوال العمـال هـي مـن اهـم اسـباب قيـام الحركــة الميثاقيــة اذ كانــت كــل بيانــات الحركــة خــلال ســنوات نشـاطتها(١٨٣٧- ١٨٤٨) تشـير الى التنـاقض الحـاد بـين طبقـات المجتمـع نتيجـة عـدم العدالـة في توزيـع الثـروات النـاتج عـن الـواقـع السياسـي الـذي لايسـمح بمشـاركة كـل طبقـات الشـعب بـالحكم مـن اجـل ادارة الدولـة بشكل عادل.

ونتيجة لرفض مبـدا العنـف والثورة مـن قبـل الغالبيـة المجتمـع البريطـاني والـذي لم يكـن مقبـولا نتيجـة التجـارب الدمويـة المـرة الـتي مـرت بالتـاريخ البريطـاني والـتي رسـخت رفـض الثـورة والالتجـاء الى الاسـاليب السـلمية

للمطالب بالحقوق ،فان الحركة الميثاقية فشلت في تحقيق اهدفها بالضغط على الطبقة السياسية على الرغم من انها حركت المشاعر والافكار لدى الطبقة السياسية الحاكمة في الحاجة الماسة للاصلاح وان القوانين والانظمة التي سادت خلال قرون طويلة لم تعد ملائمة لروح العصر وللتطور الاجتماعي والاقتصادي الذي يشهده المجتمع البريطاني[1].

لقد اصبح مبدا(التوافقية) او(الحل الوسط) عرفا محترما بل ومقدسا لدى المجتمع البريطاني ومهما كانت مطالب الفقراء او الذين يشعرون بالغبن السياسي والاجتماعي فانهم كانوا يرفضون مبدا الثورة(على شاكلة الثورة الفرنسية)، بل كان الحوار والمطالبة الصريحة والنقاشات والتجريب هي السائدة في التنافس السياسي، لذا وجد عدد من السياسيين انه آن الأوان للتفكير بالاصلاح اذ ان اكثر من(٦) ملايين فرد من الذكور أعمارهم تزيد على(٢١) سنة لم يكن لهم حق الانتخاب نتيجة النظام الانتخابي الذي كان سائدا والذي من ابرز معالمه النفوذ الموروث والرشوة والفساد والشروط المالية الصعبة التي تفرض للمشاركة في الانتخابات.

ونتيجة لذلك فقد بدأ السياسيون من قادة حزب المحافظين والأحرار بمناقشات مستمرة حول اهمية الاصلاح. الا ان هذه المناقشات أوضحت صعوبة مسار العملية الاصلاحية للعملية الانتخابية أنطلاقا من حرص الطبقة الارستقراطية والراسمالية على مصالحها .الا انه اول محاولات الاصلاح جائت عام ١٨٥٢ عندما صدر قانون (مكافحة الممارسات

---

[1] وقد اشارت الملكة الى رفضها للحركة الميثاقية بقولها:((شكرا للرب...لقد ماتت الجارتية وخرج الجارتيون وموكبهم بالفشل الذريع...لقد كان ولاء الناس الاحرار لافت للنظر وكان سخطهم من اجل السلام الذي عكره هؤلاء الرجال الوضيعيين كان عظيماً).

الاخلاقيـة في الانتخابـات) والـذي اشـار الى وجـوب مكافحـة الرشـوة والفساد وبيع الاصوات في الانتخابات التشريعية. الا ان هـذا القـانون كـان يمثل اجراءا ثانويا وغير مؤثر او فعال لسعة وانتشار الفساد الذي كان اساسا موجود في النظام الانتخابي نفسه ، فضلا عن عدم القدرة على مراقبـة حـالات الفسـاد مـن قبـل اصـحاب النفـوذ المـالي والسياسـي والطبقي.ذلك بالرغم من تشكيل لجنة من الخبراء القانونيين للتحقيق في تلك الحالات ومنحتهم صلاحيات واسعة تصل الى حرمان المرشح من الانتخابات في حالة تقديم هدايا او مبالغ للمصوتين.

كما ان أهمية هذا القانون لم تكن بمستوى مطالب الجماهير لاسيما العمال الذين يطالبون بتوسيع حق الترشيح والانتخاب ليشمل اوسع قاعدة شعبية ممكنـة. فقد كـان النفـوذ والاهميـة الماليـة هـي الـتي تحـدد واقـع المجالس التشريعية. فعلى سبيل المثال كان مجلس العموم عام ١٨٦٥ يمثله ممـن يحملـون لقـب شـريف او بـارون او اولادهـم او مـن يـرتبط بهـم يشـكلون(٣٢٥) عضـوا وهـو نصـف عـدد أعضـاء المجلـس. وتشـير الاحصـاءات الى اسـتمرار نفـوذ الطبقـة الارسـتقراطية في كـل الـدورات الانتخابية ،ففي انتخابات عام ١٨٦٥ كانت هناك(٤٥) بلده خاضعة لنفوذ عائلة واحدة وهناك(٦) بلدات اخرى كانت خاضعه لعائلتين فقط.

وكانت معظم البلدات والمناطق الانتخابية لاتخرج عن سيطرة أشخاص بعينهم نتيجة لنفوذهم كونهم ملاكي الأراضي الزراعة او بأسلوب شراء الأصوات او حتى التهديد للمصوتين، لاسيما ان النظام الذي كان معتمدا يقوم على الاقتراع العلني أمام المرشحين الامر الذي لايسمح للشخص ان يختار مرشحه بحرية وبحيادية.

هـذا الأمـر أيضـا نـراه حتـى في المناصـب الحكوميـة التنفيذيـة اذ ان الوزارات كانت مقتصرة على العوائل الكبيرة والمتنفذه، ففي عام ١٨٦٥ كان مجلس الوزراء مكون من أصحاب تلك العوائل بواقع ٩٠٪ الى ١٠٠٪ أي من اصل ١٥ عضو يكون بين ١١- ١٥ شخص من أصحاب النفوذ من الطبقات العليا وليس على أساس الكفاءة او المهنية. فضلا عن ذلك فقد كانت الآلية المتبعة لتسجيل الناخبين غير دقيقة وعشوائية اذ كان سجل الرسوم التي تدفع للدولة هي التي تحدد المؤهلين للتصويت وهي المصدر الوحيد لسجل الناخبين.

وبالرغم من المحاولات الحكومية التي عملت على ارضاء الطبقة العاملة وتنفيذ عدد من مطالبها السياسية والاجتماعية الا ان الطبقة العاملة واصلت ضغطها بمختلف الوسائل، ففي عام ١٨٤٧ شرعت الحكومة قانون لصالح عمال النسيج اذ حدد عمل النساء فيها(١٠) ساعات بدلا من(١٢) ساعة ، وصدر عام ١٨٥٥(قانون المناجم) الذي الزم اصحاب المناجم اتخاذ الاجراءات الضرورية التي تؤمن سلامة العمال.

فضلا عن ذلك فقد جرت محالات عدة لايجاد صيغة للاصلاح البرلماني الذي يتيح للطبقة العاملة المشاركة السياسية وذلك من خلال تعديل الية الانتخاب والتصويت. الا ان هذه المحاولات كانت تصطدم بمعارضة شديدة من الطبقة المتنفذه في المجتمع والسلطة اذ ان زعماء حزب الاحرار والمحافظين لم يشاؤون التخلي عن نفوذهم التقليدي والاستمرار بالوقوف بوجه السماح للطبقات الاخرى في المجتمع كالطبقة العاملة بان يكون لها دور مؤثر في السلطة انطلاقا من مخاوف عدة لدى تلك الاطراف منها ان وصول العمال للسلطة سيؤدي الى المطالبة بأجور أعلى وساعات عمل اقل، الامر الذي سيؤثر على مصالح الطبقات العليا كما ان العمال يتهمون

بانهم فوضويون لايملكون مشاريع سياسية ولأنضباط وان عملهم لايحقق مصالح كل المجتمع واستقراره. كما يتهم العمال بانهم يشعرون بالحسد تجاه الطبقات العليا وبالتالي فان حصولهم على القوة السياسية سيؤدي الى تدمير التوازن الطبقي في المجتمع البريطاني.

لذا فقد اعتقد الماسكون على السلطة بان العمال يفتقرون الى القدرة والمكانة الاجتماعية والأقتصادية التي تؤهلم لممارسة العمل السياسي. الا ان العمال كان اصرارهم كبيرا في التوجه للعمل السياسي من خلال التنظيمات النقابية والحزبية باعتباره السبيل الوحيد لتحقيق مطالبهم.

وبعد محاولات عديدة في تقديم مشاريع للاصلاح من قبل عد من القادة السياسيين طرح مشروع قانون للاصلاح من قبل حزب المحافظين عام ١٨٦٧ واعتبر مكمل لقانون الاصلاح البرلماني لعام ١٨٣٢ ، وفيه تطور كبير باتجاه توسيع المشاركة السياسية . وبعد حوارات ومناقشات طويلة وشاقة اقر القانون الذي اثار غضب الطبقة المتنفذة ،فقد اشار احد السياسيين المعارضين للمشروع (لقد مهد هذا القانون الطريق لعقد تحالف خبيث بين حديثي الثراء والعامة وسوف يطرد رجال العوائل القديمة خارج الحياة العامة) وهذا يشير الى مخاوف الطبقة الارستقراطية ومدى تمسكها بامتيازاتها التي قد تُهدد من قبل أبناء الطبقة العمالية.

كما ان هذه المعارضة أشارت الى ان هذا القانون كان خطوة متطورة باتجاه تطور الحياة الديمقراطية البريطانية تجاه توسيع لمشاركة السياسية الامر الذي يشير الى الحيوية المستمرة للتجربة السياسية البريطانية ونموها المتواصل باتجاه النضوج.

ان ابرز ما نص عليه القانون الجديد هو اقرراه بضرورة زيادة، عدد المشاركين في الانتخابات بما يتناسب وزيادة عدد السكان وكذلك بما

يتناسب وسعة تاثير لطبقات الاخرى في المجتمع التي كان دورها محددا خلال المراحل السابقة.

فقد اقر القانون تخفيض القيمة المالية المؤهلة للمشاركة في الانتخابات واضافة بعض الحقوق للتصويت لاتعتمد على القيمة المالية المؤهلة، وأقر القانون منح المزيد من التمثيل للطبقة العاملة والتاكيد على ان يكون النظام الانتخابي وتوزيع المقاعد اكثر عدالة وانصاف من خلال اجراء تعداد دقيق لسكان وتحديد دقيق للمدن والمناطق الانتخابية ،وأعداد سجل منقح وحقيقي للمصوتين، اذ شكلت لجنة ملكية للتدقيق في حدود البلدات وعدد السكان والتدقيق في أحصاء الاصوات للتاكد من صحتها. كما اشار القانون الجديد على التاكيد على النزاهة ألانتخابية، وخول الموظفين المراقبين للانتخاب محاسبة أي شخص لايلتزم باللوائح الانتخابية وقد تصل هذه المحاسبة الى الحبس.

لقد ازداد عد المصوتين طبقا لهذا القانون من ابناء الطبقة العاملة والطبقة الوسطى لنسبة تصل الى ٢٥٪ وتمكن عدد من أعضاء هذه الطبقات من ان يكون لهم دورهم السياسي مع تراجع دور الطبقات التقليدية.

كما اضاف القانون عدد من المقاعد الى عدد مقاعد البرلمان السابق بواقع(٥٢) مقعدا وزعت بشكل محدد على المدن والمقاطعات والجامعات.

لقد وصف قانون الاصلاح البرلماني لعام ١٨٦٧ بانه جعل النظام الانتخابي اكثر ديمقراطية كونه جعل التنافس قائما بشكل جدي في الدوائر الانتخابية بعد ان كان الامر محسوما في السابق لافراد بعينهم مما ادى الى اعتبار البرلمان اقرب في تمثيلة لاراء الناخبين وليس لارادة طبقة او عوائل معينة.

كما اجبر القانون ابناء الطبقة الارستقراطية الى تفهم الواقع الديمقراطي البريطاني اذ بالرغم من سيطرت هذه الطبقة على مجلسي اللوردات الا انها بدأت تحسب حساب القاعدة الانتخابية والواسعة وتاثير الراي العام الذي يؤثر بشكل كبير على شكل البرلمان وطبيعة الحكومة، وهذا ما حصل بعد عام واحد على اصدار قانون الاصلاح اذ اعطت الجماهير اصواتها الى حزب الاحرار وبرنامجه الانتخابي والذي فاز في انتخابات عام ١٨٦٨، وذلك على الرغم من ان حزب المحافظين هو الذي قدم لائحة الاصلاح الامر الذي اشر الى ان دور الطبقات الشعبية كان له الاثر في ترجيح كفة حزب على اخر، لذا فقد بدات الطبقة السياسية نتيجة لهذا القانون تاخذ في برامجها وسياسيتها مصالح ابناء الطبقات المختلفة لاسيما العاملة لان صوتها سيكون حاسما في الانتخابات.

عزز قانون الاصلاح لعام ١٨٦٧ بادخال الحكومة القضاء المستقل كرقيب وحامي لنزاهة العملة الأنتخابية، اذ صدر مرسوم بهذا الشان اطلق عليه(مرسوم الانتخابات البرلمانية العام ١٨٦٨) واوضح الية اختيار القضاة ودورهم في العمل الرقابي.

بالرغم من اهمية قانون الاصلاح لعام ١٨٦٧ وانه مثل مرحلة متطورة ومتقدمة في الديمقراطية النيابية في بريطانيا الا انها كانت ناقصة بشكل خطير نتيجة لعدم تضيمنه تغيير طريقة التصويت العلنية، اذ كان التصويت علني وأمام المرشحين انفسهم الامر الذي كان يؤدي الى حالات من الفساد وشراء الاصوات فضلا عن استخدام المرشحين لنفوذهم وسلطتهم في دوائرهم الانتخابية للضغط على الناخبين، لذا فقد كان من اهم مطالب الحركات العمالية لاسيما الحركة الميثاقية هي(الاقتراع

السري) في الانتخابات عندما طرحت حكومة الاحرار مشروع القانون (الاقراع السري) على البرلمان بهدف ايجاد الضمانات للحريات الشعبية للتعبير الحقيقي للراي العام.

واجهت هذا القانون معارضة شديدة لاسيما من قبل مجلس اللوردات التي تسيطر عليه الطبقات التقليدية فضلا عن اصحاب النفوذ في الحكومة ومجلس العموم الا ان التأئيد الشعبي الكبير للقانون ونتيجة لعدم قدرة السياسيين مواجهة الراي العام خشية خسارة اصواتهم فقد اقر القانون في حزيران عام ١٨٧٢م.

اعتبر القانون انتصارا كبيرا للديمقراطية البريطانية وأضافة جديدة في مسيرتها الطويلة، اذ عدت استكمالا لحلقاتها وتطورها ونضوجها ومثل هذا القانون مرحلة جديدة اخرى للديمقراطية في بريطانيا أختلفت اختلافا جوهريا عن الواقع السابق.

لقد عملت حكومة الأحرار على تنفيذ القانون تنفيذا سليما يحقق الاهداف التي وضع من أجلها وأهما الحد من التجاوزات والخروقات والضغوط والرشاوي لاسيما ان المراكز الانتخابية كانت سوقا لبيع الاصوات فضلا عن وسائل الضغط والتخويف والاكراه التي اتبعها لمرشحون المتنفذون.

ان هذا التطور الجديد ساعد بتطور مطالب الراي العام واهدافه في برامج معينة طرحتها الاحزاب التي بدات بالعمل على اقناع الناخبين بان برنامجها يهدف الى تحقيق طموحات المجتمع ومطالبه. وان هذا الاقناع كان الوسيلة الوحيدة للحصول على الاصوات بعد ان كانت هناك اساليب اخرى متمثلة بالفساد والرشاوي، الامر الذي اعطى العملية الديمقراطية البريطانية صفة النضوج الذي وصلت اليه لا بالثورة او العنف

وانما بتحقيق المكاسب بالتطور السلمي التدريجي والذي استجابت له كل طبقات المجتمع البريطاني ضمن ما اطلق عليه(التوافقية).

في عام ١٨٨٤ اضيفت تشريعات اخرى تعزز الانجازات الديمقراطية وتوسيع قاعدة الناخبين وتنظيم العملية الانتخابية ودوائرها بشكل اكثر دقة واكثر مصداقية، فقد شرع قانون في تلك السنة لتوسيع حق الاقتراع ودمجت المدن التي عدد سكانها يكون بين(١٥- ٥٠) الف نسمة مع المقاطعات التي تقع فيها واحتفظت المدن التي نفوسها ٥٠ الف بتمثيلها بعضو واحد، اما المدن التي تزيد عن ذلك الى(١٦٥) الف نسمة فمثلت بعضوين، وما زاد عن ذلك فان المدينة تمثل بثلاثة اشخاص مع الحق باضافة عضو واحد لكل(٥٠) الف نسمة يسكنون في المدينة ،واشار المشروع الى تخفيض مؤهل الانتخاب ليشمل اكبر عدد ممثل من سكان المدن مع تحديد عمر الناخب بـ(٢١) سنة.

رسخ هذا القانون المكتسبات الديمقراطية السابقة واصبح من حق كثير من العمال والعمال الزراعين وعمال المناجم المشاركة في الانتخابات الامر الذي زاد من اعداد الناخبين الى(٧٠٪) تقريبا. لقد ساعد هذا القانون على زيادة نفوذ الطبقة الشعبية الواسعة والتي اصبح لها الدور الكبير والاساس في توجية العملية السياسية وتشكيل البرلمان والحكومة . ومع نهاية القرن التاسع عشر كانت الديمقراطية البريطانية مثلا سليما للتمثيل الديمقراطي انعكس بشكل كبير على الانسجام الاجتماعي والتطور الاقتصادي فضلا عن قوة الدولة التي اصبحت لها السيطرة على بقاع واسعة في العالم مما ادى الى ان تكون امبراطورية لا تغيب عنها الشمس وذلك بفضل التماسك الداخلي والشعور بالعدالة لدى الشعب.

لقد ترسخت قيم المجتمع البريطاني في العصر الفيكتوري وانتج واقعا وطنيا ناضجا على مختلف الصعد فقد اعتبر اصحاب الطبقة الرسمالية والارستقراطية التقليدية انفسهم قادة للحياة السياسية والاقتصادية في بريطانيا وان ذلك يتطلب منهم التزامات محددة تجاه الشعب البريطاني وأصبحت مصطلحات الحرية والتقدم من الأهداف الأساسية لتصرفاتهم. فيما اعتبر ابناء الشعب البريطاني من مختلف الطبقات أنفسهم وطنيين بشكل كبير حريصين على قوة دولتهم وتقدمها واستقرارها مهما كان مستواهم المعيشي فقد كانوا ملتزمين باحترام اعراف دولتهم حتى اذا طالبوا بالاصلاح والحقوق فان مطالبهم تكون بطابع سلمي بعيد عن العنف، في ذات الوقت كانت الطبقة الحاكمة تسمع لهذه المطالب وتدخل في حوارات ونقاشات مثمرة من خلال الاقناع او الاستجابة الامر الذي انعكس على استقرار وقوة بريطانيا لذا اطلق على هذا العصر(بعصر الوفاق الفكتوري)

ب ـ ابرز شخصيات العصر الفكتوري ودورهم السياسي:

تعاقب على رئاسة الوزراء في بريطانيا خلال حكم الملكة فكتوريا (٢٠) شخصية سياسية يمكن اعتبارهم من أبرز رجات الدولة في التاريخ البريطاني، اذ كانت مقدرتهم السياسية ودورهم السياسي بمستوى متميز جعل الدولة البريطانية تصل الى اوج قوتها الخارجية والى قمة أستقرارها وتطورها على الصعيد الداخلي من النواحي الأجتماعية والأقتصادية والسياسية.

وكـان لشخصـية فكتوريـا المتوازنـة والـتي يغلـب عليهـا تـرجيح المصـلحة الوطنية البريطانية وجعل العرش البريطاني رمـزا للوحـدة والقـوة البريطانيـة اثرا مهما في نجاح الشخصيات السياسة الاخرى في ادارة الشؤون بريطانيا. لقد تميزت الملكـة فكتوريـا بقـوة شخصـيتها وجاذبيتهـا وشـعورها العـالي بالمسؤولية الملقاة على عاتقها كونها تمثل كل الشعب البريطاني فضلا عن تمسكها بالاستقلالية في نظرتها الى الامور والتعامل معها بعيدا عن أراء مـن حولهـا ان كانـت والـدتها او خالهـا او حتـى زوجهـا ، بـالرغم مـن علاقتهـا الجيـدة مـع الجميـع فكانـت تسـمح للاستشـارة ولكـن القـرار يكون لها اخر المطاف.

كما اصبح لها تاثير على شخصيات سياسية اكبر منها سناً واكثر خبرة وتجربة وهذا ينطبق على معظم رؤساء الـوزارات على الصعيد الشخصـي والسياسي ومن ابرز تلك الشخصيات:

١.اللـورد ملبـورن[١] : وهـو أول رئـيس للـوزراء في عهـد الملكـة فكتوريـا(٢٠ حزيرن ١٨٣٧- ٣٠ اب ١٨٤١) اذ كان يشغل المنصب قبل توليها العرش البريطـاني وطلبـت منـه الاسـتمرار في تحمـل المسـؤولية . وصـف البـاحثون ملبــورن بانــه كــان متــأثرا جــدا او معجبــا بالملكــة ويظهــر لهــا وده وأهتمامه(كمـا لـو كانـت ابنتـه) وقـد بادلتـه الملكـة الأحترام والاعجـاب. واشارت الملكة في مذكراتها (الله يعلم ان أي وزير او صديق لم يكتسب ابدا ثقة التاج بالكامل كما اكتسب هـذا الصـادق اللـورد ملبـورن ثقـتي) كان يوجه النصح للملكة في الشؤون الداخلية والخارجية.

---

[١] اللورد ملبورن(١٧٧٩ -١٨٤٨) سياسي بريطاني ينتمي الى حزب الاحرار، بدء حياته السياسية في مجلس العموم عام ١٨٦٠ واصبح وزيرا لشؤون ايرلندا عام ١٨١٨ وزيرا للداخلية عام ١٨٣٠ توفي في عام ١٨٤٨.

ابرز ما شهده عهد ملبورن هو بداية أزمة الحركة الجارتية التي هزت بريطانيا ومارافقتها من أعمال عنف واضرابات، كما شهدت وزارته ظهور بوادر ازمة اقتصادية ومالية أدت الى تراجع شعبية حزب الاحرار الأمر الذي دعا الملكة الى الدعوة لانتخابات اشرت تراجع شعبية حزب الاحرار وفوز المحافظين بواقع ٣٦٧ مقعد مقابل ٢٩١ للاحرار الامر الذي ادى الى تكليف شخصية جديدة لرئاسة الوزراء.

٢. السير روبرت بيل[١]: تولى رئاسة الوزراء للفترة من(٣٠ اب عام١٨٤١- ٣٠ حزيران ١٨٤٦) ووصف بانه يمتلك ثقافة عالية وانه كان يؤمن بالواقعية او البرغماتية في تبني افكاره السياسية. لقد عمل بيل على معالجة الازمة الاقتصادية التي اطاحت بوزارة حزب الاحرار وذلك من خلال تنظيم الضرائب الذي أدى الى انتعاش التجارة، فقد اقترح الغاء الرسوم المقيدة للتجارة وتخفيف الرسوم على المواد الخام وتخفيف كافة الرسوم تخفيضا يسمح بالمنافسة العادلة ،الامر الذي توافق مع مبدا حرية التجارة الذي امن به بيل واصر على تطبيقه بالرغم من المعارضة الشديدة له من حزبه او من الحزب الاخر، الا انه نجح في اقراره. كما نجح في اجراء الاصلاح النقدي من خلال قانون حدد بموجبة كمية العملات التي يصدرها البنك المركزي بما يتناسب وقيمتها الحقيقية مما متوفر لديه من ذهب، وذلك بهدف تحجيم حالة التضخم واثاره الاقتصادية . واجهت وزارة بيل أزمة كبيرة تمثلت بالاوضاع الاقتصادية في ايرلندا نتيجة تلف

---

[١] ربرت بيل(١٧٨٨ -١٨٥٠) بدء حياته السياسية عام ١٨٠٩ عندما انتخب عضوا في مجلس العموم،وتقلد مناصب وزارة كوزير لشؤون ايرلند عام ١٨١٢ والداخلية خلال الاعوام ١٨٢٠ و١٨٣٠ تولى رئاسة الوزراء للفترة بين ١٨٣٤- ١٨٣٥.

المحصول الاساسي فيها البطاطا والذي ادى الى حصول مجاعة في ايرلندا ادت الى موت وهجرة الالاف من سكانها.

لقد جعلت الازمة الايرلندية بيل يعمل على الغاء قوانين أستيراد الحبوب التي فرضت منذ عام ١٨١٠ من خلال فرض رسوم عالية على المستورد من الحبوب بهدف حماية المحاصيل الزراعية المحلية.وأستمر العمل بهذه الضرائب خلال المراحل اللاحقة لعام ١٨١٥، الا ان الاوضاع المأساوية في ايرلندا فضلا عن الازمة الاقتصادية التي ضربت الزراعة بشكل عام في بريطانيا أدت الى ان تتعالى المطالب بالغاء قانون الحبوب. دارت مناقشات وحوارات عديدة وأعتراضات شديدة من قبل كبار الملاكين الزراعيين هدد خلالها بيل بالاستقالة الا ان موقف الملكة فكتوريا كان داعما لرئيس الوزراء ومساعيه في الغاء قانون الحبوب كونها كانت من المؤمنين بحرية التجارة فضلا عن تاثرها بالأوضاع الاقتصادية الصعبة التي تمر بها بريطانيا الامر الذي ادى الى ان يوافق البرلمان على الغاء قانون الحبوب في حزيران من عام ١٨٤٦ والذي الغيت بموجبة كل الرسوم الكمركية السابقة المفروضة على الحبوب والمنتجات الحيوانية وغيرها.

كان ثمن موقف بيل هذا ان واجه انتقاد شديد من الطبقة المتنفذه من ملاك الاراضي الزراعية الامر الذي دعاه الى الاستقالة. يوصف بيل بانه السياسي الوحيد الذي بكى عليه الفقراء في الشوارع كونه كان قريبا من الطبقات الفقيرة ومؤمن بحقوق الطبقة العاملة وله نظره اصلاحية في كل نواحي الحياة في بريطانيا توفي بيل عام ١٨٥٠.

٣. جون رسل[1]: عند تكليفه برئاسة الوزراء في حزيران ١٨٤٦ كانت بريطانيا منشغله بتجدد الحركة الجارثية ونشاطها المتزامن مع التطورات السياسية في اوربا التي شهدت احداثا راديكالية ضد الأنظمة القائمة لاسيما فرنسا، لقد ركز رسل جهده لمعالجة القضايا الداخلية وأقترح توسيع حق التصويت والانتخاب في محاولة منه لاصلاح الواقع السياسي الذي تسبب بتنامي الحركة الجارتية الا انه واجه معارضة شديد لاقتراحاته أدت به الى الاستقالة في ٢٣ شباط عام ١٨٥٢.

٤. كلف اللوردربي(١٧٩٩- ١٨٦٩) برأسة الحكومة التي استمرت عشرة اشهر بين(٢٣ شباط ١٨٥٢- ١٨ كانون اول ١٨٥٢)،أجريت خلالها انتخابات ادت الى تكليف اللورد بردين الذي الف حكومة وصفت بانها ائتلافية استمرت من ١٩ كانون اول ١٨٥٢ الى ٦ شباط ١٨٥٥ وقد انشغلت هذه الحكومة بالاوضاع الخارجية لاسيما حرب القرم الى ابغضها الشعب البريطاني وعارضها.

---

[1] جون رسل(١٧٩٢-١٨٧٨) من زعماء حزب الاحرار شغل منصب وزير الداخلية عام ١٨٣٥ ووزراة الخارجيه عام ١٨٥٢ وعام ١٨٥٩ حتى عام ١٨٦٥.

٥.بالمرستون[١] : من الشخصيات المهمة في هذه المرحلة لاسيما ان الاوضاع الدولية كانت في تلك المرحلة شائكة، تولى رئاسة الوزراء الاولى عام ١٨٥٥ حتى شباط ١٨٥٨ وفي وزارته الثانية(١٨٥٩- ١٨٦٥)، ابرز احداث هذه المرحلة هي الحرب الاهلية الامريكية وانعكاساتها على العلاقات مع بريطانيا ،اما على الصعيد الداخلي فقد تسارعت الدعوات للاصلاح البرلماني وقدمت مقترحات عدة بشانها لاقت معارضة كبيرة.

٥. بنيامين دزرائيلي[٢] : عرف عنه مواقفة المناهضة للاصلاح وكان ذلك واضحا في تعقيبه على لائحة الاصلاح البرلمانية عندما اشار ان الاصلاح سيؤدي الى طغيان فئة واحدة وهي الاقل استنارة(وكان يقصد الطبقة العمالية). كلف براسة الوزراء في ٢٧ شباط ١٨٦٨ الا ان وزارته لم تستمر طويلا اذ استقالت في ٣ كانون الاول ١٨٦٨ بعد ان اجريت انتخابات برلمانية فاز فيها حزب الاحرار بواقع(٣٨٧) مقعدا مقابل (٢٧١) مقعد للمحافظين وعندها قدمت وزارته استقالتها.

في شباط من عام ١٨٧٤ كلف دزرائيلي في الوزارة للمرة الثانية بعد ان تمكن المحافظين من تحقيق أغلبية في انتخابات ذلك العام، وقد ركز

---

[١] جون تمبل بالمرستون(١٧٨٤ -١٨٦٥) :وهو من ابرز الشخصيات في العهد الفكتوري ولد في انكلترا اصبح من لوردات ايرلندا كونه يملك اراضي زراعية هناك، وطبقا لذلك عين عضوا في مجلس العموم البريطاني عام ١٨٠٧ واستمر في عضويته(٦٠) عاما عين وزيرا للخارجية ثلاث مرات وفي ظروف دولية شائكة خلال الاعوام (١٨٣٠-١٨٣٤) و(١٨٣٥-١٨٤١) و(١٨٤٦ - ١٨٥١) كلف براسة الوزراء لمرتبين.

[٢] بينامين دزرائلي:(١٨٠٤-١٨٨١) سياسي واديب ولد في لندن من اصول ايطالية يهودية تقلد مناصب وزارية قبل ان يتولى رئاسة الوزراء في مرتين.

دزرائيلي خلال فترة حكمه على تعزيز السياسة الأستعمارية لبريطانيا وتوجيه السياسة الخارجية ضمن هذا السياق لاسيما ان هذه المرحلة شهدت احداثا مهمة على الصعيد الدولي و ما يتعلق منها بقناة السويس والهند والموقف من الحرب الروسية العثمانية ومؤتمر برلين عام ١٨٧٨ فضلا عن السياسة البريطانية أزاء جنوب افريقيا وقد عكست سياسية دزرائيلي رغبته وسعيه لتعزيز المكانة الدولية لبريطانيا.

لقد تميزت شخصية درزائيلي بقدرته على التعامل الايجابي مع الملكة فكتوريا وأستطاع كسب تائيدها لسياسته من خلال اسلوبه في الاطراء والتعظيم للملكة مما نال أعجابها وأحترامها، وكان يعلن دائما ان تركيزه هو جعل التاج رمزا للوطنية البريطانية ورمزا لقوة وعظمة الامبراطورية البريطانية.

من ابرز اعمال دزرائيلي على الصعيد الداخلي هو محاولته اصدار قوانين للاصلاح الاجتماعي من بينها قانون الصحة الصادر عام ١٨٧٥ والذي كان يهدف الى تحسين واقع السكن والعمل للعمال من خلال بناء مساكن تتوفرفيها الشروط الصحية اللازمة.

٧.غلادستون[١] : وهو من الشخصيات المميزة على الصعيدين الرسمي والشعبي وذلك لأهتمامه بالاصلاحات الداخلية ذات المساس المباشر لجميع طبقات الشعب لاسيما الطبقات الدنيا .فقد كان أسمه معلماً بارزا في

---

[١] وليم ايوارن غلادستون:(١٨٠٩-١٨٩٨) ولد في مدينة ليفربول ،انتمى لحزب المحافظين في بداية حياته الى انه تحول الى الاحرار فيما بعد. تولى مناصب وزارة عدة بوزراة الحرب والمستعمرات(١٨٤٥-١٨٤٦) ووزارة الخزانة(١٨٥٢-١٨٥٥) وتولى رئاسة الوزراء لاربع مرات:(كانون اول ١٨٦٨-شباط ١٨٧٤)،(نيسان ١٨٨٠- حزيران ١٨٨٠)،(شباط ١٨٨٦-تموز ١٨٨٦) و(اب -١٨٩٢٢-اذار ١٨٩٤). توفي في عام ١٨٩٨ عن عمرنا هز الستين عاماً

تـــاريخ التطـــور السياســـي والاجتمـــاعي البريطاني،وقـــد ادت موافقـــه الاصـلاحية الى ان تكـون علاقاتـه مـع التـاج البريطـاني وعـدد مـن القـوى السياسـية تتميـز بالجفـاء والمعارضـة، فقـد وصـفة الملكـة فكتوريـا انـه كان(اجتماعيا جماهيريا) وعدت مبادئة بالغة الخطورة تولى رئاسة الوزراء اربع مرات بدءا من ١٨٦٨ وقام خلالها باعمال اصلاحية عدة من ابرزها:

أ.تسـوية الاوضـاع في ايرلنـدا بالغـاء وتسـوية كـل مـا يعكـر العلاقـة مـع السـكان الايرلنـديين الـذين كـان يشـعرون بـالغبن في العديـد مـن القـوانين الصــادرة بشــان مصــالحهم المختلفــة مــن بينهــا قــانون تبعيــة الكنيســة الايرلنديـة الى الكنيسـة الرسميـة في انكلـترا اذ كـان بموجبهـا يخضـع ســكان أيرلنـدا الى الكنيسـة الانكيليكانيـة وتجبـى الضـرائب مـنهم لصالحها على الرغم من انهم على المذهب الكاثوليكي. وقدم غلادستون لائحة لالغاء هذا القانون وأجتهد في كسب تاثير القوى السياسية والتاج البريطاني على مشرعه والذي لاقى معارضة كبيرة الا انه نجح في اصدار القانون بالغاء الصفة الرسمية من الكنيسة الايرلندية في تموز عام ١٨٦٩.

ب. كمـا اصدر قـانون اخـر منـع بموجبـة طـرد الفلاحـين مـن مـزارعهم في ايرلندا وان حدث ان اضطر الملاكين للاستغناء عنهم فان عليهم تعويض الفلاحين.

ج.من الاعمال البارزة لغلادستون هو اصلاح الواقع التعليمي وهـي الخطوة الاهم في تاريخ التعليم البريطاني باصدار قانون التربية لعام ١٨٧٠.

كـان التعليم يجـري في مؤسسـات خاصـة وتحـت اشـراف ورعايـة الهيئـات الدينية، وكان المصدر الرئيسي للتمويل في ذلك التعليم هو البرلمان والمنح ومن الاجور التي تستوفي من الطلبة مع قيام الدولة البريطانية بتقديم منح محددة أبتداء من عام ١٨٣٣. لم يكن التعليم يشمل الا القليل من الاطفال

اذ تقدر الدراسات ان نصف اطفال الشعب البريطاني كانوا لايدخلون تلك المدارس.

وبموجب (قانون التربية) قررت الحكومة فتح المدارس في أماكن مختلفة من بريطانيا لاسيما تلك المناطق التي لاتوجد فيها مدارس وتديرها مجالس التربية في المدن، ويكون تمويل هذه المدارس من قبل الحكومة.

الامر المهم في هذا القانون انه اسس بشكل عملي للعلمانية البريطانية من خلال هو منع الحكومة اعطاء الدروس الدينية في هذه المدارس مع الاستمرار في اعطاء المنح للمدارس الدينية، كان الهدف من ذلك هو بناء جيل وطني بعيد عن المذهبية ويكون أخلاصه الأول للدولة والمجتمع البريطاني، وان يكون مهنيا. وقد قدرت الاعانات لتلك المدارس الحكومية في سنة صدور القانون ما يقارب(المليون جنية) توسع عدد المدارس في عام ١٨٧١ من مليونين مدرسة الى ثلاثة ملايين ونصف.

وأتخذت خطوات أخرى في دعم التعليم ونشره بين ابناء المجتمع عندما اصدرت الحكومة عام ١٨٧٦(كان دزرئلي رئيسا للوزراء) بانه يجب(على والدي كل طفل السعي في تعليمه مبادئ القراءة والكتابة والحساب ومن لم يقم بذلك يكون معرضا للاحكام والغرامات المنصوص عليها في لائحة المدارس. وقد تراجعت الأمية نتيجة هذه السياسة من ٢٤٪ عام ١٨٧١ الى ٧٪ عام ١٨٩١ ثم الى ١٪ ١٩١١.

وخطأ التعليم في بريطانيا خطوات أخرى باصدار قانون انشاء المدارس الفنية عام ١٨٨٨ ثم صدر قانون عام ١٨٩٩ تم خلاله تحول شؤون التعليم كله في بريطانيا الى(مجلس التربية) والذي الت اليه كافة شؤون التعليم في الكنائس او الجمعيات الخيرية او غيرها. ان الخطوات اللاحقة كان

الفضل يرجع فيها الى شروع غلادستون في اصلاح التعليم وفق الاسس الوطنية والمهنية.

د. تشريع قانون نقابات العمال لسنة ١٨٧١ اذا استجاب غلادستون لمطلب العمال بتكوين نقابات عمالية تمتلك حقوقا معنوية كالتملك والدفاع في المحاكم، الا ان هذا القانون تضمن منع النقابات من أستخدام العنف في مطالباتها.

هـ.وكما مر بنا فان غلادستون قام بدور كبير في الاصلاح البرلماني عندما قام بالغاء التصويت السري والذي مثل تطورا مهما في التجربة الديمقراطية البرلمانية البريطانية وذلك بموجب قانون عام ١٨٧٢.

و.أصلاح الجيش: طرح غلادستون مشاريع قوانين خاصة بأصلاح المؤسسة العسكرية وجعلها أكثر مهنية وأكثر أرتباطا بالسلطة التشريعية الممثلة للشعب(البرلمان) .ففي عام ١٨٧٠ قدم مشروعا جعل القائد العام للجيش ووزير الحربية خاضع لسلطة البرلمان وليس للملكة، وتمت الموافقة علية في حزيران من ذلك العام وفي عام ١٨٧١ طرح مشروع تنظيم الجيش بالغاء النظام السائد في منح الرتب العسكرية والذي يخضع للتاثير الطبقي من ناحية والمكانة الاجتماعية والمقدرة المالية من ناحية اخرى، اذ كان ذلك أحد العوامل التي تمنح على اساسها الرتب العسكرية لذا فقد أصبح وفق القانون الجديد، تنصيب الضباط وترقيتهم يكون حسب الأقدمية والاستحقاق والكفاءة.كما تضمن القانون ادخال نظام الخدمة العسكرية القصيرة وخدمة الاحتياط .

ز.تنظيم القضاء: عمل كلادستون على المبادرة باصلاح شؤون القضاء بمايعزز حياديته وقوته وتنظيم عمله، اذ كانت المحاكم كثيرة وكل منها تستقل بنظامها واجراءاتها، بل وحتى بالقوانين التي تطبقها التي قد

تتعارض مع بعضها بالاختصاص اوبالقرارات، لذا اقترحت الحكومة عام ١٨٧٣ اصدار قانون توحيد المحاكم والذي بدء العمل به عام ١٨٧٥ ويقضي بانشاء مجلس القضاء الاعلى ومقره لندن ويتكون من محكمتين (المحكمة العليا) وقسمت الى دوائر واقسام حسب الاختصاص و(المحكمة الاستئنافية)، لقد بسط هذا القانون الاجراءات في رفع الدعاوى والسير باجراءاتها والتدقيق بقراراتها.

ح. اصدر غلادستون قانون عام ١٨٧١ بفرض اجراء اختبار لفكاءة طالبي الوظائف الحكومية بعد ان كانت المحسوبية والمنسوبية هي المعيار للحصول عليها الامر الذي ساعد على وجود كفاءات ادارية قادرة على ادارة الدولة بشكل مهني ونزيه ومتطور.

توفي غلادستون عام ١٨٩٤ عن عمر ناهز ٨٥ عاما وترك ورائة مجموعة من القوانين التي كافح من اجل تشريعتها اسهمت في ترسيخ القيم الديمقراطية والتربوية السليمة في اكثر من صعيد وفي مختلف المؤسسات.

٨.اللورد سالزبري:[١] تولى سالزبري قيادة حزب المحافظين بعد وفاة دزرائلي عام ١٨٨١ وكلف براسة الوزراء في ثلاث مرات للاعوام١٨٨٥-١٨٨٦) و(١٨٨٦- ١٨٩٢) و(١٨٩٥- ١٩٠٢) قد كلف للمرة الاولى في حزيران من عام ١٨٨٥ بعد استقالة غلادستون الا ان هذه الوزارة لم تستمر طويلا وذلك لفوز حزب المحافظين بانتخابات تشرين اول ١٨٨٥ وعودة غلادستون الى الحكم.

---

[١] روبرت ارثر سالزبري(١٨٣٠- ١٩٠٣) بدا حياته السياسية في حزب المحافظين واصبح عضوا في البرلمان ١٨٥٤ وحصل على لقب مركيز عام ١٨٦٨ تقلد مناصب وزاريه منها الخارجية عام ١٨٧٨ -١٨٨٠، توفي عام ١٩٠٣.

امـا وزارة الثانيــة الــتي اســتمرت مــن ٢٥ تمــوز ٨٨٦- ١٥ اب ١٨٩٢ وفي وزارته الثالثه التي استمرت من(٢٥ حزيران ١٨٩٠ حتـى ٢٢ كـانون الثـاني ١٩٠١)وقد تميزت فترة هذه الوزارة باهتمامها في الحرب الـدائرة في جنـوب افريقيـا(حـرب البـوير) والـتي كانـت مـدار اهتمـام كـل القـوى الشـعبية والسياسية البريطانية.

كان عصر الملك فكتوريا العلامة الفارقة بين مرحلتين عاشتها بريطانيـا اذ انتقلـت بريطانيـا في ذلـك العصـر الى واقـع سياسـي واجتمـاعي متطـور وتوسـع خـارجي ادى الى تكـوين امبراطوريـة بريطانيـة قويـة عسـكريا واقصادياً.

كان للملكة فكتوريا الاثر الكبير في هذا العصر لمقدرتها السياسية ولشخصيتها وتوجيهاتها فضلا عن وجودالى جانبها رجال محنكين من السياسيين الذين يتمتعون بقدر عال من الاخلاص لبريطانيا وللكتهم.

توفيت الملكة في ٢٢ كانون ثاني عام ١٩٠١ عن عمر امتد لـ(٨٢) عاما بعد ان حكمت(٦٤) سنة.

الملاحق



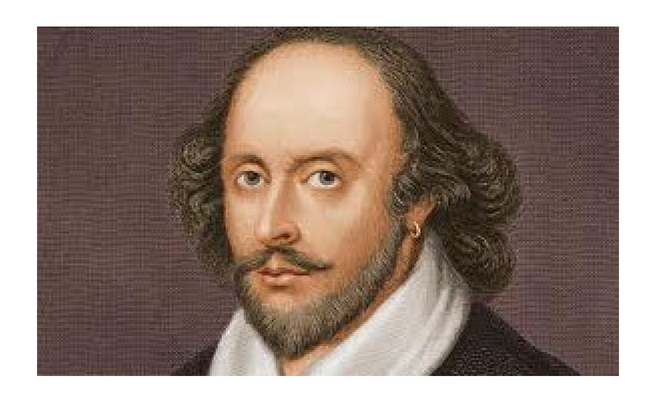
وليم الفاتح



الملكه فكتوريا



الفريد العظيم



شكسبير



هنري الثامن



هنري الثالث



هنري الاول



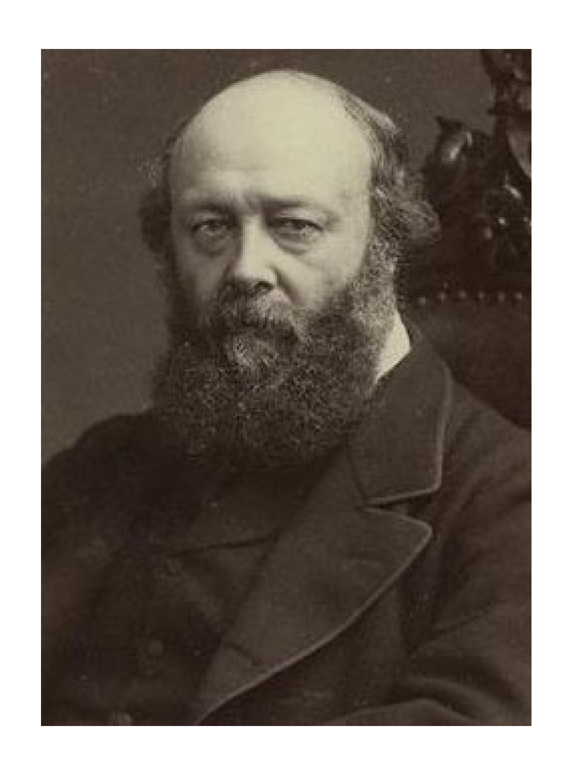
اليزابث الاولى



جورج الاول



جورج الثاني



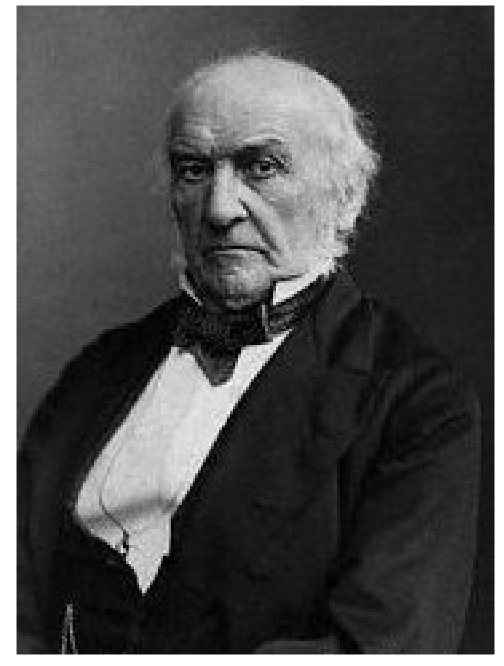
سيسيل



دزرائيلي



وليم بت الابن



غلادستون

مصادر مختارة

- د٠ الياس فرح،تطور الفكر الماركسي،ط٥،(بيروت- ١٩٧٩)٠
- ا. ل. فيشر،تاريخ اوربا في العصر الحديث ١٧٨٩- ١٩٥٠،ترجمة احمد نجيب هاشم و وديع الضبع،ط٩،ا(القاهره- بلا).
- ايمي شوا ،عصر الامبراطورية،ترجمة منذرمحمود محمد ،(الرياض- ٢٠١١).
- اليشا ستريت،انجلترا٠٠٠شعبها وارضها ،ترجمة زينب محمود جوهر،(القاهره- ١٩٦٥)٠
- ا٠ ر٠ راوس،التاريخ الانجليزي،ترجمة محمد محمود زيره،(القاهره- ١٩٤٩)٠
- ارنست باركر،بريطانيا والشعب البريطاني،ترجمة جامعةاكسفورد ، (القاهره- بلا)٠
- انورين بيفان،بدلا من الخوف- الاشتراكية والديمقراطية،ترجمة كامل زهيري،(القاهره- ١٩٥٦)٠
- ج٠ د٠ كول،رواد الفكر الاشتراكي ١٧٨٩- ١٨٥٠، ط٢، ترجمة منير البعلبكي،(بيروت- ١٩٧٨)٠
- جان توشار، تاريخ الافكار السياسية،ج٣،ترجمة د٠ ناجي الدراوشة، (دمشق- ٢٠١٠)٠
- جرانت وتمبرلي، اوربا في القرنين التاسع عشر والعشرين ١٧٨٩- ١٩٥٠،ط٦ ،عدد من الترجمين٠
- جيفري برون،تاريخ اوربا الحديث،ترجمة علي المرزوقي،(عمان- ٢٠٠٦)٠
- روبرت ر. بالمر، تاريخ العالم الحديث،ج١،ترجمة د.محمد حسين الامين، (الموصل- ١٩٦٤).
- عبد العزيز سليمان نوارو عبد الحميد نعنعي،التاريخ المعاصر- اوربا من الثورة الفرنسية الى الحرب العالمية الثانية،(بيروت – ١٩٧٣) .

- محمد محمد صالح، تاريخ اوربا الحديث ١٨٧٠- ١٩١٤،(بغداد- ١٩٦٨).
- - - - - - - - ،تاريخ اوربا من عصر النهضة وحتى الثورةالفرنسية، (بغداد- ١٩٨٢).
- فهمي محمود شكري،نضام الحكم المحلي في بريطانيا،(لندن - ١٩٩٣).
- كارلتون هيز،التاريخ الاروبي الحديث ١٧٨٩- ١٩١٤،ترجمة د.فاضل حسين،(الموصل- ١٩٨٧).
- - - - - - - - ،الثورة الصناعية ننتائجها السياسية والاجتماعية، ترجمة احمد عبد الباقي،ط٢،(بغداد- ١٩٦٢).
- د٠فاضل حسين و د٠كاظم هاشم النعمة، التاريخ الاوربي ١٨١٥- ١٩٣٩، (بغداد- ١٩٨٢)٠
- م٠بير،تاريخ الاشتراكية البريطانية،ترجمة نبيل موسى علام،مراجعة حسين الحوت،(القاهره- ١٩٦٢)٠
- د٠ حافظ عفيفي باشا،الانجليز في بلادهم،(القاهره- ١٩٣٥)٠
-
- مجيد خدوري ،التاريخ الحديث،(بغداد- ١٩٤١)٠
- د. عبد القادر احمد اليوسف، العصور الوسطى ٤٧٦ – ١٥٠٠، (بيروت - ١٩٦٧)